قوله تعالى :

* وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

يخبر سبحانه وتعالى ما أنزل على قوم هذا العبد المؤمن الذى قتلوه لتبليغه إياهم كلمة التوحيد ما أنزل من السماء ملائكة للانتقام وانزال العذاب بل لقد كان أكبر من هذا وأهون قال تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ أى قد ذهبت منهم حرارة الحياة فأصبحوا أجسادا هامدة لا ترى فيها حركة فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ (١)

يقول جل شأنه فى شأن الظالمين : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ (٢) ويقول : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ (٣)

ويقول : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ (٤)

وقد تكون الصيحة من جبريل كما قد تكون من صوت العذاب النازل من السماء .

قوله تعالى : ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ قال على بن أبى طالب : عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ أى يا ويل العباد ، وقال قتادة : ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ أى : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت فى جنب الله .

فعلى كل عاقل أن يحذر موقف الندم حيث لا ينفع الندم قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا**

---

(١) سوره هود آية ١٠٢

(٢) سورة هود آية ١١٧

(٣) سورة يونس آية ١٣

(٤) سورة هود آية ٨٢ – ٨٣

لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[٢].

ويقول تبارك اسمه : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ لقد اتفقت كلمة الباطل على الاستهزاء برسل الله ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[٤].

قال تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[٥] وقال : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾[٦] وقال جل جلاله : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٧] إن هؤلاء المكذبين لم يأخذوا العبرة من الأمم السابقة ومن أهل القرون السالفة ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[٨]

وهؤلاء الظالمون لما أهلكهم الله لم يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾[٩]

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٩

(٣) سورة الزمر الآيات : ٥٤ ـ ٥٩

(٤) سورة الذاريات الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٥) سورة الأنعام الآية : ٢٠

(٦) سورة الرعد الآية : ٣٢

(٧) سورة الأنعام الآية : ٣٤

(٨) سورة الأنعام الآية ٦

(٩) سوره الحاقة آية ٤ ـ ١٠

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[١] أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا لأن لهم موعدا يبعثون فيه يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾[٢] كقوله جل شأنه : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾[٣] وقال جل شأنه : ﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وقال : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾[٤].

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

## من دلائل التوحيد والقدرة

قال تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً

(١) سورة الكهف آية ٤٧
(٢) سورة الكهف آية ٤٩
(٣) سورة الأنعام آية ٩٤
(٤) سورة الكهف آية ٤٨ — ٤٩

مِنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

## تفسير المفردات

﴿ **الميتة** ﴾ المراد التى لا نبات فيها ، ﴿ **جنات** ﴾ بساتين من شجر النخيل والأعناب ، ﴿ **فجرنا** ﴾ شققنا وانبعنا فيها عيونا كثيرة ، ﴿ **سبحان** ﴾ تنزيها لله عما لا يليق به ، ﴿ **الأزواج** ﴾ الأصناف والأنواع المختلفة ، ﴿ **نسلخ** ﴾ نفصل منه النهار ونزيله عنه ، ﴿ **قدرناه منازل** ﴾ الأصل قدرنا له منازل ثم حذفت اللام فقيل قدرناه منازل والمراد جعلنا له منازل ، والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى فى حسابهم ٢٧ منزلا ، ﴿ **كالعرجون القديم** ﴾ العرجون عود العذق ـ القنو ـ ما بين الشماريخ إلى منبته من النخلة ، ﴿ **فى فلك** ﴾ والفلك هو المدار الذى يدور فيه الكوكب سمى به لاستدارته كفلكة المغزل ،﴿ **يسبحون** ﴾ يسيرون بانبساط وسهولة ، ﴿ **المشحون** ﴾ المملوء ، ﴿ **فلا صريخ** ﴾ فلا مغيث .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل ـ أردف ذلك ما يدل على أن البعث يمكن وليس بمستحيل ، وآية ذلك الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعا ولا يدفع عنهم ضراً .

ثم أردف ذلك ذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته ، يتصرف فيها بعظيم سلطانه ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى على الإنسان ، وهى أنه جعل له طريقا يتخذه فى البحر ويسير فيه كما يسير فى البر جلبا لأرزاقه وتحصيلا لأقواته ، من أقاصى البلاد فى أنحاء المعمورة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ .

وهذه آيات بينات وحجج ساطعات وبراهين واضحات على الوحدانية والبعث والقدرة ، إحياء الأرض بعد موتها بالنبات ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾[1] ويقول سبحانه : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها**

(١) سورة فصلت الآية : ٣٩

**الماء اهتزت وربت * وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾**(١)

ويقول جل شأنه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾(٢) ويقول جل شأنه : ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿ **وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾ هذان هما المبدءان اللذان يعتمد عليهما الاقتصاد : مبدأ الإنتاج وهو متمثل فى قوله تعالى : ﴿ **وأخرجنا منها حبا** ﴾ وثانيهما مبدأ الاستهلاك متمثلا فى قوله تعالى : ﴿ **فمنه يأكلون** ﴾ كذلك جاء المبدءان فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون** ﴾ هذا مبدأ الإنتاج وقوله تعالى : ﴿ **ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾ هذا مبدأ الاستهلاك .

لقد أحيا الله هذه الأرض وأمدها بالماء وأخرج منها الحب وحوّلها إلى جنات من نخيل وأعناب ، وفجر فيها العيون ليأكل العباد من تلك الثمار التى صنعها الله بقدرته وما عملت أيديهم شيئا من هذا ، وكان عليهم أن يشكروا المنعم فإن شكر المنعم واجب ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾(٤).

ويقول جل شأنه : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٥)

ويقول جلت قدرته : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾(٦).

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ **أمّن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات**

---

(١) سورة الحج الآيتان : ٥ - ٦ - ٧

(٢) سورة ق الآيات : ٧ - ١١

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ - ١١

(٥) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٦) سورة الأنعام الآية : ١٤١

**بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾** [١]

**﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾** [٢]

**﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾** [٣]

وجل جلال الله إذ يقول : **﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾** [٤] وإذ يقول : **﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾** [٥] فسبحان من أحسن كل شىء خلقه وسبحان الذى خلق الأزواج كلها والأنواع جميعها مهما اختلفت طعومها وروائحها وأشكالها من نبات وأنفس ومما يعلمه الله ولا نعلمه نحن **﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾** [٦].

## كلمة علمية عن النبات

من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر يدور هذا الحديث الممتع الجذاب بين الشيخ وتلميذه .

قال الشيخ : وهذه النباتات ، يا حيران ، التى أتى على ذكرها القرآن فى آيات كثيرة ، وكرر ذكر اختلافها فى الألوان والثمرات ما هو خط المصادفة فى تكوينها ، بأنواعها وأشكالها وطعومها وروائحها وخواصها ومنافعها وهى تنبت فى تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ؟

يقول القرآن الكريم :

**﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء**

---

(١) سورة النمل الآيتان : ٦٠ – ٦١

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢١ – ٢٢

(٣) سورة فصلت الآيتان : ٩ – ١٠

(٤) سورة المؤمنون الآيات : ٢٤ – ٣٢ – ١٨ – ٢٠

(٥) سورة عبس الآيتان : ٢٤ – ٣٢

(٦) سورة طه الآيتان : ٥٣ – ٥٤

واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[١].

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٢].

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾[٣].

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[٤].

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ﴾[٥].

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾[٦].

فأنظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله وقدرته بمختلف الآيات الدالة على أن هذا التكوين أثر من آثار القصد والإرادة والحكمة ، لا من أثر المصادفة العمياء .

إن العلم نفسه يقف مدهوشا أمام هذه القدرة التى جعلت الأرض الواحدة تنبت أنواعا مختلفة من النبات فيقول العلماء إن العناصر التى تتألف منها النبات معلومة وكلها تمتص غذائها من الأرض من تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، وتتنفس من هواء واحد ، وتصنع غذاءها من كربون واحد فالأقرب إلى المصادفة أن تنبت كلها نوعاً واحداً . فما هو السر الذى يجعلها تختلف بعضها عن بعض فى الثمرات والأكل ، كما قال القرآن حتى لو زرعنا فى مساحة لا تزيد على ذراع مربع من الأرض الحلو والحامض والمر والسام ، وسقيناها بماء واحد نجد أن كل صنف يخرج ثماره المختلفة المتميزة من دون أقل اختلاط أو إمتزاج .. ؟

(١) سورة الرعد الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٩

(٣) سورة فاطر الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ – ١١

(٥) سورة ق الآيات : ٧ – ١١

(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٨ – ٢٠

لقد عرف العلم اليوم ، أن الله جلت قدرته جعل فى بذور النبات كما فى بيوض الحيوانات عناصر التخطيط النووى للخلية ، حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره فى تكوين الثمرات والأكل على اختلاف ألوانها وثمراتها ، فهل كان هذا التخطيط النووى العجيب أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

ثم أنظر كيف اختار القرآن من أنواع النبات التى تبلغ الملايين الحب والزيتون والنخيل والأعناب والرمان ، خصها بالذكر من بين كل الثمرات التى تنفع الناس ، ليشير إلى وجود القصد و( العناية ) فى الخلق . فأنت تعلم أن الأغذية التى نحتاج إليها تتألف ، من المواد النشوية ، السكرية الكربونية ، والمواد الدهنية ، أما البروتينية فيأتيك بيان القرآن لمنابعها عند ذكر الأنعام وأما الثلاثة الأولى ، فالنشوية منها نستخرجها من الحبوب على اختلافها ، والسكرية الكربونية نستخرجها من الأعناب والنخيل والرمان ، وأما الدهنية فنستخرجها من الزيت ـ فتأمل يا حيران ـ تلميذه ـ فى أسرار الخطاب إنه خاطب العرب ، إذ خاطبهم بأشياء يعرفونها ، ووجه المنّ بها ظاهر لهم ، وخاطب من ورائهم أقواما علم الله أنهم سوف يأتون بعد أكثر من ألف سنة ، ليفهموا من ذكر هذه الأنواع ، ما ينطوى تحتها من عناصر التغذية الأولية الضرورية للإنسان ، فضلا عن الحيوان الذى خصه بذكر الأعشاب .

حيران : أرى القرآن يكثر من ذكر الزيتون ، ويصف شجرته بأنها مباركة ، وقد أدخلها فى ضرب المثل عن نور الله .

الشيخ : الزيتون شجرة مباركة ومقدسة عند جميع الأمم التى غمرت حوض البحر المتوسط من قديم الزمان ، وكانت عندهم رمز ( الحكمة ) ( والخصب ) ( والمجد ) ، وهى أكثر ما تنبت فى هذه البقعة المتوسطة التى هى ، كما وصفها الله ( لا شرقية ولا غربية ) وفى ما جاورها من الأرض المقدسة ، مهد المدنيات ، ومهد الديانات السماوية كلها ...

وكيف لا تكون مباركة وقد باركها الله ، حين جعلها فى عالم النبات من أعجب آيات خلقه ، الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعنايته ، بما أكمن لنا فيها من غذاء ودفء ونار ونور ، ما كنا نرجو ولا نتوقع ولا يخطر ببالنا ، أن يكون كامنا كله فى هذه الشجرة ذات الورق الدائم الخضرة ، التى نستخرج منها الدهن غذاء أصيلا لأبداننا ، وصبغا لطعامنا .. ودفئا لأجوافنا ، ونستخرج النار ، والنور ، من زيتها هذا ، الذى يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ... ﴿ **نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ **يا حيران** ...

## حديث عن الأرض

### أمُّنا الحنواء

قال الشيخ : والآن دعنا ننزل إلى الأرض يا حيران ، لنرى على ضوء القرآن والعلم ما فى خلقها وتكوينها من آيات النظام والإحكام والاتزان والاتقان والحكمة والنعمة ، ثم نتساءل عن حظ المصادفة العمياء الهوجاء

فى تكوين هذا الخلق العجيب العظيم .

يقول الله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ .

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون** ﴾

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾

﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا** ﴾

﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون** ﴾

﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾

**والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾

﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا * وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾

﴿ **أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾

﴿ **أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون** ﴾

﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** ﴾

﴿ **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾

إلى غير ذلك من الآيات التى ورد فيها خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة .

فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم كيف ولماذا كانت الأرض هى السيارة الوحيدة التى أتيح لها أن تكون صالحة للحياة بما خصها الله به من كثافة وجاذبية وحركة وهواء وماء وغير ذلك من أسباب الحياة وهل كان ذلك أثر المصادفة أم هو أثر من أثار القصد والعناية والتنظيم والإحكام نحن أمام سبع سيارات كبار أخرى منها ما هو أقرب إلى الشمس من أرضنا ، ومنها ما هو أبعد ، ومنها ما هو أكبر من أرضنا ، ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو أسرع من أرضنا دورانا حول الشمس وحول محوره ومنها ما هو أبطأ وكلها بحسب تقدير العلم الذى أرجح أن يكون صحيحا منفتقه عن السماء كما يقول القرآن أو منفصلة عن الشمس كما يقول العلم والمعنى واحد فلماذا كانت أرضنا وحدها صالحة للحياة دون السيارات الأخرى .

فعطارد يدور كالأرض حول نفسه وحول الشمس ولكنه يتم دورته حول نفسه فى مرة ٨٨ يوماً وهى المدة التى

يدور بها حول الشمس أى أنه كالقمر مع الأرض ، أحد وجهيه موجه دائما نحو الشمس فنصفه شمس ونصفه زمهرير وكثافته تقارب نصف كثافة الأرض فالجاذبية فيه قليلة وليس فيه هواء فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة .

والزهرة التى قيل أن مدة دورانها على نفسها هى مدة دورانها حول الشمس وهى ٢٢٥ يوماً تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس دائما مثل القمر وجهها المتجه حرارته ٩٠ درجة والوجه الثانى ٢٠ درجة تحت الصفر وليس فيها هواء ولا ماء بل فيها بخار سميك فمن البديهى أنها لا تصلح للحياة .

والمريخ الذى توهم بعض الباحثين أن فيه حياة يدور حول نفسه كل ٢٤ ساعة مرة مثل الأرض ولكن دورته حول الشمس تتم فى مدة ٦٨٧ يوما وبعده عن الشمس ١٤٢ مليون ميل ـ وحرارته فى النهار بضع درجات فوق الصفر ولكنها فى الليل تنزل إلى ٧٠ درجة تحت الصفر وسطحه بر لا بحر فيه ، ولا ماء على الرأى الراجح وهواؤه مؤلف من غاز الأكسجين وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض فلا تكفى لحفظ الأكسجين فى هوائه فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة أبداً وهذا هو رأى المحققين من العلماء .

والمشترى يتم دورته حول الشمس فى ١٢ سنة ويدور على محوره مرة فى كل عشر ساعات وبعده عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ودرجة الحرارة فيه ١٣٠ تحت الصفر وكثافته ربع كثافة الأرض ويرجحون أنه كرة من النار والمواد الذائبه . فمن البديهى أنه لايصلح للحياة .

وزحل يتم دورته حول الشمس فى ٢٩ سنة ونصف سنة تقريبا ودورته علىٰ محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل ، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء مما يصل إلى الأرض . وكثافة أقل من ربع كثافته الأرض ويظهر للعلماء أن مادة مسطحة مائعة متحركة ، فمن البديهى أنه لا يصلح للحياة .

أما أورانوس ونبتون وبلوتو فعدم صلاحها للحياة أظهر لأسباب كثيرة ولا سيما أن الأول يتم دورته حول الشمس فى ٤٨ سنة و٧ أيام ويدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل والثانى يتم دورته حول الشمس فى ١٦٩ سنة تقريبا ويدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل . وبلوتو يتم دورته حول الشمس فى ٢٤٧ سنة وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل فما رأيك يا حيران فى الحياة على سيار الشتاء فيه ٤٢ أو ٨٤ أو ١٢٣ سنة والصيف فيه كذلك ونهاره خمس ساعات وليله خمس ساعات .

فأرضنا التى منّ علينا الله فى آيات كثيرة وذكرنا فى هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام هى السيار الوحيد الذى جعله الله صالحاً للحياة فقربها من الشمس معتدل والحرارة التى تصل إليها معتدلة وكثافتها تفوق كثافة كل السيارات حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ودورتها اليومية معتدلة وكافية لأحداث نهار

وليل معتدلين صالحين للسعى والراحة ودورتها السنوية معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة صالحة لأرواء الزروع وانضاجها وهى تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة .

فهل كان اجتماع كل هذه الأسباب الصالحة للحياة أثرا من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران ـ سبحان الخلاق العظيم ولكن مولاى الشيخ أشار إلى سبع مزايا جعلت الأرض صالحة للحياة والقرآن أقتصر على ذكر الحكمة فى خلق الأرض وصلاحها للحياة إجمالا ولم يذكر القرب والحرارة والكثافة والجاذبية والدورتين .

الشيخ : وإن المزايا التى ذكّرتك بها يا حيران إنما هى المزايا الرئيسية وسوف أذكّرك بما ينطوى تحتها من مزايا وخواص أما المزايا السبع فقد ذكرها القرآن بكلام يفهم العالم بواطنه ويفهم الجاهل ظواهره فالقرب المعتدل والحرارة المعتدلة مشار إليهما ضمناً بما هى عليه الأرض من صلاح للحياة والزرع .

والكثافة والجاذبية مشار إليهما بوضوح بقوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قراراً** ﴾ فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا لشىء على الأرض قرار أبداً والدورة اليومية مشار إليها بوضوح بذكر الليل والنهار وبذكر مرور الجبال مر السحاب وبذكر الظل وقبضه بغياب الشمس والدورة السنوية مشار إليها بوضوح بذكر الأمطار فهل تريد من العليم الحكيم أن يفصّل ناموس الكثافة والجاذبية ويشرح الدورة السنوية وشكل المدار وميل الأرض فى عصر لم يكن للإنسانية به علم بهذه الأمور وفى خطاب قوم لم يسمعوا بها فضلا عن أن يدركوا معانيها ؟

وهذه الاشارات إلى ذكر الدورة اليومية وحصول الليل والنهار بسببها كثيرة فى القرآن ولا سيما الآيات الآتية :

﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾

﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾

﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾

﴿ **يكّور الليل على النهار ويكّور النهار على الليل** ﴾

﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا** ﴾

﴿ **وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون** ﴾

**﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ﴾**

**﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾**

**﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً ﴾**

**﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾**

**﴿ الم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾**

**﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾**

**﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾**

**﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾**

إلى غير ذلك من الآيات التى منّ الله بها على عباده بذكر الليل والنهار واختلافهما فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم ما فى خلق الليل والنهار من نظام وحكمة وما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق والتنظيم ؟

أنت تعلم يا حيران أن حجم الأرض أصغر من الشمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة وأن كتلتها أى وزنها أقل من الشمس بـ ( ٣٣٢ ) ألف مرة تقريبا .

وأنها أكثف السيارات جميعا بل أكثف من الشمس لأن كثافة الشمس هى ربع كثافة الأرض فالثقل النوعى لكل جسم فى الشمس أخف من الثقل النوعى للجسم نفسه وهو على الأرض وأن بعدها عن الشمس ( ٩٣ ) مليون ميل وأن دورتها اليومية تتم فى ٢٤ ساعة وأن دورتها السنوية حول الشمس تتم فى مدة ٣٦٥ يوماً ونحو ربع يوم وأن شكل مدارها حول الشمس اهليلجى وأن سرعة دوراتها حول نفسها ( ١٠٠٠ ) ميل فى الساعة وأن سرعة دوراتها حول الشمس بمعدل ( ١٨ ) ميل فى الثانية أى نحو ٦٥ ألف ميل فى الساعة وأن وضعها على مدارها مسائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة .

ويقول العلم لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر لاختل أمر الحياة أو تغير أو تشوه لأن حجمها متناسب مع سرعتها وقع دورتها وثقلها متناسب مع قوة جذبها فلو زاد

الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدة ولو قل جذبها لأفلت الأوكسجين منها ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل فى الساعة أو قلّت كما هو الحال فى بقية السيارات فكانت مثلا ( ١٠٠ ) ميل فى الساعة لأصبح طول النهار ( ١٢٠ ) ساعة واحترقت زروعنا فى لهيب النار وذوت فى زمهرير الليل ولاختل ميزان العمل فى النهار والرّاحة والنوم فى الليل .

ولكن هذه السرعة ثابته لم يطرأ عليها تبديل فى ثانية واحدة منذ ملايين السنين ولولا الجاذبية التى تربطنا بالأرض لطرنا عن ظهرها وانتثرنا انتثاراً نحن وبيوتنا ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية التى تلصقنا بالأرض وقوة ( البعد عن المركز ) التى تطردنا عن سطحها لطرنا وطارت بيوتنا وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين .

فهل يكون هذا الصنع العظيم والاتقان العجيب والاتزان الدقيق أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران ــ سبحان الله العظيم .

الشيخ : ولو تأملت يا حيران فى الآيات التى ورد فيها ذكر : **التكوير وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل وطلب كل منهما للآخر حثيثا ومرور الجبال مر السحاب .**

لرأيت فيها البيان الصريح منذ أربعة عشر قرناً لكروية الأرض وحركتها اليومية اللتين يتم بهما إختلاف الليل والنهار .

فإن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية .

إذ لا يكون معنى التكوير واضحا لو نحن تصورنا الأرض مبسوطة تطلع الشمس عليها وتغيب عنها كما كان رأى الأقدمين لأن قوله تعالى : ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً** ﴾ يتجلى فيها كلها معنى التلاحق وأن تكوير كل منهما على الآخر يجرى فى آن واحد فكلما لفّ الليل على النهار فى جزء من الأرض لفّ مثله النهار على الليل فى الجزء الذى يليه ولا يتصوّر هذا المعنى مع تصوّر الأرض مبسوطة ساكنة لأن الشمس إذا طلعت عليها أنارتها من أولها إلى آخرها دفعة واحدة وإذا غابت عنها أظلمت دفعة واحدة أما مرور الجبال مر السحاب فانه نص صريح فى دورة الأرض اليومية على محورها فتأمل يا حيران ــ زدنى يا مولاى زدنى

الشيخ : أما الدورة السنوية العجيبة وما ينشأ عنها من اختلاف الفصول الأربعة فمشار إليها عند الذين يعلمون ويعقلون بتكرار ذكر المطر فى آيات كثيرة سيأتيك ذكرها فلولا هذه الدورة السنوية ما كانت الفصول ولا الأمطار ولا الحياة .

فتعال ننظر يا حيران على ضوء العلم ما وراء إنزال الأمطار من نظام وترتيب فيما يتعلق بشكل الأرض

ودورتها ووضعها لنرى ما هو خط المصادفة فى خلق هذا النظام وتكوينه ؟

يقول العلم أن سرعة الأرض فى دورتها حول الشمس هى ١٨ ميلا فى الثانية لو زادت أو نقصت ثانية واحدة فى كل سنة بل فى مئة سنة لاختل هذا النظام لأن الدورة بمرور الملايين من السنين ستطول كثيرا أو تقصر كثيرا فيختل نظام الفصول الأربعة على الأرض باختلال مددها المحكمة ويختل نظام المطر العجيب .

ولو كان الفلك الذى تدور به الأرض حول الشمس لم يكن أهليلجياً لاختل نظام الفصول الأربعة .

ولو أن الأرض لم تكن ( حنواء ) أى لو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة لاختل نظام الفصول الأربعة المتنقلة على الأرض ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق فى صيف دائم وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو أن درجة هذا الميل زادت عما هى عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين إمّا فى ليل طويل وشتاء طويل أو ف ينهار طويل وصيف طويل فهذه الدرجة من الميل هى الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب.

وباجتماع هذه الأسباب كلها من السرعة إلى المسافة إلى المدة إلى شكل الأرض وشكل المدار إلى الميل إلى غير ذلك ويتم الاعتدالان ويحصل التبخر فى مياه الأرض وتحمل الرياح الأبخرة على متن الغبار الذى تثيره وتسوقها إلى الأجواء الباردة ليتم تكاثفها وتتكون هبات المطر ويجلجل الرعد ويومض البرق وتسقط الأمطار التى تحى الأرض بعد موتها .

أفكل هذا النظام والترتيب والأحكام أثر من آثار المصادفة يا حيران .

حيران ــ سبحان الله العظيم حقا إن أمنا الأرض جدباء حنواء فسبحان من ( حناها ) لنا لتحنو علينا وسبحان من ( احدبها ) لتحدب علينا وعلى كل حيى

## عالم الفلك

قوله تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ **وآية الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأتى الظلمة ، ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له ، وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس ، وسعى على الرزق ، وفى حالة زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ، كما أن فيه تركا للعمل الذى به قوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .

فإن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وأن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ أى : والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله بحسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رَحَوِيَّة حول هذا المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوَضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده ، القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

قال تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾

أى : وجعلنا لسير القمر منازل ، وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل فى كل واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، فإذا كان فى آخر منازله دق ونفوس ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ أى : بسير فى منازله إلى آخرها حتى دق وتقوس ويصفّر ويكون كالعود الذى عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ **كالعرجون القديم** ﴾ وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أى العذق اليابس ، يعنى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى .

وقوله تعالى : ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار** ﴾ أى لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تدرك القمر فى سرعة سيره ، لأن الشمس تجرى مقدار درجة فى اليوم ، والقمر يسير

مقدار ١٣ درجة فى اليوم ، ولأن لكل منهما مدارا خاصا لا يجتمع مع الآخر فيه .

﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ أى : ولا تسبق آية الليل وهى القمر ، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لا يتغير ولا يتبدل .

قوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ أى : وكل من : الأرض والشمس والقمر يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى الماء ، فالشمس تجرى فى مدارها ، والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

وعلماء الفلك قديما جعلوا الكواكب مركوزة فى الأفلاك على ما نراه فى كتبهم فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به ، وكيف يسبح ما لا حرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره ؟ هكذا كان الرأى عندهم . ولكن رأى علماء الفلك المحدثين : أن جميع الكواكب تسير فى مدارات فى عالم الأثير ، فهى إذاً كأنها سمك فى بحر لجّى .

فاعجب أيها القارىء للقرآن العظيم كيف أثبت ما دل على صمته الكشف الحديث ، ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

( من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر تحت عنوان : أخونا الصغير يدور هذا الحديث بين الشيخ وتلميذه ) أخونا الصغير

الشيخ : وهذا القمر ، أخونا الصغير ، الحلو الظريف الغرير ، الذى ما زلنا نقاربه ، حتى كدنا نتاكبه ، ثم أخذنا نلقلقه ، وبالصواريخ نرشقه ... هذا القمر يا حيران ماذا عرف الإنسان ذو النفس الطُّلعة من أسراره ، وإختلاف أطواره ، فى منازله وأقداره ، وظلماته وأنواره ... ؟

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾[١] .

﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** ﴾[٢] .

﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[٣] .

---

(١)سورة نوح الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢)سورة الفرقان الآية : ٦١

(٣)سورة فصلت الآية : ٣٧

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾[(١)] .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾[(٢)] .

﴿ والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾[(٣)] .

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[(٤)] .

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[(٥)] .

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾

﴿ وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[(٦)] .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاء أولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا : أن هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ، ليعكسه بدوره إلى الأرض كما صرح القرآن . وعرفوا أنه تابع للأرض ، يسايرها ويدور معها ومثلها من الغرب إلى الشرق . وأن له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الأرض . ولكن حكمة الله سبحانه قضت أن يتم الدورتين فى وقت واحد ، وأن يبقى متجها بأحد وجهيه إلى الأرض فلا نرى وجهه الثانى أبداً . ذلك أن الأرض تتم دورتها حول نفسها فى يوم كامل وتتم دورتها حول الشمس فى سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة . أما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الأرض معاً فى مدة شهر قمرى واحد أى : أنه فى المدة التى يدور بها حول الأرض لا يدور على نفسه إلا مرة واحدة يتجه دائما بوجه واحد نحو أمة الأرض لا يوليها ظهره أبداً وعرفوا من بدائع صنع الخلاق الحكيم ، أن القمر فى دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفاً متدرجاً يبدأ به هلالا ثم بدرا ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفى ويطلع بعد ٢٩ يوما و٨ ساعات هلالا جديدا نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا أيضا أن القمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريبا ، وأن كتلته هى جزء من كتلة الأرض .

---

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة ابراهيم الآية : ٣٣

(٣) سورة الشمس الآيات : ١ – ٤

(٤) سورة الأنعام : الآية : ٩٦

(٥) سورة الرحمن الآية : ٥

(٦) سورة يونس الآية : ٥

وعرفوا أن للكواكب الأخرى أقمارا منها الصغير الصغير الذى لا يزيد قطره على بضعة أميال ، ومنها الكبير الكبير الذى يتم دورته حول كوكبه فى ست ساعات ، ومنها البطىء البطىء الذى لا يتم دورته إلا فى سنتين . وعرفوا أنه ما من قمر يتم دورته فى شهر واحد إلا قمر هذه الأرض التى جعل الله سنتها بفصولها الأربعة اثنى عشر شهرا .. عرفوا كل هذه الأسرار التى أشار إليها القرآن ، وأدركوا ما فى هذا النظام والإحكام من حكمة ونعمة فقالوا : لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض فى آن واحد ، ولولم يكن يقطع فى دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان ينتقل فى منازله المختلفة لنرى وجوهه المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة فى شهر واحد ليستأنف شهرا جديداً نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب . ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هى أو أكثر أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر ، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المد على الأرض طاغيا يغمر اليابسة كلها ، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها . ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب ، وإن زاد البعد جذب القمر كوكب آخر إليه وحرمنا من نعمه .

ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه ، ولو صغر لقلّت ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الأقمار قصيرة قصيرة فى ساعات ، أو طويلة طويلة فى سنين لاختل هذا النظام الذى جعل الله لنا به القمر حسبانا ، وعاد شهرنا القمرى أسبوعا أو سنتين ...

فهل كل هذا النظام والإحكام الذى خص الله به القمر فى حركاته المحسوبة ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدرة وأقداره المسخرة ، وأنواره المكتسبة وأطواره المرتقبة ، أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران .. ؟

حيران : سبحان الخلاق العظيم . والله إن هذا كله لا يجتمع بالمصادفة ولكنى فهمت من كلام الشيخ أنه يوشك أن يكون كالساخر من عمل العلماء الساعين للوصول إلى القمر .

الشيخ : كيف فهمت هذا ؟ وكيف تظن بى انى أسخر من العلم والعلماء وأنا أدلك على الله بما قاله العلم والعلماء ؟ ولكنى إذا كنت ساخرا فإنما ساخر من أولئك الذين تأخذهم كبرياء العلم ؟ من غير العلماء ، فيظنون أن إرسال صاروخ إلى القمر أو إنسان إلى الفلك ضرب من مشاركة الله فى كبريائه وجبروته ، والتصرف فى ملكوته ... وهم لو عقلوا لأدركوا أن الكبرياء لذلك الذى خلق الإنسان فسواه ، وبنور العقل هداه ، وخلق هذا القمر يشدون إليه الرحال ، ويعقدون على بلوغه الآمال ، ومتى شاء سبحانه شقه ونثره ، ومع النجوم بعثره ، وطمس أثره يومئذ يعلم هذا الإنسان قدْره وقدَره .

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن سخر البحر ليحمل السفن فمن ذلك بل أوله سفينة نوح —

عليه الصلاة والسلام ـ التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام ـ غيرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم** ﴾ أى : أباءهم ﴿ **فى الفلك المشحون** ﴾ أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التى أمره الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس : وهى سفينة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكذا قال سعيد بن حيير والشعبى وقتادة :

وقوله تعالى : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : يعنى بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وغيرهم : وقال السدى هى الأنعام ، وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : أتدرون ما قوله تعالى ﴿**وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ ؟ قلنا لا ، قال : هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح ـ عليه مثلها ، وكذا قال مالك والضحك وقتادة والسدى أيضاً : المراد بقوله تعالى : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى : السفن قال ابن كثير فى تفسيره : ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله جل وعلا ﴿ **إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية** ﴾[1] .

هذا وقد أمرنا سبحانه بشكر هذه النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾[2] .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[3] . وكما فى قوله تعالى : ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[4] . وكما فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[5] . ﴿ **وله الجوار المنشأت فى البحر كالأعلام * فبأى آلاء ربك تكذبان** ﴾[6] .

قوله تعالى : ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾

---

(١) سورة الحاقة الآيتان : ١١ — ١٢

(٢) سورة الزخرف الآيات : ١٢ — ١٤

(٣) سورة الجاثية الآية : ١٢

(٤) سورة فاطر : الآية : ١٢

(٥) سورة الروم الآية : ٤٦

(٦) سورة الرحمن الآيتان : ٢٤ — ٢٥

﴿ **وإن نشأ نغرقهم** ﴾ يعنى الذين فى السفن ﴿ **فلا صريخ لهم** ﴾ أى فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ **ولا هم ينقذون** ﴾ أى : مما أصابهم من الغرق ﴿ **إلا رحمة منا** ﴾ هذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومتاعاً إلى حين** ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله عز وجل ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر * حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم * متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[(١)] .

وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾[(٢)] .

وكقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور وإذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾[(٣)] .

## من مواقفهم العنادية

قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ

(١) سورة يونس الآيتان : ٢٢ – ٢٣

(٢) سورة الشورى الآيات : ٣٢ – ٣٤

(٣) سورة لقمان الآيتان : ٣١ – ٣٢

بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)

## تفسير المفردات

﴿ **متى هذا الوعد** ﴾ : أى : متى يتحقق ويجىء ما وعد به ؟ ﴿ **ينظرون** ﴾ : أى : ينتظرون ﴿ **صيحة واحدة** ﴾ : هى النفخة الأولى فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا . ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ : أى : النفخة الثانية . ﴿ **الأجداث** ﴾ : واحدها جَدَث ( بفتحتين ) القبر . ﴿ **ينسلون** ﴾ : أى : يسرعون . ﴿ **والويل** ﴾ : الهلاك . ﴿ **من مرقدنا** ﴾ : أى : موتتنا ﴿ **محضرون** ﴾ : أى : الحساب والجزاء . ﴿ **الشغل** ﴾ : الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملةو أو مساءة عظيمة . ﴿ **الفاكه** ﴾ : الطيب النفس الضحوك قاله أبو زيد . ﴿ **الظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو ضد الضحِّ ( ما تصيبه الشمس ) . ﴿ **والأرائك** ﴾ : واحدها أريكة ، وهى سرير منجدّ مزين فى قبة أو فى بيت . ﴿ **يدّعون** ﴾ : أى : يطلبون .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق ــ أردف هذا ذكر إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثلات ما حل بمن قبلهم ، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا ثم أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به وسخرية منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لا شك فيه ، أنه سيأتيهم بغتة من حيث لا يشعرون ، وإذا ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، حين يرون العذاب ويقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدّر هذا ووعدكم به على ألسنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله ثم أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسىء فى هذا اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجتراح السيئات .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** ﴾ أى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم ، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله ـ وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات ـ أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض ديدنهم ، وليس يبدع منهم فقال : ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ أى : وما تجىء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسله ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون** ﴾(١) . ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر * وأنتم تبصرون** ﴾(٢) . ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر * وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر** ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الانفاق على نهج قوله : ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾(٤) ، وتنبيه إلى عظيم جرمهم فى ترك الإمتثال للأمر ، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله وإجمال ذلك ـ إنهم لم يعظّموا الخالق ، ولم يشفقوا على المخلوق ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الآمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال المبين فقال : ﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ أى : ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم ـ إلا فى جوز بيِّن وبعد عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٥ ـ ٦

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ١ ـ ٣

(٣) سورة القمر الآيات : ١ ـ ٥

(٤) سورة القصص الآية : ٧٧

وهذا معذرة البخلاء فى كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائماً يقولون : لا نعطى من حرمه الله ، وتلك فرية منهم ، لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضا ، ابتلاء منه لعباده ، ولأسباب نحن لا نعلمها لا بخلا منه سبحانه وشحا ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس لحاجة منه إلى ما لهم ، بل ليبلوهم ويرى أيمتثلون الأمر ويؤدون الواجب أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين ؟ ولا ينبغى لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ؛ لأنه يجهل أسباب ما يشاهدون ويرى فى الكون .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم : ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾(١) . ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون** ﴾(٢) .

وهنا أجابهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ .

أخرج البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يُطعَمهُ ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها »(٣) .

﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ أى : ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا تأخذهم وهم يتنازعون فى أمور معايشهم لا يخطر ببالهم مجيئها ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ ثم بين سبحانه سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هى أقرب فقال : ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ أى : فلا يستطيعون أن يوصوا فى أموالهم أحداً ، إذ لا يمهلون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجا من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى ربهم .

(١) سورة الشورى الآية : ١٨

(٢) سورة النمل الآيتان : ٧١ — ٧٢

(٣) البخارى ــ كتاب الفتن ــ باب خروج النار ٩ — ٩٤

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ فى الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال سبحانه : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا * هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدنيا محضرون * فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[١] . ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون * ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[٢] .

وكقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾[٣] . وقوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم * لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب * وأنذرهم يوم الآزفه إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[٤] . كقوله تعالى : ﴿ فتول عنهم * يوم يدع الداع إلى شىء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ — ١١٨

(٣) سورة الزمر الآيات : ٦٨ — ٧٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٥ — ١٨

وهنا يقول سبحانه : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون .

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ النسلان هو المشى السريع . ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾ يعنون من قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها فلما عاينوا ما كذبوا به فى محشرهم ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾ قال أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ ومجاهد والحسن وقتادة ينامون نومة قبل البعث قال قتادة وذلك بين النفختين فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ وقال الحسن : إنما يجيبهم الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه أعلم .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ **وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة** ﴾(٢) . وقال جلت عظمته : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** ﴾(٣) . أى أنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون .

﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئا** ﴾ أى : من عملها ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾(٤) كقوله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم** ﴾(٥) .

فى هذا المشهد الكريم : يذكر الكتاب العزيز الوعد بالجنة ، كما يذكر بعد ذلك الوعيد بالنار ، فيخبرنا

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة النحل الآية : ٧٧

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(٥) سورة ياسين الآيات : ٥٥ – ٥٨

سبحانه وتعالى : إن أصحاب الجنة الذين دخلوها بفضل الله وتقاسموا درجاتها بأعمالهم ، يخبرنا أنهم فى شغل فاكهون قال الحسن البصرى : ( فى شغل فاكهون ) فى شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد : ( فى شغل فاكهون ) أى : فى نعيم معجبون أى : به . وكذا قال قتادة : وابن عباس – رضى الله عنهما : ( فاكهون ) أى : فرحون .

نعم إنهم مشغولون بنعيم الجنة ، فهم فى روضات يانعة فى الأشجار على شواطىء الأنهار يقطفون الثمار وينعمون بالحور العين الأبكار ، اقرأ معنى قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمئهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾[١]

ثم إقرأ قوله تعالى : فى سورة الواقعة :

﴿ **والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾[٢]

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ – ٧٨

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١٠ – ٤٠

ثم إقرأ قوله تعالى : فى سورة الإنسان :

**﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾** (١)

ثم إقرأ قوله تعالى :

**﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾** (٢)

ثم إقرأ قوله تعالى :

**﴿ إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاءاً من ربك عطاء حسابا ﴾** (٣)

وجل جلال الله إذ يقول :

**﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما**

---

(١) سورة الإنسان الآيات : ٥ – ٢٢

(٢) سورة الطور الآيات : ١٧ – ٢٨

(٣) سورة النبأ الآيات : ٣١ – ٣٦

كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[١]

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[٢]

وإذ يقول :

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٣]

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٥] . لقد كانت أعمالهم فى الدنيا مبنية على الصواب والإخلاص ، فجزاهم ربهم بأعمالهم خيرا ، ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[٥]

إنهم ورثة الفردوس الذين قال الله فيهم :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٤٢ — ٤٣

(٢) سورة الحشر الآيات : ٢٠

(٣) سورة الرعد الآيات ١٩ — ٢٤

(٤) سورة الحاقة الآيات : ١٨ — ٢٤

(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٥ — ١٩

ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[1]

إنهم الصفوة الطاهرة الذين استثناهم الله – تعالى – فى قوله :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دايمون والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنات مكرمون ﴾[2] .

قوله تعالى :

﴿ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾

﴿ هم وأزواجهم ﴾ أى : حلائلهم ، وكذلك الحور العين ، وذلك ليجمع الله الشمل فيكون فى ذلك تمام النعمة ، ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾[3] .

والظلال هنا ظلال الأشجار ، والمراد : ( بالأرائك ) السرر تحت الحجال ( الناموسيات ) .

قوله تعالى : ﴿ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ لقد أعد الله لهم ما لأذن سمعت ولا لعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ .

| | |
|---|---|
| لا تركنــــن إلى الدنيــــا ومــــا فيها | فالموت لا شك يفنينــــا ويفــــنيها |
| واعمــــل لدار غدا رضوان خازنها | والجار أحمد والـــــرحمن ناشيها |
| قصورهــــا ذهب والمسك طيــــنتها | والزعفــــران حشيش نابت فيها |

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١ – ١١

(٢) سورة المعارج الآيات : ١٩ – ٣٥

(٣) سورة البقرة الآيات ٢٥

﴿ ولهم فيها ما يدعون ﴾ أى : ما يطلبون .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[١] .

﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ هذه تحية من عند الله مباركة طيبة ، يقال قولا : من رب متصف بالبر والرحمة والإنعام والكرم ، ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما ﴾[٣] . ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٤] .

## « الـوعيـد »

قوله تعالى :

وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا

---

(١) سورة يونس الآيتان : ٩ - ١٠
(٢) سورة فاطر الآيتان : ٣٤ - ٣٥
(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ - ٢٦
(٤) سورة الرعد من الآية : ٢٣ - ٢٤

وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **امتازوا** ﴾ أى : انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، ﴿ **العهد** ﴾ : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان : يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها ، ﴿ **والجبل** ﴾ : الجماعة العظيمة ، ﴿ **اصلوها** ﴾ أى : قاسوا حرها .

والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالمحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسخ : تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم : أى فى أماكنهم حيث يجترحون القبائح ، ونعمره : أى نطل عمره ، ننكسه فى الخلق : أى نقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يرد إلى أرذل العمر .

﴿ **وما ينبغى له** ﴾ : أى لا يليق به ولا يصلح له ، ﴿ **ذكر** ﴾ : أى عظة من الله وإرشاد للثقلين ، ﴿ **حيا** ﴾ : أى حى القلب مستنير البصيرة ، ﴿ **يحق القول** ﴾ : أى يجب العذاب ، ﴿ **مالكون** ﴾ : ضابطون قاهرون ، ﴿ **وذللناها لهم** ﴾ : سخرناها لهم ﴿ **محضرون** ﴾ : يدفعون عنهم ويغضبون لهم .

## « المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج فى الجنات ـ أعقبه بذكر حال

المجرمين ، وأنهم فى ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ، ثم أردف هذا أنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا بما أرسل اليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيه ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات ما فيه مزدجر لهم أو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وساوسه ، فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم فى الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم فى العقبى ، ثم ذكر مآل أمرهم وأنهم سيصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم فى هذا اليوم لا ينطقون ببنت شفه ، ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت ، وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم فى الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أنصروا ، ولم يشأ أن يمسخ صورهم ، ويجعلهم كالقردة والخنازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ، ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما أحتجوا بها وهى أن ما عمروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل ، واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عمروا فى السن ضعفوا عن العمل ، وقد عمروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : ﴿ **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طالت أعمارهم لا يجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا .

وبعد أن ذكر أمر الوحدانية فى قوله تعالى : ﴿ **وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾ وذكرى أمر البعث فى قوله : ﴿ **اصلوها اليوم** ﴾ ذكرهما الأصل الثالث وهو الرسالة فى هاتين الآيتين ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

وبعد ذلك أعاد سبحانه الكلام فى الوحدانية ، وذكر بعض دلائلها ، ثم ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم ، وأنكروها وزادوا فى ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى : حاكيا عنهم : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾[1] . والحقيقة أنها لا هى ناصرة ولا منصورة .

## « التفسير »

**قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .**

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٨

قوله تعالى : ﴿ **وإمتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ : أى تميزوا عن المؤمنين ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾(١) . وقوله ـ عز وجل : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾(٢) . وقوله ـ عز وجل ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ .

هذا تبكيت منه سبحانه وتعالى : للمخالفين الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون المؤمنين ويحسبون أنهم مهتدون ، ألم يعهد الله إليهم ، ألم تصلهم وصيته بأن لا يعبدوا الشيطان ، ألم يقل لهم إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعوا حزنه ليكونوا من أصحاب السعير ، ألم يقل لهم : ﴿ **يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالاً تعلمون** ﴾(٤)

ألم يقل لهم : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾(٥)

ألم يقل لهم : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾(٦)

ألم يقل لهم : ﴿ **يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾(٧) .

ألم يقل لهم : ﴿ **وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا**

(١) سورة يونس من الآية : ٢٨
(٢) سورة الروم الآية : ١٤
(٣) سورة الروم الآيتان : ٤٣ — ٤٤
(٤) سورة البقرة الآيتان : ١٦٨ — ١٦٩
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٨
(٦) سورة المجادلة من الآية : ١٩
(٧) سورة الأعراف الآية : ٢٧

**من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾**[١] .

ألم يعلموا أن الشيطان قال لرب العزه : ﴿ **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾**[٢] .

ألم يعلموا قوله تعالى :

﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾**[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾**[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾**[٥] .

ألم يقرأوا قوله ـ عز وجل : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾**[٦] .

ولقد أخذ الله العهد على كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، أنه هو الله لذى لا إله إلا هو الذى لا معبود سواه وأشهدهم على أنفسهم وشهدوا بذلك ، قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾**[٧] .

لقد ولدوا على الفطرة والتوحيد ، ولكن الشياطين نزغت بينهم ، فانحرفوا عن طريق الجادة ، قال تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه**

---

(١) سورة النساء الآيات : ١١٧ – ١٢١

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٦ – ١٧

(٣) سورة الحشر الآيات : ١٦ – ١٧

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٢٢

(٥) سورة الإسراء الآية : ٥٣

(٦) سورة ( ص ) الآيتان : ٨٢ – ٨٣

سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ – ١٧٤

**بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾**[١] .

لقد أمرنا الله ــ تعالى ــ وأرشدنا ماذا نصنع إذا شعرنا بنزغ الشيطان ؟ فقال : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٢] .

وقال : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾[٣] . إن الشيطان لبنى آدم كالذئب للغنم ، إن عداوته بينة لا تخفى على أحد ، وقد بين الله ــ تعالى ــ إن الصراط المستقيم فى عبادته وحده لا شريك له ، ﴿ **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾[٤] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنى الجبين الساجد

استمع إلى وصية الله ــ تعالى ــ لعباده : ﴿ **وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾ ثم استمع إلى تلك الحقيقة التى يقررها القرآن الكريم فى قوله ــ جل شأنه :

﴿ **ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون** ﴾[٥] .

واعلم أن الشيطان لا يكف عن إضلال العباد ، ﴿ **ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا** ﴾[٥] ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾[٦] .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ – ١٧٧
(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٢٠٠ – ٢٠١
(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٧ – ٩٨
(٤) سورة الأنعام الآيات : ١٦١ – ١٦٤
(٥) سورة النساء من الآية : ٣٨
(٦) سورة الفرقان من الآية : ٢٩

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[١] . ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[٢] .

لقد استطاع الشيطان بوساوسه وشباكه وشراكه ، ومصايده ومكايده ، أن يضل جبلا كثيرا أى : جمعا كثيرا ، أجننتم أيها العقلاء ؟ أفلم تكونوا تعقلون عندما اتبعتموه ،

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ .

هذه جهنم التى كنتم توعدون ، هذا جزاء المكذبين الذين كذبوا بآيات ربهم وجحدوا بها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٤] .

واقرأ معى قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾[٥] وقوله ــ جل شأنه : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[٦] .

وقال سبحانه : ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾[٧] .
وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[٨] .

---

(١) سورة المجادلة من الآية : ١٩
(٢) سورة المجادلة من الآية : ٢٠
(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٠ ــ ٢١
(٤) سورة النساء الآية : ٥٦
(٥) سورة الرحمن الآية ٤٣ ــ ٤٤
(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٤٠ ــ ٤١
(٧) سورة الحج من الآية : ٧٢
(٨) سورة الحديد الآيات : ١٢ ــ ١٤ ــ ١٥

وقوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون ﴾[2] .

وقوله ـ جل شأنه : ﴿ إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[3] .

وقوله ـ جل شأنه : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ : أى ادخلوها بسبب كفركم وذلك كقوله ـ جل شأنه : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

هذه حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت . قال ابن أبى حاتم : بسنده عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه : كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فضحك حتى بدت نواجزه ثم قال ـ ﷺ : ( أتدرون مم أضحك ، قلنا : الله ورسوله أعلم ـ قال ـ ﷺ : ( من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول ربى ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول لا أجيز على إلا شاهدا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ،

(١) سورة الواقعة الايات : ٤١ — ٥٦

(٢) سورة الطور آية ١٣ — ١٦

(٣) سورة الدخان الآيات : ٤٣ — ٥٠

(٤) سورة النبأ الآيات : ٢١ — ٣٠

(٥) سورة الحاقة الآيات ٢٥ — ٣٧

وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل )[١] .

وقال سفيان بن عيينه : عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – فى حديث القيامة الطويل : قال فيه : ( ثم يلقى الثالث ، فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك آمنت بك ، وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع – قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : ( انطقى ) – قال : فتنطق فخذه ، ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك الذى يسخط الله – تعالى عليه )[٢] .

وقال ابن جرير : بسنده عن أن موسى الأشعرى – رضى الله عنه : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أى رب عملت عملت عملت ، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئا ، وتبدوا حسناته فور أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ، ويقول : أى رب وعزتك ، لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أى رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه ، قال أبو موسى الأشعرى – رضى الله عنه : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ، ثم تلا ( اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون )[٣] .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾[٥] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد : ٨ – ٢١٧

(٢) رواه مسلم فى كتاب الزهد أيضا : ٨ – ٢١٦

(٣) الحديث أورده ابن كثير فى تفسير سورة ( يس ) آية ٦٥ قال :
أخرجه ابن جرير وهو حديث موقوف على أبى موسى الأشعرى .. رضى الله عنه : وأورده فى التفسير الطبرى : ١٧/٢٣ .

(٤) سورة فصلت الآيات : ١٩ – ٢٤

(٥) سورة النور الآيتان : ٢٤ – ٢٥

قوله تعالى : ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ .

هى الآية فيها تتجلى قدرة الله تعالى : إذ لو شاء أن يطمس على أعينهم ، فيصيبهم بالعمى لفعل ، فليس هناك عقبة أمام المشيئة ، وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ، ولو أعماهم فاستبقوا الصراط : أى الطريق وساروا فيه فكيف يبصرون إنهم لا يبصرون بعد العمى ، وقد يكون العمى هنا بمعنى الضلال والبعد عن الحق ، فهو عمى فى القلوب : أى لو شاء الله إضلالهم لأضلهم عن طريق الحق ، ولكنه أرسل إليهم رسولا ، وأنزل إليهم كتابا ، وزودهم بالعقل قال تعالى : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾(1) ،

لقد انقطعت المعاذير ، فلا حجة لمعتذر بعد الإرسال والبيان .

قوله تعالى : ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ للأئمة فى تفسير هذه الآية أقوال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : أهلكناهم ، وقال السدى : لغيرنا خلقهم ، وقال أبو صالح ، لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فما استطاعوا مضيا** ﴾ أى إلى أمام ﴿ **ولا يرجعون** ﴾ إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

قوله تعالى : ﴿ **ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ، وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا إن الله عليم قدير** ﴾(2) . وقوله جل شأنه : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾(3) .

وقد اقتضت سنة الله تعالى : إنه من يعش طويلا فى الحياة يرد على حالته الأولى من الضعف ، وخفة العقل إلى غير ذلك مما كان عليه أيام الطفولة ، فعلى العاقل أن يغتنم خمسا قبل خمس ، شبابه قبل هرمه ، وصحته قبل سقمه ، وغناه قبل فقره ، وفراغه قبل شغله ، وحياته قبل موته .

نموت وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب
عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لا أعجب
أيلهو ويلعب من نفسه تموت ومنزله يخرب

---

(1) سورة النساء الآية : ١٦٥
(2) سورة الحج آية : ٥
(3) سورة الروم آية : ٥٤

أرى الليـــل يطلبنـــا والنهار ولم أدر أيهمـــا أطـــلب
أحـاط الجديدان جمعا بنـــا وليس لنا منهمـا مهـرب
وكل له مدة تنـــــقضى وكل له أثـــر يكـــتب

فبادروا أيها العقلاء بالأعمال الصالحة ، هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

دنياك ساعـات سراع الزوال وانما العقبـــى خلـــود المآل
فهـل تبيع الخلـد ياعاقـلا وتشترى دنيا المنى والضلال

إن التنكيس : هو جعل أعلى الشيء أسفله ، وهكذا يرد الإنسان بعد أن يطعن فى السن إلى حالة الطفولة ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة ( ألا يعقلون ) أى أجنوا ، فصاروا لا يعقلون .

هذه الأحكام ، لا تسوف فإن الموت يأتى بغته ، وإذا فات الأوان فالندم لا ينفع ..

عجـوز تمنت أن تكـون صبيـــة وقد انحنى الجنبان واحـدودب الظهـر
فسارت إلى العطار تبغـى شبـابها وهـل يصلح العطار ما أفسد الدهـر

قوله تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن نبيه ومصطفاه ، إنه ما علمه الشعر ﴿ **وما ينبغى** ﴾ أى ما هو ف طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ، ولهذا ورد أنه ـ ﷺ ـ كان لا يحفظ بيتا وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه(١) .

وقال الامام أحمد بسنده : عن عائشة ـ رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ ـ إذا استراب الخبر تمثل فيه بيت طرفة : ( ويأتيك بالأخبار من لم تزود ) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح(٢) .

أنـــا النبـــى لا كذب أنـــا ابـــن عبـــد المطـــلب

قال العلماء : هذا وقع اتفاقا من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وقال أبو داود : بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ : ( لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا ) انفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٣) .

(١) ذكره ابن عساكر عن الشعبى فى ترجمة ( عتبة بن أبى لهب انظر ابن كثير تفسير يس آية ٦٩

(٢)أخرجه الامام أحمد فى سنده ـــ مسند عائشة ح ٦ ص ٣١ ، ١٤٦ ، ٢٨٩

وأخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة رقم ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ وأخرجه الترمزى وقال هذا حديث حسن صحيح ، أبواب الأدب ما جاء فى إنشاد الشعر رقم ٣٠٦ – ٨ / ١٤٠ ، ١٤١ تحفة الأحوذى .

(٣) اخرجه أبو داود ( فى كتاب الأدب ) باب : ما جاء فى الشعر ح ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

والمقصود الشعر الذى فيه الهجاء .. والغزل ، والنفاق ، وفى الشعر ما هو مشروع ، كهجاء المشركين الذى كان يتعطاه شعراء الاسلام كحسان بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ وكعب بن مالك ــ وعبد الله بن رواحه ، وأمثالهم واضرابهم ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه رسول الله ﷺ ( آمن شعره وكفر قلبه )[١].

وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب ، عن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ ــ قال : ( إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما )[٢].

وما أعظم قول الله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾[٣] . ثم استثنى أهل الصلاح بقوله : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿ **إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ **لينذر من كان حيا** ﴾ أى : لينذر هنا القرآن المبين كل حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر ، وقال الضحاك : يعنى عاقلا ( ويحق القول على الكافرين ) أى : هو رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون** ﴾ .

**يذكر تعالى** : ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ **فهم لها مالكون** ﴾ قال **قتادة** : مطيقون . أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك دليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير ، وقوله تعالى : ﴿ **منها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ، ﴿ **ومنها يأكلون** ﴾ اذا شاءوا نحروا واحتيزوا .

واسمع معى الى قوله تعالى : ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر**

(١) انظر تفسير ابن كثير ( تفسير سورة يس ) آية : ٦٩

(٢) اخرجه أبو داود من حديث أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهم ــ ( فى كتاب الأدب ) باب : ما جاء فى الشعر ج ٤ ص ٣٠٣

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ ــ ٢٢٦

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [١] .

واسمع الى قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [٢] .

واقرأ معى قوله تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [٤]

وقوله تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .. ﴾ [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ، ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ [٧] .

قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ [٨] . ﴿ ومشارب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أى أيجحدون فلا يعرفون للمنعم فضلا ولا يشكرون على آلائه لقد بدلوا نعمة الله كفرا

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٤٢ — ١٤٤
(٢) سورة النحل الآيات : ٥ — ٩
(٣) سورة النحل الآية : ٦٦
(٤) سورة المؤمنون الآية : ٢١
(٥) سورة الزمر الآية : ٦
(٦) سورة غافر الآيات : ٧٩ — ٨١
(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ — ١٤
(٨) سورة النحل الآية : ٨٠

وأحلوا قومهم دار البوار قال تعالى : ﴿ **فإن تولوا فانما عليك البلاغ المبين ، يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾[١]

وقال جل شأنه : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[٢].

إن خلق الأنعام آية من آيات الله دعى القرآن الكريم إلى النظر فيها بعين الاعتبار والتفكر ، قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما فهم لها مالكون** ﴾

وقال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾[٣]

ودلائل التوحيد مبثوثة فى الأنفس والآفاق وليس مقصورة على خلق الإنسان أو الحيوان ، بل إنك لتراها فى أقل المخلوقات ، كالبعوضة والذبابة التى قال الله فى شأنها :

﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه** ﴾[٤]. وتراها كذلك فى الجراد

فواعجبــــا كيـــــف يعصى ... أم كيــف يجحــده الجاحــــد
وفى كل شيء له آيــــــــة ... تدل على أنــــــه الواحــــــد

يقول العلامة ابن القيم : فى كتابه ( مفتاح دار السعادة ) .

( ثم تأمل الحكمة البالغة فى إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام : الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها ، إذ لو كانت عمياء أو صماء ، لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التى للإنسان ، ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لا امتنعت من طاعته واستعصت عليه ، ولم تكن مسخره له ، فأعطيت من التمييز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له ، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان ، وليظهر أيضا فضيلة التمييز والإختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره . قال الله تعالى : ﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخرلنا هذا .وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾[٥]﴿ **وما كنا له مقرنين** ﴾ : أى : مطيقين ضابطين . وقال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾ .

(١) سورة النحل الآيات : ٨٢ – ٨٣
(٢) سورة ابراهيم الآية : ٢٤
(٣) سورة الغاشية الآية : ١٧
(٤) سورة الحج من الآية : ٧٣
(٥) سورة الزخرف من الآية : ١٢ – ١٤

فنرى البعير على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ، ولفصله عضوا عضوا فسل المعطل ( فرقة المعطلة التى عطلت صفات الله ) من الذى ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات ، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنسانى ، لمصالح معاشه ومعاده ، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال ، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناس يحملون أثقاله وحمله ، ويعجزون عن ذلك ، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ماهم فيها من المنافع التى لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأوانى والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال .

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الإنسان وغيره ، فالإنسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها ، خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق ، وضم الشيء إلى مثله ، والحيوان إليهم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع ، خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات بداثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ، ولا تصلح للصناعات ، هذا كله من آكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها ، خلق لبعضها أظلافا تقيها خشونة الأرض إذا جالت فى طلبها المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة مفعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض ، وتتهيأ للركوب والحمولة ، ولم يخلق براثن ولا أنيابا لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

ثم تأمل الحكمة فى خلقه الحيوان الذى يأكل اللحم من البهائم ، ثم كيف جعلت له أسنان حداد ، وبراثين شداد ، وأفواه واسعة ، وأغنيت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد ، والأكل ، ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب ، كالكلايب ولهذا حرم النبى – ﷺ – كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير ، لضرره وعداوته وشره ، والمغتذى عليه شبيه بالغازى ، فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدواتها وشرها ما يشابهها ، فحرم على الأمة أكلها ، ولم يحرم عليهم الضباع ، وإن كان ذا ناب ، فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم ، والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب ، وأن يكون من السباع ، ولا يقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدا ، فصلوات الله وسلامه عليه ، على من أوتى جوامع الكلم ، فأوضح الأحكام ، وبين الحلال والحرام .

فانظر حكمة الله – عز وجل فى خلقه وأمره فيما خلقه ، وفيما شرعه ، تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التى لا يختل نظامها ولا ينخزم أبدا ، ولا يختل أصلا ، ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة الحكمة الأمر الأعظم من مشاهدة حكمة الحق ، وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ، ودينه وعرفوا حكمته ، فيما أحكمه وشهدت فطنتهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ، ومصلحة أريدت بالعباد فى معاشهم ومعادهم .

ثم تأمل أولا ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها ، فلا تحتاج إلى الحمل

والتربية ، كما يحتاج إليه أولاد الإنس ، فمن أجل أنه ليس عند أمهات البشر من التربية والملاطفه والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة ، أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ ، يدرج ويلقط حين يخرج من البضة ، وما كان منها ضعيف النهوض ، كفراخ الحمام واليمام ، أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعن فى أفواه الفراخ من حواصلها ، فتخبأه فى أعز مكان فيها ، ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ، ولا تزال كذلك حتى ينهض الفرخ ، ويستقل بنفسه ، وذلك كله من حظها وقسمها الذى وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى قوائم الحيوان كيف اقتضت أن تكون زوجا لأفردا ، أما اثنين ، وإما أربعا ، ليتهيأ له المشى والسعى ، وتتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك ، لأن الماشى ينتقل ببعض قوائمه ، ويعتمد على بعض ، فذو القائمتين ينقل واحدة ، ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنين ، ويعتمد على اثنين ، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتيه من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ، ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر ، وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر .

ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه ، بخلاف مشيه الطبيعى الذى هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل من يديه مع اليسرى من رجلين ، واقرار يسرى اليدين ويمين الرجلين ثم الأخريين كذلك ، وهذا أسهل ما يكون من المشى وأخفه على الحيوان .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ، ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة ، ثم خولف هذا فى الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله ، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف ، حتى قيل أن عقد الأقباء أنما أخذ من ظهور اتلابل .

وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام ، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه ، وليكون أيضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به ، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل أن القبان إنما عمل من خلقه الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل لكأنه يوازنه موازنة .

ثم تأمل الحكمة فى كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها ، ولو جعل فى أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة ، وقد ذكر فى كتب الحيوان أن فروج الفيلة فى أسفل بطنها ، فإذا كانت وقت الضراب ارتفع ونشر وبرز للفحل ، فيتمكن من ضرابها ، فلما جعل فى الفيلة على خلاف ما هو فى سائر البهائم ، خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذى به دوام النسل .

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف ، وكسيت الطيور بالريش .

وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة ، كالسلحفاة ، وبعضها من الريش ما هو كالأسنة ، كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها ، فإنها لم كن لها سبيل إلى أتخاذ الملابس واصطناع الكسوة والآت الحرب ، أعينت بالملابس وكسوة لا تفارقها ، والآت وأسلحة تدفع بها عن نفسها ، وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال فمعها حذاؤها وسقاؤها ، وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجرى ، وجعل لها ذلك أيضا سلاحا عند انتصافها من خصمها عوضا عن الصياحى والمخالب والأنياب والبراثن ، فتأمل هذا اللطف والحكمة ، فإنها لما كانت البهائم خرصا لا عقول لها ، ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ، ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسيج والغزل ولطف الحيلة ، جعلت كسوتها من خلقها باقية عليها ما بقيت ، لا تحتاج إلى الاستبدال بها ، وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التى أريدت بها ومنها ، وأما الانسان فإنه ذو حيلة ، وكف مهيئة للعمل ، فهى تغزل وتنسج ، ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال ، وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة ، منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ، ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة ، ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء ، فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء ، وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف ، فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة ، ومنها أنه يجعلها تابعة لشهواته وإرادته ، ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس ، كما يتلذذ بأنواع المطاعم ، فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره ، كما جعلت مطاعمه كذلك ، فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ، ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة ، كالحرير والابريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة ، فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته ، ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم ، كما هو فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان ، فدل على ذلك أكمل وأجل وأبلغ فى النعمة ، ومنها أرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما ميزه عنه فى مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه ، ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وطعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته ، فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها ، فلم يجعل كسوته فى هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها ، فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان .

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع ــ والدواب على كثرتها لا يرى منها شىء وليست شيئا قليلا ، فتخفى لقلتها بل قد قيل ، أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه فى الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب ، والنمور وضروب الهوام على اختلافها ، وسائر دواب الأرض ، وأنواع الطيور التى هى أضعاف بنى آدم لا تكاد ترى منها شيئا ميتا لا فى كناسة ولا فى أوكاره ولا فى مساقطه ولا فى مراعيه بطرقة وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا ماعدا عليه عاد إما افترسه سبع ، أو رماه صائد ، أو

عدا عليه عاد أشغله واشتغل فى جنسه عن احراز جسمه وأخفاء جيفته ، فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حين لا يول إلى أجسامها ، وقبرت جيفتها قبل نزول البين بها ، ولولا ذلك لامتلأت الصحارى بجيفتها ، وأفسدت الهواء بروائحها ، فعاد ضرر ذلك بالناس ، وكان سبيلا إلى وقوع الوباء ، وقد دل على هذا قوله تعالى ، فى قصة ابن آدم ،

**﴿ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين ﴾**[1] .

وأما ما جعل عيشه بين الناس كالانعام والدواب ، فلقدرة الانسان على نقله واحتياله فى دفع أذيته ، منع مما جعل فى الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذى حار فيه بنو ادم وفيه وفيما يفعلون به ، كيف جعل طبعا فى البهائم ؟ وكيف تعلموه من الطير ؟

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو فإنك ترى العينين فيه ساطعتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها ، لانها تحرس نفسها وراكبها ، فتتقى أن تصدم حائطا ، أو تتردى فى حفرة .

فجعلت عيناها كعينى المنتصب للقامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا فى أسفل الخطم ، لتتمكن من العض والقبض على العلف إذالو كان فوهها فى مقدم الخطم كما أنه من الانسان فى مقدم الذقن ، لما استطاع أن تتناول به شيئا من الأرض ، ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده ، فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفله لتضعه على العلف ، ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهى لها كالشفة للإنسان ، لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد ، وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ، ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة ، فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر ، والغطاء على حياها ، يواريهما ويسترهما ، ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وخر يجتمع عليه الذباب والبعوض ، فيؤذى الدابة، فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد وتستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة، فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها فى تحريك الذنب راحة ، وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها أفهام الخلق ، ويزدريها السامع إذا عرضت عليه ، فإنه لا يعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض فى الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها .

ثم تأمل شفر ( الفيل ) وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم له مقام اليد فى تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ، ولولا ذلك مااستطاع أن يتناول شيئا من الأشياء من الأرض ، لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ، ليسد مسده ، وجعل قادرا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء ، وجعل وعاء أجوف لين الملمس ، فهو يتناول به حاجته ، ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به ، إذا شاء ، ويعطى ويتناول إذا أراد ، فمن الذى عوضه ؟ ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرءوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم ،

(١) سورة المائدة الآية : ٣١

اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه ، وبارئه ومبدعه وفاطره ،لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ( فإن قلت ، فما باله لم يخلق له عنق كسائر الأنعام ، وما الحكمة فى ذلك ؟ قيل ، والله أعلم بحكمته فى مصنوعاته ، لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم ، وحمل ثقيل ، فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ، ووهنت بحمله ، فجعل رأسه ملصقا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاؤه ، ولما طالت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ، ويوهن عنقه ، فسبحان من فاتت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

ثم تأمل خلق ( الزرافة ) واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان ، فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق بعير ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذبا عليها وعلى الخلقة إذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنف اخر وأنما بقع هذا نادرا .

فالزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ، ووضع بديع من خلق الله الذى أبدعه آيه ، ودلالة على قدرته ، وحكمته التى لا يعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء ، وفى أى لون شاء ، فمنها المتشابه المتناسب الأعضاء ، ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة ، كما يرى عباده قدرته التامة فى خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها ، فمنه ما خلق من غير أب ولا أم ، وهو أبو النوع الانسانى ( آدم ) ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى ، وهى أمهم التى خلقت من ضلع آدم ، ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم ، ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الانسانى فيرى عباده آياته ويتعرف إليهم بالآيه وقدرته ، وأنه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وأما طول عنق الزرافة ومالها فيه من المصلحة ، فلأن منشأها كما ذكر المعتنون بحالها وساكنها فى غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا ، فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذى هناك وثمارها ، وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة فى جمع القوت وادخاره ، وحفظه ودفع الآفة عنه ، فإنك ترى فى ذلك عبرا وآيات .

فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له ، فإذا ظفرت به أخذت طريقا من أسرابها إليه ، وشرعت فى نقله ، فتراها رفقتين ، رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا ، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك فى طريقها ، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين فى طريق ، والجماعة الراجعين من جانبهم ، فإذا ثقل عليهم حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل ، وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذى تتساعد الفئة من الناس عليه فإذا كان الذى ظفر به منهن واحدة

ساعدن عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه ، وإن كان الذى صادفه جماعة تساعدها عليه ، ثم تقاسمته على باب المبيت ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت ، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا ، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها ، ولهذا ترى فى بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ، ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشز من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل فى بطن واد ، ولكن فى أعلاه وما ارتفع على السيل منه — ويكفى فى فطنتها ما نص الله — عز وجل — فى كتابه من قولها لجماعة النمل ، وقد رأت سليمان — عليه السلام — وجنوده ، فقالت :

**﴿ يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾**(١) .

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب فى هذه النصيحة ، النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعذار فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة ولذلك أعجب سليمان قولها ، وتبسم ضاحكا منه ، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ — قال ، نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ، ثم أحرق قرية النمل ، فأوحى الله إليه ( من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ، فهلا نملة واحدة )(٢).

ومن عجب الفطنة فى الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا ، فيقع عليه ليأكل منه ، فيثب عليه الثعلب فيأخذه ، ومن عجيب حيل العنكبوت أن ينسج تلك الشبكة شركا للصيد ، ثم يكمن فى جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه ومن عجيب الفطنة فى هذه الذبابة الكبيرة التى تسمى أسد الذباب ، فإنك تراه حين يحس بالذباب قدوقع قريبا منه يسكن مليا ، حتى كأنه موات لا حراك فيه ، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وعقل عنه دب دبيبا رفيقا حتى يكون منه بحيث يناله ، ثم يثب عليه فيأخذه ، ولا تزدرين العبرة بالشىء الحقير من الذرة والبعوض ، فان المعنى النفيس يقتبس من الشىء الحقير ، والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم حزب الله تعالى ، فى كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار ، فأنزل الله تعالى ،

**﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾**(٣) .

( فما أغزر الحكم وأكثرها فى هذه الحيوانات التى تزدريها وتحتقرها ، وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته فى حكمته ) .

فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة ، فأغناها ما أعطاها من الحيلة

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٨

(٢) أخرجة مسلم فى صحيحة عن أبى هريرة مرفوعا فى ( كتاب الجهاد ) باب : النهى عن قتل النمل : ٧ — ٤٣

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦

عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته ، فإنه حين قدر بأن يكون طائرا فى الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنين ، ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ، ثم خلق ذا جؤجؤ محدود ليسهل عليه اختراق الهول كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة ، وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران ، وكسى جسمه كله بالريش لتتداخله الهواء فيحمله ، ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقتهالإنسان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا ينفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ، ولما عدم الانسان وكان يزدرد الحب صحيحا واللحم غريفا أعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن الحب .

وتطبخ اللحم ، فاستغنى عن المضغ والذى يدلك على قوة الحرارة التى أعين بها ، إنك ترى حجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحا ، وينطبخ فى جوف الطائر حتى لا يرى له أثر .

ثم اقتضت حكمته سبحانه : أن جعله يبيض بيضا ، ولا يلد ولادة ، لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان ما يحمل ويمكث حمله فى جوفه حتى يستحكم ، ويثقل لأثقله وأعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة فى كون الطائر المرسل السائح فى الجو سيلهم نفسه أسبوعا أو أسبوعين باختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ، ويحتمل مشقة الحبس ، ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب فى حويصلته ، ويزق فراخه ، وليس بذى رؤية ولا فكرة فى عاقبة أمره ، ولا يؤمل فى فراخه ، ما يؤمل الإنسان فى ولده من العون والرفد ، وبقاء الذكر فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ، ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التى تراها فى كثير من الطير ، كالطاووس والدراج وغيرهما التى لو خطت بدقيق الأقلام ، ووشيت بالأيدى لم يكن هذا ، فمن أين فى الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطسط والتلوين والصبغ العجيب البسيط ، والمركب الذى لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم ..

ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار ، فلا هى تفقده ولا هى تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب فى الجهات والنواحى ، فسبحان الذى قدره ويسره ، كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ، ويفوتها إذا قعدت عنه ، وجعلها قادرة عليه فى كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران ، والأسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعى ، فلا يشاركها فيه غير بنى جنسها من الطير ، ولو كان ما تقتات به يوجد معدا مجموعا كله ، كانت الطير تشاركها فيه ، وتغلبها عليه ، وكذلك لو وجدته معدا مجموعا ما كبت عليه بحرص ورغبة ، فلا تقلع عنه ، وإن شبعت حتى تبشم وتهلك ، وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدا لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشرة والبطنه ، ولكثر الفساد وعمت

الفواحش والبغى فى الأرض ، فسبحان : اللطيف الخبير الذى لم يخلق شيئا سدى ولا عبثا .

( وانظر ) فى هذه الطيور التى لا تخرج إلا بالليل ، كالبوم والهام والخفاش ، فإن أقواتها هيئت لها فى الجو لا من الحب ولا من اللحم ، بل من البعوض والفراش وأشباههما بما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ، ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل ، وذلك إن هذه الضروب من البعوض والفراش وأمثالهما مبثوثة فى الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه ، واعتبر ذلك بأن تضع سراجا بالليل فى سطح أو عرصة الدار ، فيجتمع عليه من هذا الضرب شىء كثير ، وهذا الضرب من الفراش نحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس فى الطير أضعف منه ، ولا أجهل ، وفيم يرى من تهافته فى النار وأنت تطرده عنها حتي يحرق نفسه دليل على ذلك ، فجعل معاش هذه الطيور التى تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه ، فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها ، فالليل لها بمنزله النهار لغيرها من الطير ، ونهارها بمنزلة ليل غيرها ، ومع ذلك فساق لها الذى تكفل بأرزاق الخلق رزقها ، وخلقه لها فى الجو ولم يدعها بلا رزق من ضعفها وعجزها ، وهذه إحدى الحكم والفوائد فى خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض ، لكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ؛ ولولا ذلك لا نتشرت وكثرت حتى اضطرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته .

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات ، فانظر إليها وإلى اجتهادها فى صنعه العسل ، وبنائها البيوت المسدسة التى هى من أتم الأشكال وأحسنها استدارة واحكمها صنعا ، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن فيها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ، ولا آلة ولا بيكار ، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها ، كما قال تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[1] .

فتأمل كيف طاعتها وحسن أئتمارها لأمر ربها ، اتخذت بيوتا فى هذه الأمكنة الثلاثة ، فى الجبال وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون أي : يبنون العروش وهى البيوت ، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة ، وتأمل كيف كثر بيوتها فى الجبال والشقفان وهو البيت المقدم فى الآية ، ثم فى الأشجار وهى من أكثر بيوتها ، ومما يعرش الناس .

وأقل بيوتها فيهم حيث يعرشون ، وأما فى الجبال والشجر فبيوت عظيمة ، يؤخذ منها من العسل الكثير جدا ، وتأمل كيف أواها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولا ، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت أولا ، ثم بالأكل بعد ذلك ، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعذ عليها شىء ترعى ثم تعود ، ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به ، فهى مؤتمرة لأمره ، سامعة له مطيعة ، وله عليها تكليف وأمر ونهى ، وهى رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها

(١) سورة النحل الآيات : ٦٨ — ٦٩

كما يدبر الملك أمر رعيته ، ثم إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة بعد واحدة تزاحم الأخرى ، ولا تتقدم عليها فى العبور ، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم ، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق ، لا يجوزه إلا واحد واحد ، ومن نذير أحوالها وسياستها ، واجتماع شملها ، وانتظام أمرها وتدبير ملكها ، وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ، ويعلم أن هذا ليس فى مقدورها ولا هو من ذاتها ، فإن هذه أعمال حكمة متقنة فى غاية الإتقان والإحكام ، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله ، وأجهله بنفسه وبحاله ، وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة ، ومن عجيب أمرها أن فيها أميران لا يجتمعان فى بيت واحد ، ولا يتآمران على جمع واحد ، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه ، واتفقوا على أمير واحد من غير معاداة بينهم ، ولا أذى من بعضهم بل يصيرون يدا واحدة ، ومن أعجب أمرها ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه ، وهى النتايج الذى يكون لها ، هل هو على وجه الولادة والتولد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك ، أو يغطى له ، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين ، وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب ، فإنها اذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الكل فتمصها ، وذلك مادة العسل ، ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة ، وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ، ثم يقوم ويعسوبها على بيته مبتدئا منه ، فينفخ فيه ، ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا ، وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله — عز وجل — فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التى قل من يتفطن لها ، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحى الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج ، فسل المعطل : من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ، ومن الذى سهل لها سبله ذللا منقادة لا تستعصى عليها ، ولا تستوعرها ، ولا تضل عنها على بعدها ، ومن الذى هداها لشأنها ، ومن الذى أنزل لها من الطل ما إذا خبته ردته عسلا صافيا مختلفا ألوانه فى غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرآه وسمه لى من جاء به وقال : هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه ، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود ، وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها .

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ، ودخوله إلى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور فى كتبهم أصلا ، وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل ، وهو المذكور فى كتب القوم ، ولعمر الله ، إنه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها ، وأذهب لضررها ، وأقوى للمعدة ، وأشد تفريحا للنفس ، وتقوية للأرواح ، وتنفيذا للدواء ، وإعانة له على استخراج الدواء من أعماق البدن ، ولهذا لم يجيء فى شيء من الحديث قط ذكر السكر ، ولا كانوا يعرفونه أصلا ، ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه ، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل ، واستطابوه عليه ، ورأوه أقل حدة وحرارة منه ، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من

الحدة والحرارة ، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها ، فيصير أنفع له من السكر ومتى رأيت السكر يجلو بلغها ، ويذيب خلطا ، أو يشفى من داء ، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء الى العروق للطافته وحلاوته .. ولم يصف الله فى كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل ، فهما الشفاءان هذا : شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها ، وأدواء شبهاتها وشهواتها . وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها ، وأخلاطها ، وآفاتها ، ولقد أصابنى أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما فى غيرها من المدن ، فكنت استشفى بالعسل وماء زمزم ، ورأيت فيهما من الشفاء أمرا عجيبا ، وتأمل إخباره سبحانه وتعالى : عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال : عن العسل ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾[1] . وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل ، وليس موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه .

ثم تأمل العبرة التى ذكرها الله – عز وجل – فى الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم ، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة ، فينقلب بعضه دما بإذن الله ، وما يسرى فى عروقها ، وأعضائها ، وشعورها ، ولحومها ، فإذا أرسلته العروق فى مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو ، أو عصب ، وغضروف ، وشعر ، وظفر ، وحافر إلى طبيعته ، ثم يبقى الدم فى تلك الخزائن التى له ، إذ به قوام الحيوان ، ثم ينصب ثقله إلى الكرش ، فيصير بلا ، ثم ينقلب باقيه لبنا صافيا أبيض سائغا للشاربين ، فيخرج من بين الفرث والدم ، حتى اذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثقل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد وصار دما ، وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة ، فأذهب الله – عز وجل – كل خلط إلى مقره ، وخزانته المهيئة له من المرارة ، والطحال ، والكلية ، وباق الدم الخالص يدخل فى أوردة الكبد ، فينصب من تلك العروق إلى الضرع ، فيقلبه الله – تبارك وتعالى – من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه ، فاستخرج من الفرث والدم . فسل المعطل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير ؟ وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ، ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل العبرة فى السمك وكيفية خلقته رأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى إذا كان مسكنه الماء ، ولم يخلق له رئه لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه ، لأنه ينغمس فى الماء ، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاديف من جانبى السفينة ، وكسى جلده قشورا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف ، والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر فى بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ ، فهو يصب الماء فيها بفيه ، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك ، كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ، ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحرى كالهواء للحيوان البرى ، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر : بحر هواء يسبح فيه حيوان البر ، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر ، فلو فارق كل من

(١) سورة النحل من الآية : ٦٩

الصنفين بحره الى البحر الآخر مات ، فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء يختنق الحيوان البحرى فى الهواء فسبحان : من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد ، بل إن علموا فيها وجها جهلوا منها أوجها ، فتأمل الحكمة البالغة فى كون السمك اكثر الحيوان نسلا ، ولهذا نرى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة ( وحكمة ذلك ) : أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان ، فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع ، لأنها فى حافات الآجام جاثمة تعكف على الماء الصافى ، فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك ، فاختطفته ، فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ، ودواب البر تأكله ، وقد جعله الله ـ سبحانه ـ غذاء لهذه الأصناف ، اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ، ولو رأى العبد ما فى البحر من ضروب الحيوانات ، والجواهر والأصناف التى لا يحصيها إلا الله ، ولا يعرف الناس منها إلا الشىء القليل الذى لا شبه له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأى العجب ، ولعلم سعة ملك الله ، وكثرة جنوده التى لا يعلمها إلا الله .

وهذا ( الجراد ) نثره حوت من حيتان البحر ينثره من منخريه ، وهو جند من جنود الله ، ضعيف الخلقة ، عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات ، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له ، ولا يحصى منه عدد ولا عدة ، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك ، فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل ، فيغشى السهل والجبل والبدو ، والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته ، ويسد وجه السماء بأجنحته ، ويبلغ من الجو الى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه ، فسل المعطل الجاحد من الذى بعث هذا الجند الضعيف الذى لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة ، والكثرة ، والعدد ، والحيلة ، فلا يقدرون ، بأجمعهم على دفعه ، بل ينظرون اليه يستبد بأقواتهم دونهم ، ويمزقها كل ممزق ، ويذر الأرض قفرا منها ، وهم لا يستطيعون أن يردوه ، ولا يحولوا بينه وبينها ، وهذا من حكمته سبحانه : أن يسلط الضعيف من خلقه الذى لا مؤنة له على القوى ، فينقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردا ، ولا صرفا .. فسبحان من له فى كل شىء حكمة بالغة ، وآية باهرة . انتهى .

قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون** ﴾ .

يقول تعالى : منكرا على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة ، وترزقهم ، وتقربهم إلى الله زلفى ، قال تعالى : ﴿ **لا يستطيعون نصرهم** ﴾ أى : لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، بل هى أضعف من ذلك ، وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ، قال تعالى :

﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد**

**أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم اذان يسمعون بها قل أدعو شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾**[1]

وقوله تعالى : ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ قال مجاهد : يعنى عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ فى حزنهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم ، قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[2]

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ **المشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا ، إنما هى أصنام قال ابن كثير : وهذا القول حسن وهو اختيار ابن جرير .**

**قوله تعالى :** ﴿ **فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى لا يحزنك تكذيبهم لك ، وكفرهم بالله ﴿ **إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرا ، ولا صغيرا ولا كبيرا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديما وحديثا . ومثله قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ، إن الذين أشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾[4] .

## « البعث حق »

قال تعالى :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ — ١٩٥ .

(٢) سورة الاحقاق الآية : ٥ — ٦

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٧٦ — ١٧٧

(٤) سورة المائدة الآية : ٤١

خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

## « تفسير المفردات »

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ فى الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية .. ضرب لنا مثلا : أى وأورد فى شأننا قصة عجيبة هى فى غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، الرميم : كالرمة والرفات ، بلى : كلمة جواب كنعم ، تأتى بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه فى الايجاد ، الملكوت : الملك التام .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته ، ووجوب عبادته ، وبطلان إشراكهم ، بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث ـ أردف ذلك ذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى : ومبطلة لإنكارهم له ، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا ، وقالوا : كيف ترجع الحياة الى هذه العظام النخرة ؟ فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم ، هو الذى يحييها ، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت ، ثم ذكر لهم دليلا آخر يرفع هذا الاستبعاد ، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء ، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضا طريا ، ثم يبس وبلى ، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان ، وفيه الدليل على قدرته ، وهو خلق السموات والأرض ، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق ، وفيه بطلان لإنكارهم ، فأبان أن كل شيء هين عليه ، فما هو إلا بقول ﴿ **كن فيكون** ﴾ تنزه ربنا ذو الملكوت عن كل ما يقول المشركون ، فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء .

**﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾** .(١)

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ — ١١٦

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة : ( جاء أبى بن خلف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفى يده عظم رميم وهو يفته بيده ، ويذروه فى الهواء ، ويقول : أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا ؟ قال ـ ﷺ ـ : ( نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات من سورة يس ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ الآيات .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة .

**١ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .**

**٢ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .**

**٣ - ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .**

**٤ - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ﴾ .**

**٥ - فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ .**

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجميلا يقول ـ رحمه الله تعالى :

قال مجاهد وعكرمة عروة بن الزبير والسدى وقتادة : ( جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ـ ﷺ ـ تعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار .. ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. الآيات** ﴾ والألف واللام فى الإنسان للجنس يعم كل منكر للبعث .

قوله تعالى : ﴿ **أنا خلقناه من نطفة فإذا هم خصيم مبين** ﴾ أى : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقة من شىء حقير ضعيف معين ، كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج** ﴾[2] .

أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الامام أحمد فى سنده : عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ بصق يوما فى كفه

(١) سورة المرسلات الآيتان : ٢٠ - ٢٢

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

فوضع عليها إصبعه ، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقال الله تعالى : ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك ( ثيابك ) وللأرض منك وئيد ( صوت ) ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ )(١) .

قوله تعالى : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ أى : أنه ـ أى الإنسان الكافر ـ استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السماوات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله تعالى : خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده .

ولهذا قال عز وجل : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

قال الإمام أحمد بسنده عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة ـ رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ـ ﷺ : فقال : سمعته ـ ﷺ ـ يقول : ( إن رجلا حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامت فاجمعوا لى حطبا كثيرا جزلا ، ثم أوقدوا فيه نارا ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى ، فامتحشت ، فخذوها فذقوها ، فذروها فى اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله تعالى إليه ، ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له )(٢) .

فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشا .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ، ثم يسحقوه ، ثم يذروا نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر فى يوم رائح ، أى كثير الهواء ، ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى : البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له .

وقوله تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما . كالزناد سواء .

---

(١) أخرجة الامام أحمد فى مسند ٤٥ – ٢١٠ ورواه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الوصايا ) باب : النهى عن الامساك فى الحياة والتبرير عن الموت ص ٢ – ٩٠٣ رقم ٢٧٠٧

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده : ٥ – ٣٩٥

## « كلمة العلم فى إثبات البعث »

وللعلم فى هذا المقام كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهى .

يقول المهندس عثمان حلمى فى كتابه : ( من آيات الله فى الكون ) تحت عنوان ( النار من الشجر الأخضر ) .

( فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لاننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة ، فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ومن هذا الخشب توقد النار التى هى .. مصدر للطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية .. وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وتذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون** ﴾ .

وعندما نتدبر معنى : هذه الآية الكريمة نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة مثل الكيمياء ، والنبات ، والأحياء ، والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيرا صحيحا يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية ، وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله فى السماوات والأرض .

وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة من آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى : خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها ، وقدرها ، ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب : دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقودا ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه ، وادخاره ليوقده عند الحاجة . وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض ، وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة ، فتكربنت ، أى تفحمت وأصبحت ذلك الفحم المعروف .

والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه . ومن عجب أن هذه

الكتل من الخشب ، وما نتج عنها الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى يوجد فى الهواء مختلطا مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ، ويمثله فى درجة الحرارة العادية ، دون عناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض . والله سبحانه وتعالى : أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون . ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل ، ولذا فان الشجر الأخضر ـ والأخضر دون سواه ـ هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون .

ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر . على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ، من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعيه التى يتكون فيها الخشب ، فيخزن فيها ، ثم يتركز تدريجيا ، ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ، مثل اللجنين والسوبرين ، فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١٠٠٠ / ١ من الملليمتر ، ككثير من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا ، وسخر لها الامكانيات ، فقامت بعملها المعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل ، أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا لأن هذه الإمكانات ينقصها العامل الهام الفعال ، وهو التى أودعها الله الخالق سبحانه وتعالى : فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها ، فهو الذى قدر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وأنى للانسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقا محدودة ، ولم يؤته من العلم إلا قليلا ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ،

تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **ومنكم من يتوف ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾[1] .

هذا للانسان الذى يفخر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية ، وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالا ودمارا ، يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالا فقال : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ .

**فأنزل الله تعالى : فى القرآن الكريم على نبيه ﷺ ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ ليبين لهذا الانسان أن الذى خلق العظام من العدم ، لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى .

وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلمه ، ويعظه . ويظهر له قلة حيلته ، إلى جانب قدرته تعالى ، التى لا تحد فقال ، إن الذى أنشأ العظام أول مرة ، ثم يحييها ، هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة ، أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص لاحتوائه على مادة الكلوروفيل كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامدا فى موضعه ، وقد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ، ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجما ، كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ **يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[2] .

فانظر كيف ضعف الانسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الانسان الذى قهرته الخلية الضئيلة والذبابة الدنيئة أزاء خلق السموات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ، ونبهنا إلى التمعن والتفكير كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعال :

---

(١) سورة الحج من الآية ٥

(٢) سورة الحج الآية : ٧٣

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾(١) .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا !

علم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآية الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم ، سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

## « عود على بدء »

وبعد ما استمعنا إلى كلمة العلم فى الشجر الأخضر ، نعود إلى كلام العلامة ابن كثير فى تفسير الآيات السابقة .

يقول تعالى ، مخبرا منبها عن قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة الثوابت ، والأراضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ أى : أنما يأمر بالشىء أمرا واحدا ، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له كن قوله : ﴿ **فيكون** ﴾ أى ، يوجد دون ما تراخ .

قال الامام أحمد بسنده عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : إن رسول الله – ﷺ – قال ، ( إن الله

(١) سورة الغاشية الآيات : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٢) سورة غافر الآية : ٥٧

(٣) سورة الاحقاف الآية : ٣٣

تعالى يقول : ﴿ **ياعبادى كلكم مذنب ألا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واحد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له** ﴿ **كن فيكون** ﴾[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ سبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أى ، تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه الأمر وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد للمعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء** ﴾ كقوله عز وجل ، ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء** ﴾[(٢)] وبقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك** ﴾[(٣)] فالملك والكلكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت .

ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين ، قال الامام أحمد بسنده عن حذيفة وهو ابن اليمان ــ رضى الله عنه ــ قال : ( قمت مع رسول الله ــ ﷺ ــ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات ، وكان ــ ﷺ ــ إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ، وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى .[(٤)]

سبحـــانك اللهـــم أنت الواحـــد ... كل الوجـــود على وجـــودك شاهـــد

ياحــــى ياقيــــوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنـــا الجبين الساجـــد

يامـــن له عنت الوجـــوه بأسرهـــا ... رهبـــا ، وكل الكائنـــات توحـــد

أنت الآله الواحـــد الحق الـــذى ... كل القلـــوب له تقـــر وتشهـــد

لا يسعنا بعد هذا إلا أن نردد مع الكون كله ، من سمائه إلى أرضه ، من عرشه إلى فرشه ، قوله جل جلاله : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات**

(١) اخرجه الامام احمد فى مسند أبى ذر مرفوعا .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٨٨

(٣) سورة الملك الآية : ١

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ح ٥ ص ٣٨٨ ورواه أو داود والترمذى والنسائى بنحوه أبو داود ــ كتاب الصلاة ــ باب : ما يقول فى ركوعه وسجوده فى ٨ - ٢٣١ حديث رقم ٨٧٤ والنسائى ( كتاب الافتتاح ) باب : ما يقول فى قيامة : ٢ - ١٩٩ - ٢٠٠ وباب : الدعاء بين السجدتين : ٢ - ٢٣١

**والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾**[1].

والقرآن الكريم فى عظمة وجلال قد قطع المعاذير بعدما أقام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والحجج الباهرة على أن البعث حق لا يمارى فى ذلك إلا كل كفار أثيم .

## « شبه المنكرين ودحضها »

يقول الأستاذ عبد الله سراج الدين تحت عنوان ، ( شبه المنكرين الإعادة وبطلانها ) .

لقد أزال الله تعالى ، شبه المنكرين وأبطلها كلها ، وذلك أن شبه المنكرين للاعادة ترجع إلى ثلاثة أمور .

الأول ، اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض ، واختلاطها بأجزاء أخرى ، فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثانى ، أن القدرة لا تتعلق بذلك فى زعم المنكرين ، وأن ذلك غير ممكن فى زعمهم .

الثالث ، زعم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها ، وأن الحكمة تقتضى دوام هذا النوع الانسانى جيلا بعد جيل هكذا أبدا على وجه البقاء .

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنية على ثلاثة أصول ، بها أزاح الله تعالى ، شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة .

أولا : تقرير القرآن الكريم سعة علم رب العالمين ، وأحاطته بكل شيء ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه شيء فقال تعالى : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾[2] أى : فلا يلتبس علينا شيء ، ولا يغيب عنا جزء ، بل نحن جزء عالمون ، وله حافظون فى علم عندنا ، فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهى لا تغيب عنا ، بل هى محفوظة لدينا .

ثانيا : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة رب العالمين ، وأنه لا يعجزه شيء قال تعالى : ﴿ **أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ أى : فالذى خلق ما هو أكبر من الإنسان ، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ، ولئن فرض أنها أعظم من البدء ، فلقد خلق ما هو

(١) سورة الروم الآيات : ١٧ — ٢٧

(٢) سورة ق الآية : ٤

أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان .

**﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .**

ثم أنه أرانا أمورا واقعية مشهودة فى الانسان والحيوان والطيور أماتها وفرق أجزاءها ، ثم أعادها وأحياها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم ، ثم أحياهم ، وقصة السبعين رجلا الذين أخذتهم الصاعقه ، وقصة العزير ــ عليه السلام ــ ونحوها كما تقدم ، ليكون ذلك حجة مشهودة ، دالة على قدرته سبحانه ، على إحياء الموتى .

ثالثا : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة رب العالمين ، وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وليميز الله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى لمن بغى عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب فهو سبحانه ، لم يخلق العالم عبثا ، بل خلق العالم بالحق ، ولا بد أن ينتهى أمر العالم للحق .

قال تعالى : **﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾**[1] .

وقال تعالى : **﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾**[3] .

وقال تعالى : **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾**[4] .

يعنى ، إن الحكم بالتساوى بين المتناقضين هو حكم سيء مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية ، فكيف عند حكمة الخالق التى لا تتناهى ؟ فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضيـاء النهار ، فلا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ، ولا الطالح مع الصالح ، بل لابد من التمييز بينهما فى عالم آخر تظهر فيه النتائج ، وتبرز فيه الدقائق ، وتحق فيه الحقائق وهو يوم الحاقة وما أدراك ما الحاقة ؟

قال تعالى : **﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾**[5]

---

(١) سورة المؤمنون الأيتان : ١١٥ – ١١٦

(٢) سورة الانبياء الآية : ١٦

(٣) سورة ص الآية : ٢٧ – ٢٨ – ٢٩

(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ – ٢٢

(٥) سورة الحاقة الآية : ١ – ٢

## « النفخ فى الصور »

ماذا بعد الكلام عن البعث والأدلة الناطقة بوقوعه ؟

يتحدث العلماء المحققون عن كيفيته ، فيقولون .

إن عدد النفخات فى الصور مختلف فيها .

ذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاث ، نفخة فزع وهى السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أى إماته ، ونفخة إحياء .

فعند نفخة الفزع ، يفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ نفخة الصعق أى ، الإماته فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعد ذلك بمدة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام ينظرون ، وذهب قسم من العلماء ، إلى أن هناك نفختين ، نفخة إماته ، ونفخة إحياء ، أما الذين استثناهم الله تعالى ، من الفزع والصعق حين ينفخ فى الصور ، فقد اختلف فيهم ، فقيل هم ، جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ، على نبينا وعليهم ، الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الأنبياء ، وإلى ذلك جنح البيهقى كما فى الفتح .

وقيل ، هم الشهداء ، أى ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم ــ الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الحور العين ، وخزنة الجنة ، وخزنة النار ، وعلى كل من الأقوال فالواجب اعتقاد أن هناك من استثناهم الله تعالى .

أما المدة فيما بين النفختين ، الإماته والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى ، فقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال ، قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( ما بين النفختين أربعون )[1] .

قالوا لأبى هريرة ، أربعون يوما ؟ قال ( أبيت ) أى ( لا أجزم بذلك ) .

قالوا ، أربعين شهرا ؟ قال ( أبيت ) قالوا ، أربعين سنة ؟

قال ( أبيت )

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، قال ــ ﷺ ــ ( وليس شىء من الإنسان إلا يبلى إلا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة ) .

فى هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة الأربعين ماهى ، ولكن جاء فى رواية لأبى دواد أنها أربعون سنة .

## « عجب الذنب »

روى مسلم بسنده عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال ، إن فى الانسان عظما لا تأكله الأرض أبدا ، منه

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ٦ ــ ١٥٨

يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا ، أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال ، عجب الذنب .[١]

وفى رواية مالك وأبى داود والنسائى ( كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب )[٢] .

وعجب الذنب هو كما قال الامام النووى بفتح العين وسكون الجيم ، العظم اللطيف الذى هو فى أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له ، عجم باليم ، وهو أول ما يخلق من الأرض فى ابن آدم ، وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، كما أوضحه النووى ـ رضى الله عنه ـ وفى الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها ، وبعثها من قبورها ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقى من ابن آدم وهو عجب الذنب ، ويجمع الله تعالى ـ ما تفرق من تراب ذلك الجسم ، وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها ، ثم إن الله تعالى ، يأمر الملك فينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فهنالك تتطاير كل روح إلى جسمها الذى كانت تعمره ( فإذا هم قيام ينظرون ) .

قال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيد كم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾[٤] .

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين فى خبايا الأرض ، وبث الروح فيه ومن هنا ترى أن الله تعالى ـ يشبه أمر البعث والإعاده بانباته الزروع والأشجار ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها .

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[٦] .

وهذا الماء الذى يحيى به الله تعالى ، الأجسام البشرية بعد موتها ، هو ماء الحياة المشتمل على جميع

---

(١) مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة : باب : ما بين النفختين ح ٤ ص ٢٢٧١ رقم ١٤٣

(٢) أخرجه أبو داود ( فى كتاب السنة ) باب : فى ذكر البعث والصور ح ٥ ص ١٠٨ رقم ٤٧٤٣

وأخرجه النسائى ( فى الجنائز ) باب : أرواح المؤمنين رقم ٤٠٧٩ وأخرجه مسلم فى الفتن ، والبخارى فى التفسير ٦ – ١٥٨ سورة الزمر وابن ماجه ( فى الزهد ) باب : ذكر القبر والبلى رقم ٤٢٦٦

(٣) سورة نوح الآيات : ١٧ – ١٨

(٤) سورة ق الآيات : ٤٣ – ٤٤

(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٦) سورة الحج من الآية : ٥ – ٦ – ٧

العناصر الوجودية الأربعة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون** ﴾[١] .

فكانت السموات والأرض رتقا أى ، جملة فى الماء ، ففتقهما سبحانه أى ، فصل وجودهما الى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه ، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ، ثم فصلهما إلى سبع سماوات وسبع أراضين ، ثم أمطر السماء وأنبت الأرض .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾[٢] أى : الماء الذى كانت السموات والأرض رتقا فيه ، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ .

ومما يدل على ذلك ، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد فى الآية الكريمة ، الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قالت : يارسول الله أنى رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأخبرنى عن كل شيء فقال : ( ياأبا هريرة ، كل شيء خلق من ماء )[٣] .

وجاء فى الصحيحين من حديث الشفاعة ، أن العصاة ( عصاة المؤمنين ، حين يخرجون من جهنم يلقون فى نهر الحياة فينبتون نبات الحبة من حميل السيل ــ الحديث )[٤] .

## « حديث عن الصور »

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين ، هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام ، وتختلف فى منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها .

وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن فى ضيق أعلاه وسعة أسفله ، فهو ليس كروى الشكل كالأرض ونحوها ، بل قرنى الشكل .

قال الامام الترمذى فى سننه ، باب ما جاء فى شأن الصور ، ثم أسند إلى عبد الله بن عمر وقال ، ( جاء أعرابى إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : ما الصور يارسول الله ؟ فقال : ﷺ ( قرن ينفخ فيه )[٥] .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال ﷺ ، ( كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ــ القرن ، وحنى جبهته ، وأصغي سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ــ ﷺ ــ

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٠

(٣) مسند الامام أحمد ح ٢ ص ٢٩٥

(٤) اهذا جزء من حديث طويل فى فتح البارى لشرح صحيح البخارى ( فى كتاب التوحيد ) باب : قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضره إلى ربها ناظره ح ١٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ رقم ٧٤٣٧

(٥) الحديث فى سنن الترمذى فى ( كتاب صفة القيامة ) باب : ما جاء فى شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

فقالوا ، كيف نفعل أو كيف نقول ؟ فقال ـ ﷺ ، قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ) [(١)]

وأما صاحب القرن ، أى الصور الذى ينفخ فيه ، فهو إسرافيل عليه السلام ، كما جاء مصرحا به فى جملة الأحاديث .

قال فى الفتح ، اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ ونقل فيه الحليمى الإجماع .

فبعد ما يثبت الله تعالى ، هذه الأجسام ، ويجعلها قابلة للروح ، يأمر الملك أن ينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فتتصل كل روح بجسمها ، ولا تخطئه ، فما أشبه ، الإعاده بالبداءة .

قال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ [(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾ [(٤)] .

هذا هو البعث وكيفيته .

## « ما هو الحشر »

أما الحشر فإنه فى لغة العرب معناه الجمع .

يقول العلماء المراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض قال تعالى : ﴿ **ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا** ﴾ [(٥)]

قال العلامة الفخر الرازى ـ رحمة الله تعالى ، أن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفه ـ أى يوم القيامة ـ ويمكن الجمع بينهما بأن نقول ، أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾ [(٦)] أى : مسحت الأرض وجبالها ودق بعضها بعضا .

والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى :

﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ [(٧)] أى تصير بعد أن كانت صلبا تصير كالصوف المندوف .

---

(١) انظر سنن الترمذى فى ( كتاب صفة القيامة ) باب : ما جاء فى شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ١٠٤

(٣) سورة طه الآية : ٥٥

(٤) سورة نوح الآيتان : ١٧ ــ ١٨

(٥) سورة الكهف الآية : ٤٧

(٦) سورة الحاقة الآية : ١٤

(٧) سورة القارعة الآية : ٥

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبت فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا** ﴾[١] أى فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس أى المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾[٢] .

والحالة الخامسة : أن تصيرها سرابا ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾[٤] .

وهذا المنادى ، هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ فإنه ينادى بالأموات عن أمر من الله تعالى ، من مكان قريب من ذاتهم ، وجميع ذواتهم قائلا : يأأيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله تعالى ، يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ **فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾[٥] أى : يخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر .

﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ أى : مسرعين إلى الداع ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾

ثم قال سبحانه : ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج** ﴾[٦] وتلك هى النفخة الثانية التى يكون بها الاحياء . ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ من القبور ﴿ **إنا نحن نحيى ونميت** ﴾ أى لا شريك لنا فى ذلك ﴿ **وإلينا المصير** ﴾ مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾ .

والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر .

### أول من تنشق عنه الأرض :

وأول من تنشق عنه الأرض هو السيد الأكرم ، محمدا ـ ﷺ ـ الذى خص بالأوليات فى جميع العوالم .

روى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( أنا سيد ولد آدم يوم

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥ - ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٥

(٣) سورة النبأ الآية : ٢٠

(٤) سورة ق الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٥) سورة القمر الآيتان : ٦ - ٧

(٦) سورة ق الآية : ٤٢

القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع )[١] .

وإنما ذكر الرسول ـ ﷺ ـ سيادته يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم فى كل العوالم ، ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس ، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عيانا فلا إنكار منكر ، فلا ينافى أن سيادته ـ ﷺ ـ ثابتة فى الدنيا وفى جميع العوالم وأطلق فى الوصف بذلك ، أى : بسيادته ـ ﷺ ـ ولد آدم لإفادة العموم لأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز ، إذ هو ـ ﷺ ـ أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعا ، كما أوضح ذلك المحققون من العلماء .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من بنى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر )[٢] أى : هو يقول ذلك ـ ﷺ ـ مشكرا ولا فخرا بل شكر الله ـ تعالى ـ وتحدثا بنعمته وإعلاما للأمة أنه مما يجب تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه ـ ﷺ .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم انتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين ) رواه الترمذى وقال حسن صحيح[٣] .

## « سورة الصافات »

السورة مكية بالاتفاق عدد آياتها مائة وثمانون وآيتان وكلماتها ثمانمائة واثنتان وستون وحروفها ثلاثة الآف وثمانمائة وست وعشرون .

**مقصود السورة :**

الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوحدانية ، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين فى الجنان ، وقهر المجرمين فى النيران ، ومعجزة نوح ، وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل فى جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب ، وحكاية الناس فى حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس فى بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة ـ أى فى اعتقاد نسب نبيه سبحانه وبين الجنة والملائكة فى قولهم الملائكة بنات الله ـ ودرجات الملائكة فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيح ( فى كتاب الفضائل ( باب : تفضيل نبينا ـ ﷺ ـ على جميع الخلائق ص ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٣

(٢) انظر سنن الترمذى :.( كتاب المناقب ( باب : فى فضل النبى ـ ﷺ ـ ص ٥ ص ٥٨٧ رقم ٣٦١٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ( فى كتاب المناقب ) باب : مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ ص ٥ ص ٦٢٢ رقم ٣٦٩٢ قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصرة والتأييد ، وتنزيه حضرة الجلال عن الضد والنديد فى قوله : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد الله رب العالمين** ﴾ .

## « المتشابهات »

قوله تعالى : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾ وبعده : ﴿ **إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ .

لأن الأول : حكاية كلام الكافرين ، وهم ينكرون البعث ، والثانى : قول أحد القرينين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء ، وحصوله فيه : كان لى قرين ينكر الجزاء ، وما نحن فيه ، فهل أنتم تطلعوننى عليه ، فاطلع فرآه فى سواءالجحيم، قال : تالله إن كدت لتردين . قيل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين ، وقيل : هما بطروس الكافر ويهوذا المسلم . وقيل : القرين هو إبليس .

قوله : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ وبعده ﴿ **فأقبل** ﴾ بالفاء . وكذلك فى ﴿ **ن والقلم** ﴾ لأن الأول : لعطف جملة على جملة فحسب ، والثانى : لعطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام ، لأنه حكى أحوال أهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجرى فى الدنيا بينهم وبين أصدقائهم . وهو قوله : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾

أى : يتذاكرون ، وكذلك فى ﴿ **ن والقلم** ﴾ هو من كلام أصحاب الجنة بصنعاء ، لما رأوها كالصريم ندموا على ما كان منهم ، وجعلوا يقولون ﴿ **سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ بعد أن ذكرهم التسبيح أوسطهم ، ثم قال : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى : تركهم الاستثناء ومخالفتهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين قوله : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ **لأن فى هذه السورة حيل بين الضمير وبين** ﴿ **كذلك** ﴾ بقوله : ﴿ **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون** ﴾ فأعاده وفى المرسلات متصل بالأول ، وهو قوله : ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ فلم يحتج إلى إعادة الضمير .

قوله : ﴿ **إذا قيل لهم لا إله إلا الله** ﴾ وفى القتال ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ بزيادة ( أنه ) وليس لهما فى القرآن ثالث ؟ لان ما فى هذه وقع بعد القول فحكى ، وفى القتال وقع بعد العلم فزيد قبله ( أنه ) ليصير مفعول العلم ، ثم يتصل به ما بعده .

قوله : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين** ﴾ وبعده ﴿ **سلام على ابراهيم** ﴾ ، ثم ﴿ **سلام على آل ياسين** ﴾ فيمن جعله لغة فى إلياس ولم يُقل فى قصة لوط ، ولا يونس ، ولا إلياس : سلام ، لأنه لما قال : ﴿ **وإن لوطا لمن المرسلين** ﴾ ، ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ ، وكذلك ، ﴿ **وإن الياس لمن المرسلين** ﴾ فقد قال : سلام على كل واحد منهم ، لقوله آخر السورة ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ ، وفى قصة إبراهيم **كذلك نجزى المحسنين** ﴾ ، ولم يقل : ﴿ إنا ﴾ ، لانه تقدم فى قصته ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ وقد بقى من قصته شيء ، وفى سائرها وقع بعد الفراغ ، ولم يقل فى قصتى لوط ويونس : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ ، لانه لما اقتصر من التسليم على ما سبق ذكره اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ **بغلام حليم** ﴾ ، وفى الذاريات ﴿ **عليم** ﴾ وكذلك فى الحجر ، لأن التقدير : بغلام حليم فى صباه ، عليم فى كبره ، وخصت هذه السورة بحليم ، لأنه ـ عليه السلام ـ حلم فانقاد وأطاع ، وقال : ﴿ **يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ ، والأظهر أن الحليم إسماعيل ، والعليم اسحاق ، لقوله : ﴿ **فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها** ﴾ قال مجاهد : الحليم والعليم اسماعيل ، قوله : ﴿ **وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ . كرر وحذف الضمير من الثانى لأنه لما نزل ﴿ **وأبصرهم** ﴾ قالوا : متى هذا الذى توعدنا به ؟ فأنزل الله ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ ثم كرر تاكيدا . وقيل : الأولى فى الدنيا والثانية فى العقبى ، والتقدير : أبصر ما ينالهم ، وسوف يبصرون ذلك . وقيل : أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معانيه ، وقيل : أبصر ما ضيعوا من أمرنا فسوف يبصرون ما ﴿ **يحل بهم** ﴾ ، وحذف الضمير من الثانى اكتفاء بالأول . وقيل : التقدير : ترى اليوم ﴿ **غيرهم إلى ذل** ﴾ وترى بعد اليوم ما تحتقر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدنيا . وذكر فى المتشابه : ﴿**فقال ألا تأكلون**﴾ بالفاء، وفى الذاريات ﴿**قال ألا تأكلون**﴾ بغير فاء، لأن ما فى هذه السورة (جملة اتصلت ) بخمس جمل كلها مبدوءة بالفاء على التوالى وهى : ﴿ فما ظنكم ﴾ الآيات ، والخطاب للأوثان تقريعا لمن زعم أنها تأكل وتشرب ، وفى الذاريات متصل بضمير تقديره : فقربه إليهم ، فلم يأكلوا فلما رآهم لا يأكلون ﴿ **قال ألا تأكلون** ﴾ والخطاب للملائكة ، فجاء فى كل موضع بما يلائمه .

**« وجه المناسبة »**

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

( ١ ) إن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة التى أشير إليها اجمالا فى السورة السابقة فى قوله : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون** ﴾ .

(٢) إن فيها تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالا فى السورة قبلها

(٣) المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها ، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى : على المعاد وإحياء الموتى ، وعَلل ذلك بأنه منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك ، وهو وحدانيته تعالى ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجادا واعداما إلا إذا كان المريد واحدا ، كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ
﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا
بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ
شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾
وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾
أَوَءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ
فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾
فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ
جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ

تَعۡمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٤٠)

## « تفسير المفردات »

﴿ **الصافات** ﴾ : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة فى الشرف والفضيلة ، وقيل : ﴿ **الصافات صفا** ﴾ الصف أن يجعل الشيء على خط مستقيم : قال صففت القوم فاصطفوا إذا أقمتهم على خط مستقيم لأجل الصلاة أو الحرب مثلا .

﴿ **الزاجرات زجرا** ﴾ : أصل الزجر الدفع عن الشيء بتسلط وصياح ، ثم استعمل فى السوق والحث على الشيء ، وفى المنع والنهى ، والمراد هنا : الملائكة ، لأن لهم تأثيرا فى قلوب بنى آدم بزجرهم عن المعاصى وإلهامهم فعل الخير ، ﴿ **والتاليات ذكرا** ﴾ : هم الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، ﴿ **المشارق** ﴾ هى مشارق الشمس بعدد أيام السنة . فهى فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب ، ﴿ **والمغارب** ﴾ : كذلك متعددة تعدد المشارق ﴿ **الدنيا** ﴾ مؤنثة الأدنى ، أى : أقرب السموات من أهل الأرض ﴿ **والمارد** ﴾ المريد المنعرى من الخير من قولهم : مشجر أمرد : إذا تعرى من الورق ﴿ **يستمعون** ﴾ : أى يتسمعون .

أى لا يتسمعون مصغين إلى الملأ الأعلى من الملائكة . ﴿ **الملأ** ﴾ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، ﴿ **يقذفون** ﴾ : يرجمون ، ﴿ **الدحور** ﴾ : الطرد والإبعاد ، ﴿ **واصب** ﴾ : أى دائم ، ﴿ **خطف** ﴾ : الخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرة ، ﴿ **الشهاب** ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، ﴿ **الثاقب** ﴾ : المضيء أو يثقب ما ينزل عليه . ﴿ **فاستفتهم** ﴾ : أى فاستخبر مشركى مكة من قولهم . استفتى فلانا إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه ﴿ **أشد خلقا** ﴾ : أى أصعب خلقا وأشق ايجادا ، ﴿ **لازب** ﴾ : أى ملتصق بعضه ببعض . ﴿ **يسخرون** ﴾ : أى يستهزئون ﴿ **وإذا ذكروا لا يذكرون** ﴾ : أى وإذا وعظوا لا يتعظون ، ﴿ **آية** ﴾ أى معجزة ، ﴿ **يستسخرون** ﴾ : أى يبالغون فى السخرية والاستهزاء ﴿ **وقالوا ياويلنا** ﴾ الويل : قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، ﴿ **الدين** ﴾ : الجزاء — ﴿ **الفصل** ﴾ الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل منهما عن الآخر . ﴿ **احشروا** ﴾ : أى اجمعوا ، ﴿ **وأزواجهم** ﴾ : أى أمثالهم واشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، واصحاب الزنا كذلك ﴿ **إهدوهم** ﴾ : أى دلوهمعليها ، ﴿ **الصراط** ﴾ : الطريق ، ﴿ **الجحيم** ﴾ : النار ، ﴿ **وقفوهم** ﴾ : أى احبسوهم فى الموقف ، مسئولون : أى عن عقائدهم وأعمالهم ، لا تناصرون : أى لا ينصر بعضكم بعضا ، مستسلمون : أى منقادون ، وأصل الاستسلام ، طلب السلامة ويلزمه الانقياد عرفا ، ﴿ **عن اليمين** ﴾ : أى من جهة الخير وناحيته فتنهوننا عنه ، ﴿ **من**

**سلطان** ﴾ : أى من قهر وتسلط عليكم ، ﴿ **طاغين** ﴾ : أى مجاوزين الحد فى العصيان ، فحق علينا : أى وجب علينا ، ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أى دعوناكم إلى الغى والضلال ، ﴿ **المخلصين** ﴾ : هم الذين أخلصهم الله لعبادته ، واصطفاهم لدينه وطاعته ، وهم المخلصون الذى أخلصوا لله فى العبادة .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

افتتح سبحانه : هذه السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته ، وعلمه وقدرته ، بذكر خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب ـ وبعد ذلك تحدث عن المنكرين للبعث ثم أثبت الحشر والنشر وقيام الساعة ببيان أن من خلق هذه العوالم التى هى أصعب فى الخلق منكم ، فهو قادر على إعادة الحياة منكم بالأولى ، كما جاء فى السورة السابقة ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ وجاء فى قوله : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾[1] .

وبعد أن ذكر سبحانه إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه أردف هذا بيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم ، ويعترفون بأنهم كانوا فى ضلال مبين ، ويندمون على ما فرطوا فى جنب الله ولات ساعة مندم ، ويتلاومون فيما بينهم حينئذ ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فيلقى الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا ، إذ كنتم قوما ضالين بطبيعة حالكم ، وما ألزمناكم بشىء مما كنتم تعبدون أو تعتقدون ، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا لأنفسنا فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم ، ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم فى هذا الذل والهوان ، فبين أنهم قد كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد أعرضوا عنها استكبارا ، وقالوا : أنترك دين آبائنا اتباعا لقول شاعر مجنون ، ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون ولا هو بالشاعر ، بل جاء بما هو الحق الذى لا محيص عن تصديقه ، وهو التوحيد الذى جاء به المرسلون كافة ، ثم بين سبحانه أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا إن إلاهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق** ﴾ .

هذا يقسم به المولى ـ تبارك وتعالى : وجوابه ﴿ **إن إلاهكم لواحد** ﴾ ولله تعالى : أن يقسم بما شاء من

(١) سورة غافر من الآية ٥٧

مخلوقاته ، فقد أقسم بالشمس والقمر والليل والنهار والنفس ، كما أقسم بالتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، كما أقسم بحياة حبيبه محمد ـ ﷺ ـ في قوله : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ إلى غير ذلك من أساليب القسم أما العبد فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ومن حلف بغير الله فقد كفر ، وإذا أقسم فعلية أن يكون صادقا لأن اليمين الغموس : أى الفاجرة والكاذبة تغمس صاحبها فى النار ، وإذا أقسم ، فإنما يقسم للضرورة هذه مسائل يجب مراعتها فى القسم قال تعالى : ﴿ **واحفظوا أيمانكم** ﴾[1] وقال جل شأنه :

﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم** ﴾[2]

ولأئمة التفسير فى آيات الصافات أقوال : نذكرها فيما يلى :

قال سفيان الثورى : بسنده عن عبد الله مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ : هى الملائكة ، ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ : هى الملائكة ﴿ **فالتاليات ذكرا** ﴾ : هى الملائكة ، وكذا قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : وغيره ، وقال قتادة : الملائكة صفوف فى السماء ، وقال تعالى : على لسانهم ﴿ **وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون** ﴾ .

قال مسلم بسنده : عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعل لنا ترابها طهورا إذا لم نجد الماء )[3]

وروى مسلم أيضا عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : ﷺ ـ ( يتمون الصفوف المتقدمة ، يتراجعون فى الصف )[4] .

وقال السدى وغيره : معنى قوله تعالى : ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ انها تزجر السحاب ، وقال الربيع انس : ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ ما زجر الله ـ تعالى ـ عنه فى القرآن . ﴿ **فالتاليات ذكرا** ﴾ : قال السدى : الملائكة يجيئون بالكتاب والقران من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا** ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ **إن إلاهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب**

(١) سورة المائدة من الآية ٨٩

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٣) أخرجه مسلم ( فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ) باب : ج ١ ص ٣٧١ رقم ٤

(٤) أخرجه مسلم فى صحيح ( فى كتاب الصلاة ) باب : الأمر بالسكون فى الصلاة ـ إتمام الصفوف ج ١ ص ٣٢٢ رقم ١١٩ .

المشارق ﴾ : هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴿ وما بينهما ﴾ : أى من المخلوقات ﴿ ورب المشارق ﴾ : أى هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق ، وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون .. الآية ﴾ : وقال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعنى فى الشتاء والصيف للشمس والقمر .

تأمــل فى الوجــود بعين فكــر ترى الدنيــا الدنيــة كالخيــال
فكــل الكائنــات غدا ستفنــى ويبقــى وجــه ربك ذو الجلال

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[1] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وإلاهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[2]

لقد أقام القرآن الكريم الأدلة فى الآفاق والأنفس ناطقة بلسان الحال والمقال بأن الله واحد . اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ سنريهم إياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾[3].

واقرأ هذه الآيات البينات من سورة الأنعام : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الأيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الأيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لأيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم

(١) سورة يونس الآية : ٣٢
(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٦٣ – ١٦٤
(٣) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ – ٥٤

لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(١) .

واقرأ هذه الآيات البينات من سورة النحل :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لأيات لقوم يعقلون ، وماذرألكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لأية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلهم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، إلاهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾(٢) .

واقرأ قوله تعالى من سورة النمل :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٩٥ - ١٠٤

(٢) سورة النحل الآيات : ١ - ٢٢

**يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقهم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾**[١]

| | |
|---|---|
| سبحانك اللهم أنت الواحد | كل الوجود على وجودك شاهد |
| ياحى ياقيوم أنت المرتجى | والى علاك عنى الجبين الساجد |
| مافى الوجود سواك رب يعبد | كلا . ولا مولى هناك فيقصد |
| يامن له عنت الوجوه بأسرها | رهبا وكل الكائنات توحد |
| أنت الإله الواحد الحق الذى | كل القلوب له تقر. وتشهد |

قوله تعالى : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾[٢] يخبر تعالى : انه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب يتمتعون بالنظر إليها ويهتدون بنورها ، قال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج** ﴾[٣] .

وقال سبحانه ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **وحفظا من كل شيطان مارد** ﴾ : أى وللحفظ من كل شيطان عات متمرد ، خارج عن طاعة الله قال قتادة : خلقت النجوم لثلاث : رجوما للشياطين ، ونورا يهتدى بها ، وزينة للسماء الدنيا ، وخص سبحانه : السماء الدنيا بالذكر لأنها هى التى تشاهد بالأبصار وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين : قال تعالى : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾[٤] وقال عز وجل : ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب** ﴾ فالشيطان المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ **لا يسمعون إلى الملأ**

(١) سورة النمل الآيات : ٥٩ — ٦٥
(٢) سورة الصافات الآية : ٦
(٣) سورة ق الآية : ٦
(٤) سورة الملك الآية : ٥
(٥) سورة الحجر الآيات ١٦ — ١٨

**الأعلى** ﴾ : أى لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى وهى السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى : مما يقوله من مشرعه وقدره ولهذا قال : ﴿ **ويقذفون** ﴾ أى يرمون ﴿ **من كل جانب** ﴾ : أى من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ **دحورا** ﴾ : أى رجما يدحرون به ، ويزجرون ويمنعون من الوصول الى ذلك يرجمون : ﴿ **ولهم عذاب واصب** ﴾ : أى فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم مستمر ، كما قال : جلت عظمته ﴿ **وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ : وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إلا من خطف الخطفة** ﴾ : أى إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذى تحته ويلقيها الآخر إلى الذى تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى : قبل أن يأتيه الشهاب ، فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن . قال ابن جرير : بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان للشياطين مقاعد فى السماء ، قال : فكانوا يستمعون الوحى قال : كانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى ، قال : فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض ، فزادوا فى الكلمة تسعا ، قال : فلما بعث رسول الله ـ ﷺ ـ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده ، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ قائم يصلى بين جبلى نخلة ـ قال وكيع : يعنى بطن نخلة قال : فرجعوا إلى إبليس فخبروه ، فقال : هذا الذى حدث . ولقد أخبر الله ـ سبحانه ـ عن الجن أنهم قالوا :

﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ، بل عجبت ويسخرون ، وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أءذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أءنا لمبعوثون ، أو أباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا** ﴾ .

أى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقا هم أم السموات والأرض ، وما بينهما ، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ، وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما فى قوله ـ عز وجل ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ وكما فى قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾[2] ثم يبين سبحانه أنهم خلقوا من شىء ضعيف ، فقال سبحانه : ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ : قال الطبرى وصف باللزوب ، لانه تراب مخلوط بماء ، وكذلك خلق آدم من تراب وماء ، ونار وهواء

---

(١) سورة الجن الآية : ٨ - ٩

(٢) سورة الاحقاف الآية : ٣٣

والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا . والغرض من الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر** ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ **وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **بل عجبت ويسخرون** ﴾ أى بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى : من الأمر العجيب ، وهو أعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم : من ذلك .

قال قتادة : عجب محمد — ﷺ — وسخر ضلال بنى آدم ، ﴿ **وإذا رأوا آية** ﴾ أى دلالة على ذلك ﴿ **يستسخرون** ﴾ ، قال مجاهد وقتادة : ﴿ **وقالوا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ أى أن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين ، ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو اباؤنا الأولون** ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ، ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد** ﴾(٣) .

﴿ **وقال الذين كفروا أءذا كنا ترابا وءآباؤنا أءنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وءآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾(٤) ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ .

﴿ **وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٥) .

﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا ألا سحر مبين** ﴾(٦) ﴿ **وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ **قل نعم وأنتم داخرون** ﴾ أى قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما ، وأنتم داخرون : أى حقيرون كما قال سبحانه : ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾ ، وقال : ﴿ **إن**

(١) سورة عبس الآيات : ١٧ — ٢٣
(٢) سورة الطارق الآيات : ٥ — ١٠
(٣) سورة سبأ الآية : ٧
(٤) سورة النمل الآيتان : ٦٧ — ٦٨
(٥) سورة الرعد الآية : ٥
(٦) سورة هود الآية : ٧
(٧) سورة الجاثية الآية : ٢٤ — ٢٧

**الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ ، ثم قال جلت عظمته ، ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون** ﴾ ، أى فإنما هو أمر واحد من الله ـ عز وجل ـ يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال سبحانه :

﴿ **ومن آيته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾[١] .

وقال : ﴿ **يقولون أءنالمردودون فى الحافرة ، أءذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذا كرة خاسرة ، فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون** ﴾ .

يخبر تعالى ، عن قول الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ، ﴿ **وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين** ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿ **هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون** ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله سبحانه الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ ، قال النعمان بن بشير ، يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال عمر بن الخطاب ، فى قوله تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ قال ، أشباههم ، قال ، يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، وهكذا وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله** ﴾ أى من الأصنام والأنداد تحشر معهم فى أماكنهم ، قال تعالى : ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ، إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون** ﴾[٣] وهنا يقول سبحانه : ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ أى أرشدوهم إلى طريق جهنم كما قال :

﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بأياتنا وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾[٤] ﴿ **وقفوهم أنهم مسئولون** ﴾

أى قفوهم حتى يسئلوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا ، وقال ابن عباس ، يعنى

---

(١) سورة الروم الآية : ٢٥

(٢) سورة النازعات الآيات : ١٠ - ١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٩٧ - ١٠٠

(٤) سورة الاسراء الآية : ٩٧ - ٩٨

احبسوهم إنهم محاسبون ، قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ ويقول لهم سبحانه : ﴿ **ألم تكن أياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم أيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولاكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ (١).

ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ **مالكم لا تناصرون** ﴾ ، أى كما زعمتم فى الدنيا ، كنتم تزعمون أنكم تتناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر ( نحن جميع منتصر ) وأخر سؤالهم إلى ذلك الحين ، إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقريع حينئذ أشد وقعا ، وأعظم أثرا قال تعالى : ﴿ **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ ثم ذكر سبحانه : أنهم لا ينازعون فى الوقوف ولا فى غيره ، بل ينقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل ، وعجزوا عن الوصول الى السلام من أى طريق يلتمسونها ، فلا فائدة فى المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة ﴿ **وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا إلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين** ﴾ (٣).

يذكر تعالى : أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة كما يتخاصمون فى دركات النار كما قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾ ويتخاصمون فى النار ﴿ **فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ وقال سبحانه عنهم : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ قال ابن

---

(١) سورة الزمر الآية : ٧١

(٢) سورة طه الآية : ١١١

(٣) سورة سبأ من الآية : ٣١ - ٣٢ - ٣٣

عباس : يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال قتادة : تقول الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين : أى من قبل الخير فتنهونا عنه ، وتبطئونا عنه وقال السدى : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به وقال عكرمة : ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ قال : من حيث نأمنكم ، وقوله تعالى : ﴿ **قالوا بل لم تكونوا مؤمنين** ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للأتباع ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للايمان قابلة للكفر والعصيان ، وما كان لنا عليكم من سلطان ) أى من حجة على حجة ما دعوناكم إليه ، ﴿ **بل كنتم قوما طاغين** ﴾ ، أى بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ، ﴿ **فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين** ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أى دعوناكم إلى الضلالة ، ﴿ **إنا كنا غاوين** ﴾ أى فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا أنكم كنتم قوما فاسقين .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ **قال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[(١)].

قال تبارك وتعالى : ﴿ **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون** ﴾ : أى الجميع فى النار كل بحسبه كما قال سبحانه : ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولاكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[(٢)].

قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ : أى إن مثل ذلك الجزاء العظيم بالمشركين واستكبارهم وفاقا لما تقتضيه الحكمة ويوجبه العدل ، وهذا العذاب بسبب شركهم واستكبارهم وانكارهم لكلمة التوحيد ، ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ : أى يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ، ويعملوا بمقتضاها ، قال تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة**

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٢

(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٣٨ — ٣٩

**الاخرة إن هذا اختلاق ﴾**[١] . وقال سبحانه : ﴿ **واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾[٢] .

ثم ذكر السبب الذى لأجله امتنعوا من استجابة دعوته — ﷺ — ﴿ **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ : أى أنترك عبادة الآلهة التى ورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر ، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى ؟ وقد جمعوا فى كلامهم بين إنكار الوحدانية ، وانكار الرسالة ، فإنكار الأولى : فى استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد ، وإنكار الثانية : فى قولهم : ﴿ **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ .

**ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال سبحانه :**

﴿ **بل جاء بالحق وصدق المرسلين** ﴾ : أى أنه — ﷺ — جاء بالحق الذى لا شك فيه ، وهو التوحيد الذى يثبته العقل ويؤيده البرهان ، وبمثله جاء الأنبياء السابقون ، فهو لم يكن بدعا من الرسل ، بل سار على شاكلتهم واتبع نهجهم فكيف يكون من هذا حاله شاعرا أو مجنونا ؟ .

قوله تعالى : ﴿ **إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ : أى إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم الذى لا تنفك أوجاعه عنكم ، وما هو أبدا بمزايلكم ثم بين العلة فى لحوقه بهم فقال : ﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ أى وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل ، وأسلفتم من معصية وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد أن أبان حال المجرمين ، ذكر حال عباد الله المؤمنين العامليين ، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم فقال تعالى : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى لكن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه أولئك لهم الأمن وهم مهتدون أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

## « مع أصحاب الجنة »

قال تعالى :

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى

(١) سورة ص الآيات : ٤ — ٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٤٥

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **بكأس** ﴾ : أى خمر ، ﴿ **من معين** ﴾ : أى من نهر ظاهر للعيون جار على وجه الأرض ﴿ **لذة** ﴾ : أى ذات لذة ، ﴿ **غول** ﴾ : أى صداع ، ﴿ **ينزفون** ﴾ : أى لا تذهب عقولهم بالسكر كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه ، ﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ : أى قصرت أبصارهن على أزواجهن لا يمدون طرفا إلى غيرهم ، ﴿ **عين** ﴾ : واحدتهن عيناء : أى واسعة العيون فى جمال . ﴿ **المكنون** ﴾ : المستور الذى لا تمسه الأيدى ولا يصاب بالغبار . ﴿ **قرين** ﴾ : أى خليل وصاحب ﴿ **لمدينون** ﴾ : أى لمجزيون ،

﴿ **مطلعون** ﴾ : أى مشرفون فناظرون الى أهل النار ، ﴿ **سواء الجحيم** ﴾ : أى وسط النار للعذاب . ﴿ **النزل** ﴾ : ما يعد للضيف وغيره من الطعام والشراب ﴿ **الزقوم** ﴾ : شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة فى الآية ، فتنه : أى محنة وعذابا فى الآخرة ، وابتلاء فى الدنيا ، ﴿ **أصل الجحيم** ﴾ : أى قعر الجحيم ، ﴿ **طلعها** ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ **رءوس الشياطين** ﴾ : أى فى قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح العورة بالملك ﴿ **الملء** ﴾ : حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه ، ﴿ **الشوب** ﴾ : الخلط ، ﴿ **الحميم** ﴾ : الماء الشديد الحرارة ، ﴿ **مرجعهم** ﴾ : أى مصيرهم ﴿ **ألفوا** ﴾ : أى وجدوا ﴿ **يهرعون** ﴾ : أى يسرعون إسراعا شديدا .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من الهلاك على الآخرين ــ بين هنا أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصين من النعيم المقيم ، واللذات التى قصها علينا فى تلك الآية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ثم بين سبحانه : أنهم لخلو بالهم من المشاغل ، وطيب نفوسهم يسمر بعضهم مع بعض ، ويتحادثون فيما كانوا فيه فى الدنيا مع أخلائهم من شتى الشئون ، مع اختلاف الأهواء ، حتى ليقص بعضهم على بعض إن خليله كاد يوقعه فى الهلاك لولا لطف ربه به ، وقد كان ماله أن صار فى سواء الجحيم ، ثم ذكر نعمة ربه عليه بسبب ما كان يدين به فى الدنيا .

وبعد أن وصف سبحانه : ثواب أهل الجنة ، وذكر ما يتمتعون به من مآكل ، ووصف الجنة ورغب فيها بقوله ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ ، أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار وما يلاقونه فيها من العذاب اللازب الذى لا يجدون عنه محيصا ، وهو عذاب فى مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم جزاء ما دسّوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، وما قلدوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان ، من الكفر بالله وعباده الأصنام والأوثان

وذكر سبحانه : بأن كثيرا من الأمم قبلهم ، قد أرسل إليهم الرسل ، فكذبوا بهم ، وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، ونجى الله عباده المؤمنين المخلصين ، فليكن لك يا محمد فيهم اسوة ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات إن عليك إلا البلاغ .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون** ﴾ .

**قوله تعالى :** ﴿ **إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون** ﴾ : أى ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها .

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله تعالى : من التضعيف ، وقوله سبحانه : ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم** ﴾ قال قتادة : يعنى الجنة ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ **فواكه** ﴾ : أى متنوعة ﴿ **وهم مكرمون** ﴾ : أى يخدمون ويرفهون وينعمون ، ﴿ **فى جنات النعيم على سرر متقابلين** ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض ، وقوله تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ كما قال عز وجل : فى الآية الأخرى ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾[1] . نزه الله سبحانه وتعالى :

خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول ، وذهابها بالفعل جملة ، فقال تعالى : ههنا ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ : أى بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال مالك : عن زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء : أى لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم ، قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..... الآية** ﴾[2] . قوله تعالى : ﴿ **لذة للشاربين** ﴾ : أى طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ : يعنى لا تؤثر فيهم غولا وهو وجع البطن قاله ابن عباس : رضى الله عنهما ــ وقيل المراد بالغول هنا : صداع الرأس قال قتادة : ووجع البطن ، وقال السدى ، لا تغتال عقولهم : قال ابن كثير : والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم : قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول فذكر الله تعالى : خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ١٧ — ١٩

(٢) سورة محمد الآية : ١٥

قوله تعالى : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين** ﴾ : قاصرات الطرف : أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كما قال سبحانه : ﴿ **فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[١]. وقال تعالى ﴿ **حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[٢] : أى لم يطأهن أحد قبل أزواجهن أبكار عرب أتراب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **عين** ﴾ : أى حسان الأعين . فوصف سبحانه عيونهن بالحسن والعفه .

وقوله جل جلاله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ : وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ : يقول اللؤلؤ المكنون وهذا الوصف جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وقال السدى : البيض فى عشه .

قال ابو القاسم الطبرانى : بسنده عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، قالت : قلت : يارسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿ **حور عين** ﴾ قال : حور بيض عين ختام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسور .. قلت : أخبرنى عن قول الله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ : قال : صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى .. قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .. قلت : أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال : رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشرة وهو الغرقىء قلت : يارسول الله أخبرنى عن قوله : ﴿ **عربا أترابا** ﴾ قال : هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محببات أترابا على ميلاد واحد ، قلت : يارسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة .. قلت : يارسول الله وبم ذلك ؟ قال ( بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ــ عز وجل ــ ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا ، ونحن المقيمات ، فلا نظعن أبدا ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا ) قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : ( يأم سلمة إنها تخير ، فتختار أحسنهم خلقا فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه ، يأم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة )[٣].

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ – ٥٧ – ٥٨

(٢) سورة الرحمن الآية : ٧٢ – ٧٣ – ٧٤

(٣) سورة الحديث فى مجمع الزوائد فى تفسير سورة الواقعة ح ٧ ص ١١٩

وقال الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى .

وفى حديث الصور الطويل المشهور أن رسول الله ـ ﷺ ـ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله تعالى : قد شفعتك وأذنت لهم فى دخولها وقال رسول الله ـ ﷺ ـ ( والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشىء الله ) وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى : منهما فى غرفة من ياقوته على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس واستبرق ، وإنه ليضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وانه لينظر الى مخ ساقها ، كما ينظر أحدكم الى السلك فى قصبة الياقوت كبده لها مرآه يعنى وكبدها له مرآة ، فبينما هو عندها لا يملها ولا تملة ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره ، ولا يشتكى قبلها إلا أنه لا منى ولا منية : فبينما هو كذلك إذ نودى إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أن لك أزواجا غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة ، قالت : والله ما فى الجنة شيء أحسن منك ، وما فى الجنة شيء أحب إلى منك ) .

وقال الطبرانى : بسنده عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارا )[١] .

وقال أبو داود الطيالس : بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، قيل : يارسول الله أو يطيق ذلك ، قال : يعطى قوة مائة .. ورواه الترمذى وقال صحيح غريب )[٢] .

وقال الحافظ أبو يعلى : بسنده عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( إن الحور العين ليغنين فى الجنة يقلن نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام )[٣] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة : لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ـ على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء ، متفق عليه )[٤] .

---

(١) الحديث فى المعجم الصغير للطبرانى ح ١ ص ٩١ وقال : لم يروه عن عاصم إلا شريك تفرد بة يعلى بن عبد الرحمن وانظر فى ابن كثير تفسير سورة الواقعة وقال المحقق : اخرجه الطبرانى من حديث ابى سعيد الخدرى مرفوعا .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ( فى كتاب صفة الجنة ) باب : ما جاء فى صفة جماع اهل الجنة ج ٤ ص ٦٧٧ رقم ٢٥٣٦ قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

انظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الواقعة اية : رقم ٣٧ وقال المحقق : أخرجه الحافظ أبو يعلى .

(٣) وأخرجه الهيثمى : فى مجمع الزوائد فى كتاب أهل الجنة ) باب : ما جاء فى نساء اهل الجنة من الحور العين وغيرهن ح ١٠ ص ٤١٩ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله وثقوا .

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأصلها ) باب : أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم رقم ١٨٠٥ وقال المحقق : أخرجه البخارى فى ( كتاب الأنبياء باب : خلق آدم .

وفى رواية للبخارى ومسلم : آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا [١]

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا ) متفق عليه [٢] .

وعن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال : شهدت من النبى ـ ﷺ ـ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه ( فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ) ، ثم قرأ ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [٣] رواه البخارى .

قوله تعالى : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : أى عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا : وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم فى تناولهم ومعاشرتهم فى مجالسهم ، وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **قال قائل منهم إنى كان لى قرين** ﴾ قال : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الايمان فى الدنيا . ﴿ **يقول أئنك لمن المصدقين** ﴾ : يقول المشرك للمؤمن أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء : يعنى يقول : ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ، ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ قال مجاهد والسدى : لمحاسبون ، قال تعالى : ﴿ **قال هل أنتم مطلعون** ﴾ أى مشرفون ، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ، ﴿ **فاطلع فرآه فى سوء الجحيم** ﴾ : فاطلع فرآه فى وسط الجحيم .

قال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى

---

(١) جزء من حديث أورد فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٦ ص ٣١٨ رقم ٣٢٤٥

(٢) انظره فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب : صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الاهلين رقم ١٨٠٦ قال المحقق : اخرجه البخارى فى ( كتاب بدء الخلق باب : ما جاء فى صفة اهل الجنة وانها مخلوقة .

(٣) سورة السجدة الآيتان : ١٦ - ١٧

جماجم القوم تغلى ، وذكر لنا كعب الأحبار قال فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر الى عدوه فى النار اطلع فيها ، فازداد شكرا ، ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين** ﴾ : يقول المؤمن مخاطبا للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك ﴿ **ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** ﴾ : أى ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت محضر معك فى الغذاب ، ولكنه تفضل على ورحمنى ، فهدانى للإيمان ، وأرشدنى الى توحيده ﴿ **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغتبطا نفسه بما أعطاه الله تعالى : من الخلد فى الجنة ، والاقامة فى ادار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ : وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ : قيل لا ، قالوا ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ . وقوله جل جلاله : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ .

قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال أبن جرير : هو من كلام الله ـــ تعالى ـــ ةمعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ليصيروا إليه فى الآخرة .

قال العلامة ابن كثير : وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل تدخل فى ضبمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بسنده عن فرات بن ثعلبة النهر انى فى قوله : ﴿ **إنى كان لى قرين** ﴾ قال : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذى له حرفةٌ للآخر : ليس عندك حرفة ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك فقاسمه وفارقه ، ثم إن الرجل اشترى دارا بألف دينار كانت لملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ؟ اتبعتها ـ أى : اشتريتها ـ بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإنى أسألك دارا من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ما شاء الله ـ تعالى ـ أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاما ، فلما أتاه قال : إنى تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار وإنى أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم أنه مكث ما شاء الله ـ تعالى ـ أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفى دينار ثم دعاه فأراه فقال : إنى ابتعت هذين البستانين بألفى دينار ، فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يارب إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار ، وأنا أسألك بستانين فى الجنة ، فتصدق بألفى دينار .

وفى الرواية الأخرى عند أبى حاتم ... قال : فبقى المؤمن ليس عنده شيء ، قال : فلبس قميصا من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مرا . فجعله على رقبته يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته ، قال : فجاءه رجل فقال : يا عبد الله ، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة شهرا بشهر ، تقوم على ذواب لى تعلفها وتكنس سرقينها ؟

قال : أفعل ، قال : فواجره نفسه مشاهرة شهرا بشهر يقوم على دوابه ، وقال : وكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له : سرقت شعير هذه البارحة ، قال : فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال : لآتين شريكى الكافر فلأعملن فى أرضه فليطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا ، قال : فانطلق يريده فانتهى إلى بابه وهو ممس ، فإذا قصر مشيد فى السماء ، وإذا حوله البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لى على صاحب هذا القصر ، فإنكم إذا فعلتم سرة ذلك ، فقالوا له : انطلق ـ إن كنت صادقا ـ فنم فى ناحية فإذا أصبحت فتعرض له ، قال : فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام ، فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه ، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت ؟ قال : بلى . قال : وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرنى ما صنعت فى مالك ؟ قال لا تسألنى عنه ، قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل فى أرضك هذه فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا ، قال لا ولكن أصنع بك ما هو خيرا من هذا ، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك ، قال : اقرضته ، قال : من ؟ قال : الملىء الوفى ، قال : من ؟ قال : الله ربى ، قال : وهو مصافحه فانتزع يده من يده ثم قال : ﴿ **أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ .

قال السدى : محاسبون . قال : فانطلق الكافر وتركه ، قال : فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه ، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان ، قال : فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله ـــ تعالى ـــ المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك .

فيقول : سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك ، فيقول : ( سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك . فيقول : يا سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول : ﴿ **إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ قال : فالجنة عالية ، والنار هاوية قال فيريه الله ـــ تعالى ـــ شريكه فى وسط الجحيم من بين أهل النار ، فإذا رآه المؤمن عرفه فيقول : ﴿ **تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ بمثل ما قد من عليه ، قال : فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت ، لذا قال : ﴿ **أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ .

اعلم أن من أسمى مراتب الايمان الحب فى الله ، والبغض فى الله ، فمن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الايمان ، واعلم بأن كل صداقة تقوم على معصية الله فى الدنيا عداوة يوم القيامه ، قال — تعالى — ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[1] .

الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار .

قال — تعالى — ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾[2] .

وقال — تعالى — ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[4]

روى فى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ ( مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك أما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما تجد ريحا خبيثة )[5]

هذا حديث متفق عليه ، وقوله أن يحذيك .. أى : يعطيك .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمزى عن أبى سعيد ـ أنه سمع النبى ﷺ ــ يقول : ( لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى )[6] حديث حسن .

قال أبو سلمان الخطابى فى تعليقه على هذا الحديث : هذا إنما جاء فى طعام الدعوة دون طعام الحاجة ، وإنما حذر من صحبة من ليس تقى ، وزجر عن مخالطته ، ومؤاكلته ، لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة فى القلوب .

---

(١) الآية : ٦٧ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات : ٥٥ — ٨٥ من سورة المائدة .

(٣) الآيات : ٢٧ — ٢٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزخرف .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيهما اتفق عليه الشيخان ( كتاب البحر والصلة والآداب ) باب : استحباب مجالسة الصالحين ، ومجانبة قرناء السوء ص ٧١١ رقم ١٦٨٧ وأورده أبو داود بمعناه ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ جزءا من حديث .

(٦) سند أبى داود ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل )[١] .

**وقال عمر بن الخطاب : عليكم بإخوان الصدق ، فإنهم زين فى الرخاء ، وعدة عند البلاء . وقال** أيضا : ( لا تعترض فيما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحتفظ من خليلك إلا الأمين ، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء ، ولا تصحب الفاجر ، فليعلمك من فجوره ، ولا تفشى إليه سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل ) . رواه ابو نعيم فى الحلية .

وقال رضى الله عنه : ( جالسوا التوابين ، فإنهم أرق شيء أفئدة ) ( أبو نعيم ) ، وقال مالك بن دينـار : ( إنك ان تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار ) الخبيص : خلواء تعمل من التمر والسمن ، وقال علقمة بن قيس النخعي ـــ رضى الله عنه : ( اصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة عانك ، وإن قلت سدد مقالك ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن بدت منك ثلمة ـ عيب ـــ سدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن نزلت بك مهمة ـــ حزن ـــ واساك وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

آداب الأخوة فى الله والحب والبعض فيه سبحانه وتعالى

للشيخ أبى بكر الرازى والمسلم بحكم ايمانه بالله ـــ تعالى ـــ لا يحب إذا أحب إلا فى الله ، ولا يبغض إذا أبغض إلا فى الله ، لأنه لا يحب إلا ما يحب الله ورسوله يحب ، وببغضهما يبغض ، ودليلة فى هذا قول الرسول ﷺ : ( من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الايمان )[٢] ( ابو داود ) وبناء على هذا فجميع عباد الله الصالحين يحبهم المسلم ويواليهم ، وجميع عباد الله الفاسقين عن أمر الله ورسوله يبغضهم ويعاديهم ، بيد أن هذا غير مانع للمسلم أن يتخذ إخوانا أصدقاء فى الله ـــ تعالى ـــ يخصهم بمزيد محبة ووداد ، إذا رغب الرسول ﷺ ـــ فى اتخاذ مثل هؤلاء الاخوان والأصدقاء بقوله : ( المؤمن الف مألوف ولا خير من لا يألف ولا يؤلف )[٣] ( أحمد والحاكم وصحيحه ) .

وقوله : ( ان حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء ) فقالوا : يا رسول الله : صفهم لنا ، فقال : المتحابون فى الله ،

---

(١) انظر سنن أبى داوٌد ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ إلا أنه قال : « الرجل على دين خليله ..... الحديث » .

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه ( فى كتاب السنة ) باب الدليل على زيادة الايمان ونقصانه ج ٥ ص ٦٠ رقم ٤٦٨١

(٣) انظر مسند الامام أحمد ( مسند أبى هريرة ) ج ٢ ص ٤٠٠

وانظر المستدرك للحاكم ( كتاب الايمان ) باب المؤمن يألف ويؤلف ج ١ ص ٢٣

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولا أعلم له علة ، ولم يخرجاه .. وتعقبه الذهبى فقال : قلت : علة انقطاعه ، فإن أبا حازم هذا هو المدينى ، ولا الأشجعى ، ولم يلق أبو صخر الأشجعى ولا المدينى لقى أبا هريرة .

والمتجالسون فى الله ، والمتزاورون فى الله ( النسائى صحيح )[١] .

وقوله — ﷺ — ( ان الله — تعالى — يقول : حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى ) ( أحمد والحاكم وصحيحه )[٢] .

وقوله ﷺ : ( سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال : إنى أخاف الله تعالى ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ) ( البخارى )[٣] .

وقوله ﷺ : ( ان رجلا زار أخا له فى الله فأرصد الله له ملكا ، فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : فيم ؟ قال أحبه فى الله ، قال : فإن الله أرسلنى إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه ، وقد أوجب لك الجنة )[٤] .

وشروط هذه الأخوة أن تكون لله وفى الله بحيث تخلو من شوائب الدنيا وعلائقها المادية ، بالكلية ، يكون الباعث عليها الإيمان بالله لا غير .

وأما آدابها فهى أن يكون المتخذ أخا :

١ — عاقلا : لأنه لا خير فى أخوة الأحمق وصحبته ، إذ قد يضر الأحمق الجاهل من حيث يريد النفع .

٢ — حسن الخلق : إذ سىء الخلق وإن كان عاقلا فقد تغلبه الشهوة أو يتحكم فيه ، غضب فيسىء إلى صاحبه .

٣ — تقيا : لأن الفاسق خارج عن طاعة ربه لا يؤمن جانبه ، إذ قد يرتكب ضد صاحبه جريمة لا يبالى معها بأخوة أو غيرها ، لأن من لا يخاف الله — تعالى — لا يخاف غيره بحال من الأحوال .

٤ — ملازما للكتاب والسنة بعيدا عن الخرافة والبدعة : إذ المبتدع قد ينال صديقه من شؤم بدعته ، ولأن المبتدع وصاحب الهوى هجرتهما متعينة ، ومقاطعتهما لازمة ، فكيف تمكن خلتهما وصداقتهما ؟

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ٦ / ١٧٤ كتاب آداب الأخوة والصحبة ) باب فضيلة الأخوة والصحبة . وقال الزبيدى : قال العراقى : رواه النسائى فى سننه الكبرى ورجاله ثقات .

(٢) مسند أحمد ( حديث عمر بن عبسة — رضى الله عنه ) ج ٤ ص ٣٨٦ وانظر المستدرك للحاكم ( كتاب البر والصلة ) باب : لله عباد يغبطهم النبيون ..... الخ ج ٤ ص ١٧٠ من رواية عبادة بن الصامت .

(٣) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم : انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( كتاب الزكاة ) باب : فضل اخفاء الصدقة ج ١ ص ٢١٦ رقم ٦١٠ من رواية أبى هريرة ورواه الترمذى فى سننه فى ( كتاب الزهد ) باب : ما جاء فى الحب فى الله ج ٤ ص ٥٩٨ رقم ٢٣٩١

(٤) انظره فى مسلم فى ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب الحب فى الله ج ٤ ص ١٩٨٨ رقم ٣٨ / ٢٥٦٧ وأحمد ٢ ٤٦٢ والخطيب ( ١ / ٧٦ ، ١٢ / ٣٧٦ ص ١٤ / ٣١ والاتحاف ٦ / ١٧٦ .

وقد أوجز هذه الآداب فى اختيار الأصحاب أحد الصالحين فقال يوصى ابنه : يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فأصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤونة عانك ، أصحب من إذا مددن يدك بخير مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها ، أصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . اصحب من إذا قلت صدق قولك ، وان حاولتما أمرا أمرك ، وان تنازعتما شيئا أثرك .

**حقوق الأخوة فى الله**

ومن حقوق هذه الأخوة ما يلى :

١ – المواساه بالمال : فيواسى كل منهما أخاه بماله إن احتاج إليه ، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه – إذ أتاه رجل فقال : إنى أريد أؤاخيك فى الله ، قال : أتدرى ما حق الاخاء ؟ قال : عرفنى ، قال : لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى : قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذهب عنى .

٢ – أن يكون كل منهما عونا لصاحبه : يقضى حاجته ويقدمها على نفسه ، يتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه ، ويؤثر على نفسه ، وأهله وأولاده ، يسأل عنه بعد كل ثلاث ، فإن كان مريضا عادة ، وان كان مشغولا أعانه ، وإن كان نائيا ذكره ، يرحب به إذا دنا ، ويوسع له إذا جلس ، ويصغى إليه إذا حدث .

٣ – أن يكف عنه لسانه إلا بخير – فلا يذكر له عيبا فى غيبته أو خبايا نفسه ، وإذا رآه فى طريقه لحاجة من حاجات نفسه فلا يفاتحه ذكرها ، ولا يحاول التعرف إلى مصدرها أو موردها يتلطف فى أمره بالمعروف ، أو نهيه عن المنكر ، لا يماريه فى الكلام ولا يجادله بحق أو بباطل ، لا يعاتبه فى شىء ولا يعقب عليه آخر .

٤ – أن يعطيه من لسانه ما يحبه منه ، فيدعوه بأحب أسمائه إليه ، ويذكره بالخير فى الغيبة والحضور ، يبلغه ثناء الناس عليه ، مظهرا اغتباطه بذلك ، وفرحه به ، لا يسترسل فى نصحه فيقلقه ، ولا ينصحه أمام الناس فيفضحه ، كما قال الامام الشافعى – رحمه الله – من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه .

٥ – يعفو عن زلاته ، ويتغاضى عن هفواته ، يستر عيوبه ويحسن به ظنونه ، وإن ارتكب معصية سرا أو علانية فلا يقطع مودته ، ولا يهمل أخوته ، بل ينتظر توبته أو أوبته ، فإن أصر فله صرمه وقطعه ، أو الإبقاء على أخوته مع إسداء النصيحة ، ومواصلة المواعظ ، ورجاء أن يتوب ، فيتوب الله عليه . قال أبو الدرداء – رضى الله عنه – إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يموج ويستقيم أخرى .

٦ – أن يفى له فى الأخوة فيثبت عليها ويدرع عهدها ، لأن قطعها محبط لأجرها ، وإن مات نقل المودة

إلى أولاده ، من والاه من أصدقائه ، محافظة على الأخوة ووفاء لصاحبها . فقد أكرم رسول الله ﷺ — عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ( إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين )[١] ( الحاكم وصحيحه ) .

ومن الوفاء أن لا يصادق عدد صديقه ، إذا قال الشافعى — رحمة الله — إذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشترك فى عداوتك .

٧ – أن لا يكلفه ما يشق عليه ، وأن لا يحمله مالا يرتاح معه ، فلا يحاول أن يستمد منه شيئا من جاه ، أو مال ، أو يلزمه بالقيام بأعمال : إذ أصل الأخوة كانت فى الله ، فلا ينبغى أن تحول إلى غيره من جلب منافع الدنيا ، أو دفع المضار ، وكما لا يكلفه لا يجعله يتكلف له ، إذ كلاهما فجعل بالأخوة مؤثر فيها ، منقص من أجرها المقصود ، فعليه أن يطوى معه بساط التزمت والتكلف والتحفظ ، إذ بهذه تحصل الوحشة المنافية للألفة .

وآية سقوط الكلفة الموجب للأنس ، والمذهبة للوحشة أن يفعل الأخ فى بيت أخيه أربع خصال : أن يأكل فى بيته ، ويدخل الخلاء عنده، ويصلى وينام معه ، فإذا فعل هذه فقد تم الاخاء ، وارتفعت الحشمة الموجبة للوحشة ، ووجد الأنس وتأكد الانبساط .

٨ – أن يدعو له ولأولاده ، ومن يتعلق به بخير ما يدعو به لنفسه وأولاده ومن يتعلق به ، أذ لا فرق بين أحدهما والآخر بحكم الأخوة التى جمعت بينهما ، فيدعو له حيا وميتا وحاضرا وغائبا . قال — عليه الصلاة والسلام : ( إذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب قال الملك : ولك فعل ذلك )[١] ( رواه مسلم ) .

وقال أحد الصالحين : أين فعل الأخ الصالح ؟ أن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ، ويتمتعون بما خلف ، والأخ الصالح ينفرد بالحزن ، ومهتما بما قدم أخوه عليه ، وما صار إليه ، يدعو له فى ظلمة الليل ، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى .

قوله تعالى : **﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها**

---

(١) ورد فى الحاكم حديث فى اكرام فى ( كتاب البر والصلة ) باب : صلة النبى الى صدائق خديجة ج ٤ ص ١٧٥ أحدهما مد رواية أنس بن مالك ، ولفظه : أكان النبى — ﷺ — إذا أتى بشىء يقول : أذهبوا به إلى فلانه فإنها كانت صديقه خديجة . اذهبوا به إلى فلانه فإنها كانت تحب خديجة ) .

والثانى من رواية عائشة ، ولفظة : ( أن النبى — ﷺ — كان يذبح الشاة فيتتبع بها صدائق خديجة بنت خويلد — رضى الله عنها .

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الذكر والدعاء .. إلخ ) باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ج ١٧ ص ٤٩ ، ٥٠ فقد أورده بروايتين عن أم الدرداء عن أبى الدرداء : الأولى من طريق طلحة بن عبد الله بن كريز ، ولفظهما : ( ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك بمثل ) وله رواية أخرى بلفظ : ( من دعاء لأخيه بظهر الغيب ... الحديص ) .

والثانية عن طريق صفوان بن عبد الله بن صفوان ، ولفظهما : ( دعوة المرء المسلم لأخيه الغيب مستجابه ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل ) .

**لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ .**

قوله تعالى : ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم** ﴾ .

يقول الله تعالى : أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ( أم شجرة الزقوم ) أى التى فى جهنم يأكل منها أهل النار ؟!! .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ قال مجاهد : قال أبو جهل ، لعنه الله : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه ، فأنزل الله — سبحانه — هذه الآية : ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ كقوله — تعالى : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا** ﴾[1] والمراد بالشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم ، فحينما أخبرهم الرسول ﷺ — أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل — عليه لعنة الله : هاتوا لنا تمرا وزبدا ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا. فلا نعلم الزقوم إلا هذا . حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن وغير واحد .

وقوله تعالى : ﴿ **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم** ﴾ أى : أصل منبتها فى قرار النار ( طلعها كأنه رؤوس الشياطين ) وكأنه رؤوس الشياطين : تبشيع لها وتكريه لذكرها . وإنما شبهها برؤوس الشياطين —وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين — لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر . وقوله تعالى : ﴿ **فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون** ﴾ ذكر — تعالى — أنهم يأكلون من هذه الشجرة منها التى لا أبشع منها ولا أقبح منها منظرها مع ماهب عليه من سوء الطعم والريح والطبع فانهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا أياها وما هو فى معناها ، كما فى قوله — تعالى — ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع** ﴾[2] .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : ( اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ) ؟ .

ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح[3] .

---

(١) من الآية : ٦٠ من سورة الاسراء .

(٢) الآيتان : ٦ — ٧ من سورة الغاشية .

(٣) انظر سنن الترمذى ( كتاب صفة جهنم ) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ رقم ٢٥٨٥ إلا أن لفظه : عن ابن عباس أن رسول الله — ﷺ — قرأ هذه الآية : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ قال رسول الله ﷺ : ( لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟!!! ) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله ـ تعالى : ﴿ **ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾ .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يعنى شرب الحَميم على الزقوم .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أمامه الباهلى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان يقول : ( يقرب ـ يعنى إلى أهل النار ـ ماء فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعائه حتى تخرج من دبره )[1] وقال بسنده .

عن سعيد بن جبير ، قال : ( إذا جاع أهل النار استعانوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن مارا مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يطيب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، وهو الذى قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما فى بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم ، وتتساقط جلودهم ، ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله ، يدعون بالثبور .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ أى : ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج ، وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة فى هذا ، وتارة فى هذا ، كما قال ـ سبحانه : ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾[2] قال ابن كفير : هكذا تلا قتادة هذه الآية ، وهو تفسير حسن هذه الآيات كقوله ـ تعالى ـ فى سورة الدخان : ﴿ **إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾[3] .

وكقوله ـ تعالى ـ فى سورة الواقعة : ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **إنهم ألفوا آباءهم ضالين** ﴾ أى : إنما جازيتهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال ـ تعالى : ﴿ **فهم على آثارهم يهرعون** ﴾ . أى : يسرعون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولوا كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[5] وكقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**

(١) انظر سنن الترمذى ( كتاب صفة جهنم ) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣ قال الترمذى : هذا حديث غريب

(٢) الآية : ٤٤ من سورة الرحمن

(٣) الآيات : ٤٣ ـ ٥٠ من سورة الدخان .

(٤) الآيات : ٥١ ـ ٥٦ من سورة الواقعة .

(٥) الآية : ٢١ من سورة لقمان .

**قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾**[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾**[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾** .

يخبر ـــ تعالى ـــ عن الأمم الماضية أن أكثرهم ضالون يجعلون مع الله آلهة أخرى ويتبعون فى ذلك آباءهم ، ولقد أرسل الله فيهم الرسل منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ، ممن كفر به وعبد غيره ، ولكنهم تمادوا ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، وكذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين ﴾** .

## قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

## « تفسير المفردات »

( نادانا ) المراد من النداء : الاستغاثة ( الكرب ) : الغم الشديد .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر ـــ سبحانه ـــ على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السالفة شرع يفصل ذلك ، فذكر نوحا ـــ عليه السلام ـــ وما لقيه من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل من طول مدة لبثه فيهم ، فلما اشتدوا واشتطوا فى العناد دعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه ، وأغرق قومه المكذبين ، ونجاه وأهله أجمعين .

---

(١) الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٣ – ٢٥ من سورة الزخرف .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ولقد نادانا نوح** ﴾ أى دعانا مستغيثا بنا ، لما أشتد عليه أذى قومه ، قال تعالى : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾(١) ﴿ **فلنعم المجيبون** ﴾ أى : نحن ، وهنا تتجلى عظمة الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ فى قوله : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها أية فهل من مدكر** ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ **ونجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾ والمقصود بأهله هم المؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿ **فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون** ﴾(٣) فى هذا المعنى أقوال : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ يقول : لم تبق إلا ذرية نوح ــ عليه السلام ــ وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ قال : الناس كلهم ذرية نوح ــ عليه السلام .

وقد روى الترمذى وابن حرير وابن أبى حاتم عن سمرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : ( سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافت أبو الروم )(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ قال ابن عباس : المقصود أنه يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم . وقال قتادة والسدى : أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين .

وأما قوله تعالى : ﴿ **سلام على نوح فى العالمين** ﴾ فإن هذه الجملة جاءت تفسيرا لما قبلها مما قصد به الثناء والحسن ، ولقد دعا ابراهيم ربه فقال : ( **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** )(٥) ولقد استجاب الله له فقال ــ سبحانه : ﴿ **سلام على ابراهيم** ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ كقوله ــ جل شأنه : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾(٧) وكقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾(٨) وكقوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾(٩) ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ المصدقين الموقنين الذين ملأ نور الايمان جنبات قلوبهم ، فالايمان ما وقر فى القلب وصدقة العمل ، كما أنه تصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، ونطق باللسان ، وهو

---

(١) سورة القمر الآية : ١٠

(٢) الآيات : ١١ – ١٥ من سورة القمر

(٣) الآية : ١١٩ من سورة الشعراء .

(٤) انظر سنن الترمذى ( كتاب تفسير القرآن ) باب : ومن سورة الصافات ج ٥ ص ٣٦٥ رقم ٣٢٣١

(٥) الآية : ٨٤ من سورة الشعراء .

(٦) الآية : ١٠٩ من سورة الصافات .

(٧) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٨) من الآية : ٣٠ من سورة النحل . ومن الآية ١٠ من سورة الزخرف .

(٩) الآية : ٦٠ من سورة الرحمن .

شكر فى الرخاء ، وصبر فى البلاء ، ورضا بالقضاء .

واضافة العباد إلى ضمير العظمة فى قوله تعالى : ﴿ **من عبادنا** ﴾ إضافة تشريف وتكريم .

ومما زادنى شرفا وقدرا — وكدت بأخمص أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى — وأن صيرت أحمد لى نبيا

إن العبودية لله عزة ، وأما العبودية لغيره فذل وهوان ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا توكلت فتوكل على الله ، واعلم أن ما كان لفكيك أن تمضغاه فلا بد أن تمضغاه ، فامضغه بعزة .

قوله تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ أى : أهلكناهم فلم تبق لهم عين تطرف ، ولا ذكر ، ولا عين ، ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

قال تعالى : ﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما** ﴾[١] .

**أضـواء كاشفـة**

( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون )[٢] .

لما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والعبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تتمه الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدى الغرض منه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ : ابن كثير فى كتابه ( قصص الأنبياء ) فلنستمع فى خشوع وإنصات وتدبر إلى تلك الدروس الغاليه ، عسى الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا .

قال ــ رحمه الله تعالى ــ عن نوح عليه السلام :

( هو نوح بن لاحك بن توشلخ بن خنوخ ــ وهو ادريس ــ بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر ــ عليه السلام وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حيان فى صحيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو تعربة ، حدثنا معادية ابن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعت أبا سلام ، سمعت أبا أمامة : أن رجلا قال : يا رسول الله ء أبنى كان آدم ؟ قال : ( نعم . قال فكم

(١) الآية : ٣٧ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ١١١ من سورة يوسف .

كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون ) .

قلت : وهذا وعلى شرط مسلم ولم يخرجه .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام .

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة ـ كما هو المتبادر عند كثير من الناس ـ فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالاسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الاسلام ، لكن حديث أبى أمامه يدل على الحصر فى عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الاسلام .

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب : أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾[1] وقوله : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وقرونا بين ذلك كثيرا** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾[4] وكقوله ـــ عليه الصلاة والسلام : ( خير القرون قرنى .... )[5] الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين . والله أعلم .

وبالجملة فنوح ـ عليه السلام ـ إنما بعثه الله ـ تعالى ـ لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس فى الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وكان قومه يقال لهم بنوراسب فكما ذكره ابن حبير وغيره .

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث ، فقيل : كان ابن خمسين سنة ، وقيل : ابن ثلثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائه وثمانين سنة : حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل فيمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، فى غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت ، وأنزل فيه سورة كاملة ، فقال فى سورة الأعراف :

---

(١) من الآية : ١٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآية : ٣١ من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية : ٣٨ من سورة الفرقان .

(٤) من الآية : ٩٨ من سورة مريم .

(٥) انظر صحيح مسلم ( كتاب فضائل الصحابة ) باب فضل الصحابة ثم يلونهم ثم الذين يلونهم ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ أرقام ٢١٠ / ٢٥٢٣ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ ، ٢١٢ / ٢٥٣٣ .

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بأياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾[1] .

وقال تعالى : فى سورة يونس :

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ، فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بأياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾[2] .

وقال تعالى : فى سورة هود :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال ياقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربى وءاتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين أمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ، قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدءا من فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع

---

(١) الآيات : ٥٩ - ٦٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة يونس .

الكافرين ، قال سئاوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إنى أعوذ بك أن أسئلك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾(١).

وقال الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾(٢).

وقال تعالى فى سورة ( المؤمنون ) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدو الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾(٣)

وقال تعالى فى سورة ( الشعراء ) :

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٤).

(١) الآيات : ٢٥ - ٤٩ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٧٦ - ٧٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان : ٢٣ - ٣٠ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٠٥ - ١٢٢ من سورة الشعراء .

وقال تعالى فى سورة ( العنكبوت ) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنه إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾(١) .

وقال تعالى فى سورة ( الصافات ) :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك تجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين ﴾(٢) .

وقال تعالى فى سورة ( القمر ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة ( نوح ) : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا . وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصونى واتبعو من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

(١) الآيتان : ١٤ – ١٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات : ٧٥ – ٨٢ من سورة الصافات .

(٣) الآيات : ٩ – ١٧ من سورة القمر .

ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾[١] .

وقد تكلمنا عن كل موضع من هذه فى التفسير ، ونذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار ، وقد جرى ذكره أيضا فى مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه ، وذم من خالفه .

فقال تعالى فى سورة ( النساء ) :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[٢] .

وقال تعالى فى سورة ( الأنعام ) :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾[٣] .

وتقدمت قصته فى الأعراف ، وقال فى سورة ( براءة ) :

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

وقال تعالى فى سورة ( ابراهيم ) :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾[٥] .

وقال تعالى فى سورة سبحان ( الاسراء ) :

---

(١) سورة نوح — عليه السلام — آية ٢٨

(٢) الآيات : ١٦٣ — ١٦٥ من سورة النساء

(٣) الآيات : ٨٣ — ٨٧ من سورة الأنعام .

(٤) الآية : ٧٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٩ من سورة ابراهيم

﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ﴾[١] وقال فيها أيضا : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾[٢]. وتقدمت قصته فى الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت ، وقال فى سورة الأحزاب : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[٣].

وقال فى سورة ( ص ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾[٤].

وقال فى سورة ( غافر ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم . ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾[٥].

وقال تعالى فى سورة ( الشورى ) :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[٦].

وقال ـ تعالى ـ فى سورة ق :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾[٧].

وقال سبحانه فى سورة ( الذاريات ) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٨].

وقال سبحانه فى سورة ( النجم ) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾[٩].

(١) الآية : ٣ من سورة الاسراء .
(٢) الآية : ١٧ من سورة الاسراء .
(٣) الآية : ٨ من سورة الأحزاب .
(٤) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة ص .
(٥) الآيتان : ٥ — ٦ من سورة غافر .
(٦) الآية : ١٣ من سورة الشورى .
(٧) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة ق .
(٨) الآية : ٤٦ من سورة الذاريات .
(٩) الآية : ٥ من سورة النجم .

وتقدمت قصته فى سورة ( اقتربت الساعة ) وقال تعالى فى سورة ( الحديد ) :

**﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾**(١) .

قال تعالى فى سورة ( التحريم ) :

**﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار من الداخلين ﴾**(٢) .

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام رواه البخارى .

**بداية الشرك :**

وذكرنا أن المراد بالقرن : الجيل ، أو المدة على ما سلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور أقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : **﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾**(٣) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد ابن اسحاق .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين ذكرناهم فطوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم . وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم ، وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى المطهر قال : ذكروا عند أبى جعفر ـ هو الباقر ـ وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل فى أرض عُبد فيها غير الله . قال : ذكر ودا رجلا صالحا وكان محببا فى قومه ، فلما مات عكفوا حول قبرة فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى

(١) الآية : ٢٦ من سورة الحديد .

(٢) الآية : ١٠ من سورة التحريم .

(٣) الآية : ٢٣ من سورة نوح .

إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة انسان ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله . قال : ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه قالوا : نعم قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، قال : وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله ودا : الصنم الذى سموه ودا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس .

وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسده ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله — عز جل — ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها فى مواضعها من كتابنا التفسير ، ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله — ﷺ — أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة يقال لها ( مارية ) فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، قال : ( أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شر الخلق عند الله عز وجل )[١] .

**أول رسل الله**

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا — عليه السلام — يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، فكان أول رسول بعثه الملك إلى أهل الأرض ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فى حديث الشفاعة قال : فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ،واسكنك الجنه — ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربى قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك — عز وجل — فيقول : ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى فى قصة نوح[٢] .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها باب : النهى عن بناء المساجد على القبور ج ١ ص ١٠٦ رقم ٣٠٥ فقد أورده عن عائشة — رضى الله عنها .

(٢) انظر حديث أبى هريرة فى الشفاعة بطولة فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الايمان ) باب : أوتى أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ رقم ١٢٠ .

## نوح يدعو إلى التوحيد الخالص ويحذر من عبادة الأصنام

فلما بعث الله نوحا ـ عليه السلام ـ دعاهم إلى افراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن لا يعبدون معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا ، وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، كما أمر الله ـ تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته . كما قال ـ تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾[١] وقال فيه وفى إبراهيم : ﴿ **وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾[٢] أى : كل نبى من بعد نوح فمن ذريته ، وكذلك ابراهيم ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٥] .

ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[٦] وقال : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾[٧] وقال : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾[٨] وقال : ﴿ **يا قوم انى لكم نذير مبين .. أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾[٩] الآيات الكريمات .

### استعلاء الكفار

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا منهم وبالغوا فى أمرهم ( قال الملأ من قومه ، أى الساده الكبراء منهم ، أنا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ) أى : لست كما تزعمون من أنى ضال ، بل على الهدى المستقيم ،

(١) سورة الصافات الآية : ٧٧
(٢) سورة الحديد الآية : ٢٦
(٣) سورة النحل الآية : ٣٦
(٤) سورة الزخرف الآية : ٤٥
(٥) سورة الانبياء الآية : ٢٥
(٦) سورة الأعراف الآية : ٥٩
(٧) سورة هود الآية : ٢٦
(٨) سورة المؤمنون الآية : ٢٣
(٩) سورة نوح الآيات : ٢ ـ ١٤

رسول من رب العالمين ، أى : الذى يقول للشيء كن فيكون ( أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ) وهذا شأن الرسول أن يكون بلبغا أى : فصيحا ناصحا أعلم الناس بالله — عز وجل — وقالوا له فما قالوا : ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، تعجبوا أن يكون بشرا رسولا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم .

وقد قيل : إنهم كانوا من أقتاد الناس وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقل : وهم أتباع الرسل . وماذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق . وقولهم : ( بادى الرأى ) أى : بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية ، وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم — فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال الله — ﷺ — مادحا للصديق : ( ما دعوت أحدا إلى الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر ، فإنه لم يتلعثم )[1] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة — رضى الله عنهم — ولهذا قال رسول الله — ﷺ — لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ، وقال : يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ) رضى الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : ( وما نرى لكم علينا من فضل ) أى : لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ( بل نظنكم كاذبين ) .

نوح يتابع دعوته برفق ولين .

**﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾** .

وهذا تلطف فى الخطاب معهم ، وترفق بهم فى الدعوى إلى الحق ، كما قال تعالى : **﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾**[2] وقال تعالى : **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾**[3] . وهذا منه يقول لهم : **﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده ﴾** أى : النبوة والرسالة ( فعميت عليكم ) أى : فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ( أنلزمكموها ) أى : أنغصبكم بها ونجبركم عليها ( وأنتم لها كارهون ) أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم ، وأن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم .

وقوله : **﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ : كانوا طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعده أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم وقال : ( إنهم ملاقوا ربهم )**

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٠

(٢) الآية : ٤٤ من سورة طه .

(٣) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .

أى : فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال : ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ـ ﷺ ـ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ﴾ أى : بل أنا عبد ورسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .

( ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ) يعنى من أتباعه ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾ أى : لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كما قالوا فى المواضع الأخرى : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾[١] .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾[٢] . أى : ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكانوا كلما انقرض جيل وصلوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبين أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقى ، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان وأتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[٣]

العنـاد القاتـل :

ولهذا قالوا : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾أى: إنما يقدر على ذلك الله ـ عز وجل ـ فإنه الذى لا يعجزه شىء ، إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون : أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

**الشكوى إلى الله :**

( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ) تسلية له عما كان منهم إليه ( فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ) .

---

(١) الآيات : ١١١ — ١١٥ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ١٤ من سورة العنكبوت .

(٣) من الآية : ٢٧ من سورة نوح .

وهذه تعزية لنوح ــ عليه السلام ــ فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أى : لا يسوءك ما جرى ، فإن النصر قريب ، والنبأ عجيب . ( واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ) وذلك أن نوحا ــ عليه السلام ــ لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب ، فلبى الله دعوته أوجاب طلبه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[٢] وقال : ﴿ **قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون** ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[٦] فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم .

**صنع السفينة :**

ودعوة نبيهم عليهم ، فعند ذلك أمره الله تعالى ــ أن يصنع الفلك ، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ، ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه ، فإن لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولهذا قال : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ أى يستهزئون استبعادا لوقوع ما توعدهم به ﴿ **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ أى : نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرة . فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول .

**أمة النبى محمد تشهد يوم القيامة بأن نوحا بلغ الرسالة :**

كما قال البخارى : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ( يجىء نوح ، عليه السلام ــ وأمته فيقول الله ــ عز وجل ــ هل بلغت ؟

---

(١) الآيتان ٧٥ – ٧٦ من سورة الصافات .
(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ١١٧ – ١٨ من سورة الشعراء .
(٤) الآية ١٠ من سورة القمر .
(٥) الآية ٢٦ من سورة المؤمنون .
(٦) الآيات ٢٥ – ٢٧ من سورة نوح .

فيقول : نعم أى رب . فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبى . فيقول لنوح ﷺ : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ )[1] وهو قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[2] .

**والوسط** : العدل

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئا مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى حذر قومه المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع ، كما قال البخارى : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله عن يونس ، عن الزهرى قال سالم :

وقال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : ( إنى لأنذركموه ، وما من نبى إلا وقد أنذره قومه : لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه ، تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور )[3]

وهذا الحديث فى الصحيحين أيضا من حديث نيبان عن عبد الرحمن ، عن يحى ابن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه قال : ( ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبى قومه ؟ إنه أعور ، وأنه يجىء معه بمثال الجنة والنار ، والتى يقول عليها الجنة هى النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه ) لفظ البخارى[4] .

**وصف السفينة :**

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة أخرى ، وقيل : فى أربعين سنة . والله أعلم . وقيل : من الصنوبر . وهى نص التوراة . قال النووى : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا ، وعرضها خمسين ذراعا ، وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ستمائة ذراع . وقيل: كانت طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، وكانت ثلاث طبقات ، وكل واحدة عشرة أذرع ، وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . قال الله تعالى : ﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾[3] . أى : بأمرنا لك

---

(١) رواه البخارى فى صحيحة بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) باب : نوح ـ عليه السلام ـ ج ٦ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ رقم ١٤ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) : نوح ـ عليه السلام ـ ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٢

(٤) انظر فى صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٣ .

والحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الفتن وأشراط الساعة ) باب ذكر الرجال وصفته وما معه ص ٨٢٠ رقم ١٨٥٧ .

(٥) الآيتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة المؤمنون .

وبمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلى الصواب فى صنعتك ﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[١] . فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أى : أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم ، أى : إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد ، كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض ، أى : نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس : التنور : عين فى الهند . وعن الشعبى : بالكوفه ، وعن قتادة : بالجزيرة ، وقال على بن أبى طالب : المراد بالتنور : فلق الصبح وتنوير الفجر ، أى : إشراقه وصفاؤه ، أى : عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وهذا قول غريب . وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل** ﴾ . هذا أمر عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يأكل سبعة أزواج ومما لا يأكل زوجين ذكر وأنثى . وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى : فى كتابنا الحق : ﴿ **اثنين** ﴾ إذ جعلنا ذلك مفعولا به ، وأما إن جعلناه توكيدا لزوجين ، والمفعول به محذوف ، فلا ينافى . والله أعلم .

وذكر بعضهم — ويروى عن ابن عباس — أن أول ما دخل من الطيور ( الدرة ) وآخر ما دخل من الحيوانات ( الحمار ) ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار . وقال ان أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله — ﷺ — قال : ( لما حمل نوح من كل زوجين اثنين قال أصحابه : وكيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ) . هذا مرسل .

وقوله : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول** ﴾ أى : استجيبت فيه الدعوة النافذة ممن كفر . فكان منهم ابنه ( يام ) الذى غرق كما سيأتى بيانه ﴿ **ومن آمن** ﴾ أى : واحمل فيها من آمن بك من أمتك . قال الله تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا ، بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعد أخرى . قد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع

(٤) من الآية : ٢٧ من سورة المؤمنون .

بامرأة ( يام ) الذى انخذل وانعزل ، وسلك عن طريق النجاه ، فما عدل إذ عدل .

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هى نص فى أنه قد ركب معه ( من ) غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾[١] . وقيل : كانوا سبعة ، وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم ، وهم حام وسام ويافث ويام ، ويسميه أهل الكتاب ( كنعان ) وهو الذى قد غرق ، وعابر فقد ماتت قبل الطوفان وقيل : إنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليها القول لكفرها .

وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة ، والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ **لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾[٢] .

قال الله تعالى :

## « نجاة نوح والمؤمنين »

﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلنى منزلاً مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾[٣] . أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها ، وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾[٤] . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ـــ ﷺ ـــ حين هاجر : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾[٥] . وقد امتثل نوح ـــ عليه السلام ـــ هذه الوصية وقال : ﴿ **اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم** ﴾ أى على اسم الله ، وذو عقاب أليم مع كونه غفورا رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى : ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ وذلك أن الله تعالى ـــ أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، كما قال تعالى : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر** ﴾[٦] . والدسر : المسامير . ﴿ **تجرى بأعيننا** ﴾ أى : بحفظنا وكلاءتنا ، وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ **جزاء لمن كان**

---

(١) من الآية : ١١٨ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ٢٦ من سورة نوح

(٣) الآيتان : ٢٨ — ٢٩ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة الزخرف .

(٥) الآية : ٨٠ من سورة الاسراء .

(٦) الآيات : ١٠ — ١٣ من سورة القمر .

كفر ﴾ وقال ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط. وقال تعالى : ﴿ **إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية** ﴾[١] . أى السفينة ﴿ **لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعيه** ﴾[٢] قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعا ، وعم جميع الأرض طولها والعرض ، سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير .

قال الامام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة فى الأرض إلا ولها مالك وحائز . رواهما ابن أبى حاتم . ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ .

وهذا الابن هو ( يام ) أخو ( سام وحام ويافث ) وقيل : اسمه كنعان ، وكان كافرا عمل عملا غير صالح مخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك ، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب . ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ أى : لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله — عز وجل — أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع ، أى : تمسك عن المطر . ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أى : نقص عما كان ﴿ **وقضى الامر** ﴾ أى : وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم . ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ أى : نودى عليهم بلسان القدرة : بعدا لهم من الرحمة والمغفرة ، كما قال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿ **فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾[٧] . وقال تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾[٨] وقال : ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[٩] ﴿ **فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله**

---

(١) سورة الحاقة الآية : ١١ .
(٢) سورة الحاقة الآية : ١٢
(٣) سورة الأعراف الآية : ٦٤
(٤) سورة يونس الآية : ٧٣
(٥) سورة الأنبياء الآية : ٧٧
(٦) سورة الشعراء الآية : ١١٩ — ١٢٢
(٧) سورة العنكبوت الآية : ١٥
(٨) سورة الشعراء الآية : ٦٦
(٩) سورة القمر الآيات : ١٥ — ١٧

**أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾**[١] .

وقد استجاب الله ـــ تعالى وله الحمد والمنة ـــ دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الامامان أبو جعفر بن جرير ، وأبو محمد بن أبي حاتم فى تفسيرهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى ، عن قائد ـ مولى عبد الله بن أبي رافع ـ أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ ، قال : ( أفلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى ) قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ( مكث نوح ـــ عليه السلام ـــ فى قومه ألف سنة ( يعنى إلا خمسين عاما ) وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليها ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة فى البر ؟ كيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار فى الشكك خشيت أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى ، وهذا حديث غريب . وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار . والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا ، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ، وقال : ابن عناق ، كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ، ويقولون : كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ، ويقولون : كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى ، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة : ما هذه القصيعة التى لك ؟! ويستهزىء به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا ، إلى غير ذلك من الهذيات التى لولا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الايمان ، ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ؟! وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبى ولا الصبى ويترك هذا الدعى الجبار الفاخر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا ؟! .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : **﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾** . وقال : **﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾** . ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيح عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : ( إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق يتقص حتى الآن )[٢] .

---

(١) الآيات : ٢٥ – ٢٧ من سورة نوح .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب : يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ص ٧٩٧ ، ٧٩٨ رقم ١٨٠٧ . وانظر صحيح البخارى بشرح الشيخ / زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) آدم عليه السلام ح ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أى : لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك ، وهلم جرا إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزله وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ؟ وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء ، والله أعلم .

**مناشدة نوح ربه :**

ثم ذكر الله تعالى ــ مناشدة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ، ووجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم ، وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أى : الذين وعدت بنجاتهم ، أى : أما قلنا لك : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القوم منهم** ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القوم منهم بأن سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الايمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

**استقرار السفينة :**

ثم قال الله : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾. هذا أمر لنوح ــ عليه السلام ــ لما نضب الماء على وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى . وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿ **بسلام منا وبركات** ﴾ . **أى : اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد ، أى : من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح ــ عليه السلام ــ قال تعالى :** ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم ( سام وحام ويافث ) .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : ( سام أبو العرب ، وحام أبو الحبشى ويافث أبو الروم ) .

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه[1] .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله . قال : والمراد

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ( حديث سمرة بن جندب ) ح ٥ ص ٩ ، ص ١١ .

بالروم هنا الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ ثم روى من حديث إسماعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : ( ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام العرب ، وفارس والروم . وولد يافث الترك والسقالبة ، ويأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر ) قلت : وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، حدثنى أبى ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ : ( ولد نوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث بأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم . وولد لحام القبط والبربر والسودان ) ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد . قلت : وهذا الذى ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا روى عن وهب بن عقبة مثله . والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمرة لا يعتمد عليه[1] . وقد قيل : إن نوحا ـ عليه السلام ـ لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة ( كنعان ) الذى غرق ، و( عابر ) مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن حاما واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود ، هو كنعان بن حام جد السودان . وقيل : بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها ، سترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدا لاخوته .

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : ( قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بأذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه قد شاب ، فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ هكذا هلكت ؟ قال : لا ، ولكن مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الانس ، وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوصى الله ـ عز وجل ـ إلى نوح ـ عليه السلام ـ أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، ولما وقع

---

(١) انظر الزوائد ( كتاب العلم ) بابه : فى علم النسب ح ١ ص ١٩٣ وقال الهيثمى : رواه البزاز ، وفيه محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، عن أبيه ، فمن وثقه ابن حبان . وقال أبو حاتم : صدوق . وضعفه يحيى بن معين والبخارى . ويزيد بنسنان : وثقه أبو حاتم ، وقال : محله الصدق . وقال البخارى : مقارب الحديث . وضعفه يحيى وجماعة .

الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى الله ــ عز وجل ــ إلى نوح ــ عليه السلام ــ أن اضرب بين عينى الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى : كيف علم نوح ــ عليه السلام ــ أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت ، فطوقها الخضرة التي فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت . قال : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله فعاد ترابا ) وهذا أثر غريب جدا .

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه ، فبعث نوح ــ عليه السلام ــ الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخن رجليها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية ، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح ــ عليه السلام ــ يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره : ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودى شهرا ، وكان خروجهم من السفينة يوم عاشوراء من المحرم .

وقد روى ابن جرير خبرا مرفوعا يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : ( مر النبى ــ ﷺ ــ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا الصوم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذى نجا الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى ، فصام نوح وموسى ــ عليهما السلام ــ شكرا لله ــ عز وجل ــ فقال النبى ــ ﷺ ــ ( أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم ، وقال لأصحابه : من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه )[1] .

وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضا . والله أعلم .

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وطحنوا الحبوب يومئذ ، وأكتحلوا بالاثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وانما يذكر فيه آثار منقطعة عن بن إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ( مسند أبى هريرة ــ رضى الله عنه ) ح ٢ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقض ويدبر ، وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفى أول يوم من الشهر العاشر رؤيت رؤوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء ، فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء . فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض ، وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بايدى أهل الكتاب .

وقال ابن إسحاق : وفى الشهر الثانى من سنة اثنين فى ست وعشرين ليلة منه ( قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ) وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ولينموا وليكثروا فى الأرض ، فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله - عز وجل - وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله - عز وجل - وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق ، قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى : أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة . وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث - يعنون - آدم إلى زماننا هذا . وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق فى القدر المحتوم .

### ذكر شىء من أخبار نوح نفسه عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾[1] . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

---

(١) من الآية ٣ من سورة الاسراء .

وقال الامام أحمد : حدثنا أسامة ، حدثنا زكريا بن أبى زائدة ، عن سعيد بن أبى بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها )[١] . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أبى أسامة .

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة — يدى ولسانى والضمير المحجبا

## « ذكر صومه عليه السلام »

وقال ابن ماجه ( باب صيام نوح عليه السلام ) : حدثنا سهل بن أبى سهل ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : ( صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى )[٢] .

وهكذا رواه ابن ماجه عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه .

وقد قال الطبرانى : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحرانى ، حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة ، عن يزيد بن رباح أبى فراس انه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : ( صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ) وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر )[٣] .

## « ذكر حجه عليه السلام »

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبى عند زمعة ( هو ابن أبى صالح ) عن سلمة بم دهران ، عن مكرمة ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله — ﷺ — فلما أتى وادى عسفان قال : ( يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : هذا وادى عسفان . قال : لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطهم الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار ، يحجون البيت العتيق )[٤] . فيه غرابة .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ( مسند أنس بن مالك ) ح ٣ ص ١٠٠ — ١١٧ط .

(٢) انظره فى سنن ابن ماجه فى ( كتاب الصيام ) باب : ما جاء فى صيام نوح عليه السلام — جـ ١ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ .

فى الزوائد : فى إسناده ابن الهيعة ، وهو ضعيف .

(٣) روى مسند هذا الحديث ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الصيام ) باب ما جاء فى صيام نوح — عليه السلام — جـ ١ ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ إلى قوله : « إلا يوم الفطر ويوم الأضحى » .

ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق فى ( ما ذكر من إبراهيم — عليه السلام ) جـ ٢ ص ١٥٥ بتمامه .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند ابن عباس — رضى الله عنهما ) جـ ١ ص ٢٣٢ .

وانظر مجمع الزوائد جـ ٣ ص ٢٢٠ .

## « ذكر وصيته لولده عليه السلام »

٣١١ م ٨١ قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حما بن زيد ، عن الصقعب بن زهير ، عن زيد بن أسلم ، قال حماد : أظنه عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله — ﷺ — فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس — أو قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس — ورفع كل راع ابن راع ) قال : فأخذ رسول الله — ﷺ — بمجامع جبته ، وقال : ( ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ! ) ثم قال : ( إن نبى الله نوحا — عليه السلام — لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاص عليك وصية : آمرك باثنين وأنهاك عن اثنين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله . وبسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر ) قال : قلت — أو قيل : يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأجدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : ( لا ) قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : ( لأن قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : ( لا قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : ( لا قلت — أو قيل : يا رسول الله فما الكبر ؟ قال : ( سفه الحق وغمط الناس )[1] . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد ابن اسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله — ﷺ — قال : ( كان فى وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين ) فذكر نحوه .

وقد رواه أبو بكر البزار عن ابراهيم بن سعيد ، عن أبى معاوية الضرير ، عن محمد ابن إسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبى — ﷺ — بنحوه . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، كما رواه أحمد والطبرانى . والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا — عليه السلام — لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، وفى هذا القول نظر ، ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض ؟ فإن القرآن يقتضى أن نوحا مكث وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟

فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس — من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة — فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

---

(١) رواه احمد فى مسنده ( عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما ) ج ٢ ص ١٧٠ .

وأما قبره – عليه السلام – فروى ابن جرير والأزرقي عن الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلا ، ان قبر نوح – عليه السلام – بالمسجد الحرام .

وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلده بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر ، والله أعلم .

## قصة إبراهيم خليل الرحمن

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **من شيعته** ﴾ أى : ممن سار على دينه ومنهاجه . ﴿ **سليم** ﴾ أى : سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالحسد والغل وغيرهما من النيات السيئة ، ﴿ **وإفك** ﴾ : الكذب . ﴿ **سقيم** ﴾ أى : مريض ﴿ **فراغ** ﴾ أى : فذهب إلى أصنامهم ، وأصل الروغ والروغان : الميل . ﴿ **باليمين** ﴾ أى : بيده اليمنى . ﴿ **يزفون** ﴾ أى : يسرعون ، من زف النعام ، أى : أسرع . ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى معه فى أعماله وحاجات المعيشة . ﴿ **أسلما** ﴾ أى : استسلما وانقادا لأمر الله . ﴿ **تله** ﴾ أى : كبه على وجهه . ﴿ **صدقت الرؤيا** ﴾ أى : حققت ما طلب منك . ﴿ **البلاء المبين** ﴾ أى : الاختبار البين الذى يتميز به المخلص من غيره . ﴿ **بذبح** ﴾ أى : حيوان يذبح . ﴿ **باركنا عليه** ﴾ أى : أفضنا عليه البركات .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد ما ذكر ـ سبحانه ـ قصة نوح على سبيل إجمالى ، ذكر ـ سبحانه ـ قصة إبراهيم ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ أى : وإن ممن سار على نهج نوح وسار على طريقه فى اعتقاد التوحيد والبعث ، والتقلب فى دين الله ومصابرة الكاذبين ـ إبراهيم خليل الرحمن ـ صلوات الله عليه .

ولما أورد عليهم إبراهيم الحجج القوية التى لم يستطيعوا دفعها عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة ، وأوقدوا النيران وقذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأنجاه الله من النار ، وترك بلاد الكفر ، وهاجر من وطنه وطلب من الله الولد ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين** ﴾ أى : رب هب لى أولادا مطيعين يعينونى على الدعوة ، ويؤنسوننى فى الغربة ، ويكونون عوضا من قومى وعشيرتى الذين فارقتهم ، فاستجاب ربه دعاءه ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ وبعد أن قال ـ سبحانه : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن المراهقة بقوله : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن ، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه وإطاعته فى تنفيذ ما أمر به ، وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح ، فأوصى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم ، ثم بشره بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق ، وأنه سيكون من ذريتهما من

هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ يقول : من أصل دينه ، وقال مجاهد : على منهاجه وسنته . فالرسل كلهم رسالتهم .

واحدة ، كما قال ـ سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾[2] .

ولقد صبروا وأوذوا فى سبيل الله ، كما قال ـ سبحانه : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وروى ابن أبى حاتم مسنده عن عوف ، قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال الحسن : سليم من الشرك .

قال ابن القيم : ( اختلفت عبارات الناس فى بعض القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبرة ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله . فسلم فى محبة الله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكيل عليه ، والانابة إليه ، والذى له ، وإيثار مرضاه فى كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق . وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح إلا الله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة ، وتوكلا ، وإنابة أحب فى الله ، وإن أبغض أبغض فى الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عد رسوله ـ ﷺ ـ فيعتقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمان والاقتداء به وحده ـ دون كل أحد ـ فى الأموال والأعمال من أقوال القلب ،

---

(١) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٥١ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

وهى العقائد ، وأقوال اللسان ، وهى الخبر عما فى القلب ، وأعمال القلب . وهى الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ ﴿ **يا أيها الذين أمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾[1] أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر .

قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ .فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس ، أوخوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وانتقاء إليه ؟ .

ومحل هذا السؤال أنه : هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك التعبد ، أى : هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ؟ أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟ .

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الاخلاص ، وهوى يعارض الاتباع . فهذه حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين** ﴾ .

**قوله تعالى** : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون** ﴾ : أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إتفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين** ﴾ **قال قتادة : يعنى ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟!** .

**قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين )** .

قال ابن كثير : إنما قال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأجب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما

(١) سورة الحجرات الآية : ١

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ - ٨٩

هو حق فى نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ( فتولوا عنه مدبرين ) قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكرا فيما يليهم به فقال : ( إني سقيم ) أى : ضعيف ، فأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى هشام ، عن محمد ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله تعالى قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله فى سارة : هى اختى فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث ( إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب )[1] وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ فى كلمات إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الثلاث التى قال :( ما فيها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى ، ( فقال إنى سقيم ) وقال : ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقال للملك حين أراد امرأته : هى أختى ، قال سفيان فى قوله : ( إنى سقيم ) يعنى : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم ، وكذا قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ( فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم ) فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم : اخرج ، فقال إنى مطعون ، فتركوه مخافة الطاعون .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : رأى نجما طلع فقال : ( إنى سقيم ) كابد نبى الله عن دينه ( فقال إنى سقيم ) وقال آخرون : ( فقال إنى سقيم ) أى : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله وقال الحسن البصرى : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال : ( إنى سقيم ) وجعل ينظر فى السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها . ولهذا قال تعالى : ( فتولوا عنه مدبرين ) أى : ذهب إليها بعد ما خرجوا فى سرعة واختفاء . ( فقال ألا تأكلون ) وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبرك لهم فيه .

قال السدى : دخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى بيت الآلهة ، فإذا هم فى بهو عظيم وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما ووضعوه بين أيدى الآلهة وقالوا : إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة فى طعامنا أكلناه ، فلما نظر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ما بين أيديهم من الطعام قال : ( ألا تأكلون ـ مالكم لا تنطقون ) .

وقوله تعالى : ( فراغ عليهم ضربا باليمين ) قال الفراء : معناه : مال عليهم ضربا باليمين لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم فى سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى ( كتاب الشهادات ) باب : المعاريض فيها مفروض عن الكتاب ح ١٠ ص ١٩٩ عن عمران بن حصين ص ٤٢ بالأصل

تفسير ذلك . وقوله تعالى : ههنا : ( فأقبلوا إليه يزفون ) قال مجاهد وغير واحد : أى يسرعون . وهذه القصة ههنا مختصرة ، وفى سورة الأنبياء مبسوطة ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا فعرفوا أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى فعل ذلك ، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم فقال : ( أتعبدون ما تنحتون ) أى : أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ( والله خلقكم وما تعملون ) : يحتمل أن تكون( ما ) مصدرية : فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذى ، تقديره : والله خلقكم والذى تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر ، لما رواه البخارى فى ( كتاب أفعال العباد ) عن على بن المدينى ، عن مروان بن معاوية ، عن أبى مالك ، عن ربعى ابن حراش ، عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعا قال : ( إن الله تعالى ، يصنع كل صانع وصنعته )[١] وقرأ بعضهم ( والله خلقكم وما تعملون ) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذوه باليد والقهر فقالوا : ( ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ) وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ونجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى . قال يا بنى أنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ : هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن خليله إبراهيم ، فقد قال هذه الكلمة بعدما بذل الجهد واستضرغ الوسع فى دعوة قومه إلى الله ، وأقام لهم الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، فلم يجد على نارهم هدى ، ولم يسمع لصوته صدى ، ﴿ **قال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ فهو الهادى إلى طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[٢] ثم سأل الله تعالى ـ الولد الصالح قال : ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ ليكون فى ذلك عوض عن قومه الذين قلبوا له ظهر المجن ، ولبسوا له جلد النمر ، وناصبوه العداء ، والولد إن لم يكن صالحا لا خير فيه ، لذا قال زكريا لربه : ﴿ **واجعله رب رضيا** ﴾[٣] ونعوذ بالله

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٥ – ٢٧٩ من رواية البخارى ، والحاكم ، والبيهقى .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٦ من سورة مريم .

من ولد يكون علينا سيدا ، واستجاب الله دعوة الخليل قال : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل ــ عليه السلام ــ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهو أكبر من إسحاق وعمر إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ تسع وتسعون سنة ، وعندهم : أن الله ــ تبارك وتعالى ــ أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفى نسخة أخرى : بكره ، فأقحموا ههنا كذبا وبهتانا إسحاق ، ولا يجوز هذا ، لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا ﴿ **وحيدك** ﴾ بمعنى الذى ليس عندك غيره ، فإنه إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ **إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾[(٢)] أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله تعالى ــ قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ، لأنه مناسب لهذا الختام .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع ابيه ويمشى معه ، وكان إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ يتردد على هاجر وابنها فى مكة حيث أسكنهما هناك ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ قال عبيد بن عمر : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ وإنما أخبر إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل بذلك ليكون فيه عون وتحمل وصبر على قضاء الله ، وليظهر فضل إسماعيل فى الطاعة والسمع والتسليم والاذعان لأمر الله ، إذ قال لأبيه : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ ولو أن إسماعيل قال غير ذلك لما ظهر فضله فى هذا المقام الذى ترتعد فيه الأوصال وقد تنزل فيه أقدام ، لكنه علم أن قضاء الله لا يقابل بغير التسليم ، وليس له عدة سوى الصبر الجميل ، فامتثل وأذعن ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[(٤)] وإنما قال إبراهيم لابنه : ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ ولم يقل : إنى رأيت فى المنام .

(١) من الآية : ٥٣ من سورة الحجر .

(٢) من الآية : ٧١ من سورة هود .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة ابراهيم .

(٤) الآية : ٥١ من سورة التوبة .

عبر بالحاضر عن الماضى لاستحضار الصورة كأنها ماثلة أمامه ، وقد يعبر عن المستقبل بالماضى كما فى قوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾[1] لتحقق الوقوع ، فوعد الله لا يتخلف أبدا ، ثم قال له : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ فعلق الأمر على مشيئة الله ، إذ كل شىء خاشع له وقائم به ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال : ﴿ **من الصابرين** ﴾ لأن المقام مقام ابتلاء وشدة ، ويناسب ذلك الصبر الجميل . وأسلم .

إبراهيم وإسماعيل أوهما إلى الله ، وألقى إسماعيل على جبينه ليذبحه من قفاه ، وشحذ السكين ، وهم بتنفيذ أمر الله ، ولكن السكين لم تؤثر ، فالخليل يريد أن يذبح ، والجليل يريد ألا يذبح : ( عبدى أنت تريد ، وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد ) .

قال الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ أى : فلما تشهدا وذكرا الله تعالى ــ إبراهيم على الذبح ، والولد شهادة الموت ، وقبل : أسلما : يعنى استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ــ وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم ، ومعنى ﴿ **تله للجبين** ﴾ أى : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ومجاهد وسعيد بن والضحاك وقتادة : ﴿ **وتله للجبين** ﴾ اكبه على وجهه .

وقال الامام أحمد : حدثنا شريح ويونس قالا : حدثنا حماد بن سلمة عن أبى عاصم الفتوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : ( لما أمر إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فاسبقه ، فسبقه إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ثم ذهب به جبريل . عليه الصلاة والسلام ــ إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل ــ عليه الصلاة والسلام ــ قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه . فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه : ( أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ) فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن تتبع ذلك الضرب من الكباش )[2] وذكر هشام الحديث فى المناسك بطولة .

وقوله تعالى : ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أى : قد حصل المقصود من رؤياك باضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئا حال بينها وبينه صنحة من نحاس ، ونودى إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ عند ذلك : ( قد صدقت الرؤيا ) وقوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل**

---

(١) من الآية الأولى من سورة النحل .

(٢) انظر مسند الامام احمد ( وابن عباس ــ رضى الله عنهما ) ج ١ ص ٢٩٧ .

**على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾**[١].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافا لطائفة من المعتزلة ــ والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى ــ شرع لابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أى : الاختبار الواضح الجلى ، حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله تعالى ، منقادا لطاعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفى** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال سفيان الثورى عن على قال : بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، قال أبو الطفيل : وجدوه مربوطا بسمرة فى ثبير .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : الصخرة التى بمنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدى به إسماعيل .

وقوله تعالى : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبح وهو إسماعيل عقب بذكر البشارة بأخيه إسحاق . ( نبيا ) حال مقدرة ، أى سيصبر منه نبى صالح . قال تعالى ــ فى سورة هود: ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٣].

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾[٥].

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٢ ــ ٣

(٢) سورة النجم الآية : ٣٧

(٣) سورة هود الآيات : ٦٩ ــ ٧٣

(٤) سورة ص الآيات : ٤٥ ــ ٤٧

(٥) سورة مريم الآيات : ٤٩ ــ ٥٠

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ قال ابن عباس : بشر به حين ولد

وقوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾[١] .

ولما كنا بصدد الحديث عن الذبيح ناسب ذلك أن نبين أحكام الأضحية التى ذكرها الفقهاء ، وذلك لقوله ــ ﷺ ــ : ( ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم )[٢] . ولقوله : ( من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا )[٣] .

الأضحيــة :

**تعريفها** : الأضحية والضحية : اسم لما يذبح من الابل والبقر والغنم يوم النحر وأيام التشريق تقربا إلى الله تعالى .

**مشروعيتها** : وقد شرع الله الأضحية بقوله ــ سبحانه :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾[٥] . والنحر هنا : هو ذبح الأضحية .

وثبت أن النبى ــ ﷺ ــ ضحى ، وضحى المسلمون ، وأجمعوا على ذلك .

**فضلها** : روى الترمذى عن عائشة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : ( ما عمل آدمى من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم ، إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسا )[٦] .

---

(١) الآية : ٤٨ من سورة هود

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ثواب الأضحية ج ٢ ص ١٠٤٥ من رواية زيد بن أرقم قال فى الزوائد : فى إسناده أبو داود ، واسمه : نضيع بن الحارث ، وهو متروك ، وانهم بوضح الحديث .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الأضاحى ) باب : الأضاحى واجبة هى أم لا ؟ ج ص ١٠٤٤ رقم ٣١٢٣ من رواية ابى هريرة ــ رضى الله عنه .

فى الزوائد : فى إسناده عبد الله بن عياش ، وهو ــ وإن روى له مسلم فإنما أخرج له فى والشواهد وقد ضعفه ابو داود والنسائى . وقال أبو حاتم : صدوق . وقال ابن يونس : منكر الحديث . وذكر ابن حبان فى الثقات .

(٤) سورة الكوثر .

(٥) من الأية ٣٦ من سورة الحج .

(٦) انظر سنن الترمزى ( كتاب الأضاحى باب : ما جاء فى فضل الأضحية ج ٤ ص ٨٣ رقم ١٤٩٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا م هذا الوجه .

**حكمها** : الأضحية سنة مؤكدة ، ويكره تركها مع القدرة عليها لحديث أنس الذى رواه البخارى ومسلم أن النبى — ﷺ — ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر [١] .

**الأملح** : ما يخالط بياضه سواد . ( أقرنين ) : ماله قرن .
وروى مسلم عن أم سلمة أن النبى — ﷺ — قال : ( إذا رأيتم هلال ذى الحجة وأراد أحدكم أن يضحى فليمسك عن شعره وأظافره )[٢] فقوله : ﴿ أراد أن يضحى ﴾ . دليل على السنة لا على الوجوب .

وروى عن أبى بكر وعمر أنهما كانا لا يضحيان عن أهلهما ، مخافة أن يرى ذلك واجبا . متى تجب ؟ : ولا تجب إلا بأحد أمرين :

١ — أن ينذرها ، لقول الرسول — ﷺ — ( من نذر أن يطيع الله فليطعه )[٣] . وحتى لو مات الناذر فإنه تجوز النيابة فيما عينه بنذره قبل موته .

٢ — أن يقول : هذه لله ، أو هذه أضحية . وعند مالك : إذا أشتراها بنية الأضحية وجبت .

**حكمتها** : والأضحية شرعها الله إحياء لذكرى إبراهيم ، وتوسعة على الناس يوم العيد ، كما قال الرسول — ﷺ — ( إنما هى أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل )[٤] .

**مم تكون ؟** : ولا تكون إلا من الابل والبقر والغنم ، ولا تجزىء من غير هذه الثلاثة بقول الله — سبحانه : ﴿ ليذكروا أسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾[٥] . ويجزىء من الضأن ماله نصف سنة ، ومن المعز ماله سنة ، ومن البقر ماله سنتان ، ومن الابل ماله خمس سنين ، يستوى فى ذلك الذكر والأنثى .

١ — روى أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : (نعمت الأضحية الجذع من الضأن )[٦] . ( الجذع ماله ستة أشهر عند الحنفية ، وماله سنة فى الأصح عند الشافعية ) .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحى ) باب : استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل ، والتسمية والتكبير ج ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الأضاحى ) باب : نهى مريد التضحية ان يأخذ من شعره وأظفاره شيئا ج ١٣ ص ١٣٩ .

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى ( كتاب النذور والايمان ) باب : من نذر أن يطيع الله فليطعه ح ٤ ص ١٠٤ رقم ١٥٢٦ من رواية السيدة عائشة — رضى الله عنها — رواه ابن ماجة فى سننه فى ( كتاب الكفارات ) باب : النذر فى المعصية ح ١ ص ٦٨٧ رقم ٢١٢٦ .

(٤) انظر سنن الترمذى ( كتاب الصيام ) باب : فى كراهية الصوم فى أيام التشريق ح ٣ ص ١٣٤ رقم ٧٧٣ عن عقبة بن عامر . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود فى سننه فى ( كتاب الصيام ) باب : صيام أيام التشريق ح ٢ ص ٣٢٠ رقم ٢٤١٩ . ورواه النسائى أيضا فى سننه فى ( كتاب المناسك ) باب : النهى عن صوم يوم عرفة ح ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) من الآية : ٣٤ من سورة الحج .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ما جاء فى الجذع من الضأن فى الأضاحى ح ٤ ص ٨٧ رقم ١٤٩٩ . قال أبو عيسى : حديث أبى هريرة حسن غريب .

٢ – وقال عقبة بن عامر : قلت : يا رسول الله : أصابنى جذع قال : ( ضح به )[١] . رواه البخارى ومسلم .

٣ – وروى مسلم عن جابر أن الرسول – ﷺ – قال : ( لا تذبحوا إلا مسنة ، فإن تعسر عليكم فاذبحوا جذعة من الضأن )[٢] . والمسنة : الكبيرة ، هى من الابل مالها خمس سنين ، ومن البقر ماله سنتان . ومن المعز ماله سنة ، ومن الضأن ماله سنة أو ستة أشهر ، على الخلاف المذكور من الأئمة . وتسمى المسنة بالثنية .

**الأضحية بالخصى :**

ولا بأس بالأضحية بالخصى . روى أحمد عن أبى رافع قال : ضحى رسول الله – ﷺ – بكبشين أملحين موجوءين خصيين[٣] ولأن لحمه أطيب وألذ . مالا يجوز أن يضحى به :

ومن شروط الأضحية السلامة من العيوب ، فلا تجوز الأضحية بالمعيبة مثل :

١ – المريضة البين مرضها

٢ – العوراء البين عورها .

٣ – العرجاء البين ظلعها .

٤ – العجفاء التى لا تنقى .

٥ – العضباء التى ذهب أكثر أذنها أو قرنها .

ويلحق بهذه الهتماء ، والعصماء ، والعمياء ، والقولاء والجرباء التى كثر جربها . ( العجفاء : التى ذهب مخها من شدة الهزال ، الهتماء : هى التى ذهب ثناياها من أصلها ، العصماء : ما انكسر غلاف قرنها ، التولاء : التى تدور فى المرعى ولا ترعى ) .

يقول الرسول – ﷺ – ( أربعة لا تجزىء فى الأضاحى : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ظلعها ، والعجفاء التى لا تنقى )[٤] رواه الترمذى : وقال : حسن صحيح .

ولا بأس بالعجماء ، والتبراء ، والحامل ، وما خلق بغير أذن ، أو ذهب نصف أذنه ، أو أليته . والأصح عند الشافعية : لا تجزىء مقطوعة الألية والضرع لفوات جزء مأكول ، وكذا مقطوعة الذنب .

قال الشافعى : لا تحفظ عن النبى – ﷺ – فى الأسنان شيئا .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحى ) ح ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨٣ وانظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٨٨ رقم ١٥٠٠ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ١٣ ص ١١٩ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الأضاحى ) باب : سن الأضحية ح ١٣ ص ١١٧ .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ( حديث أبى رافع ) ح ٦ ص ٨ إلا أنه قال : ( موجبين ) مكان ( موجوءين ) ولعل ما فى أحمد خطأ مطبعيا .

(٤) انظر سنن الترمذى ( كتاب الأضاحى ) باب : مالا يجوز من الأضاحى ح ٤ ص ٨٦ . رقم ١٤٩٧ فقد رواه عن البراء بن عازب مرفوعا . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

## وقت الذبح :

ويشترط فى الأضحية ألا تذبح إلا بعد طلوع الشمس من يوم العيد ويمر من الوقت قدر ما يصلى العيد ، ويصح ذبحها بعد ذلك فى أى يوم من الأيام الثلاثة فى ليل أو نهار ، ويخرج الوقت بإنقضاء هذه الأيام .

فعن البراء — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : ( إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك فى شىء )(١) .

وقال أبو برد : خطبنا رسول الله — ﷺ — يوم النحر فقال : ( من صلى صلاتنا ، ووجه قبلتنا ، ونسك نسكنا ، فلا يذبح حتى يصلى )(٢) روى الشيخان عن الرسول — ﷺ — ( ومن ذبح بعد الصلاة والخطبتين فقد أتم نسكه وأصاب سنة المسلمين )(٣) .

## كفاية أضحية واحدة عن البيت الواحد :

إذا ضحى الانسان بشاة من الضأن أو المعز أجزأت عنه وعن أهل بيته ، فقد كان الرجل من الصحابة — رضى الله عنهم — يضحى بالشاة عن نفسه وعن أهل بيته فهى سنة كفاية .

روى ابن ماجة والترمذى وصححه أن أبا أيوب قال : ( كان الرجل فى عهد رسول الله — ﷺ — يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى )(٤) .

## جواز المشاركة فى الأضحية :

تجوز فى الأضحية إذا كانت من الابل أو البقر ، وتجزىء البقرة أو الحمل عن سبعة أشخاص إذا كانوا قاصدين الأضحية والتقرب إلى الله ، فعن جابر قال : ( نحرنا مع النبى — ﷺ — بالحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة )(٥) رواه مسلم وابو داود والترمذى .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الأضاحى ) باب : وقت الأضاحى ح ١٣ ص ١١٤ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى ( كتاب الأضاحى ) باب : وقت الأضاحى ح ١٣ ص ١١٤ من حديث البراء بن عازب — رضى الله عنه .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨١ فقدروه عن البراء بن عازب ، مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٤) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب الأضاحى ) باب : من ضحى بشاه عن أهله ح ص ١٠٥١ رقم ٣١٤٧ رواه الترمذى فى سننه فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ما جاء أن الشاه الواحدة تجزى عن أهل البيت ح ٤ ص ٩١ رقم ١٥٠٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الحج ) باب إجزاء البداية والبقرة عن سبعة ح ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ ( صحيح مسلم بشرح النووى — طبع المطبعة المصرية ) .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الأضاحى ) باب : عن كم تجزىء البدنة والبقة ح ٢ ص ١٠٤٧ رقم ٣١٣٢ ورواه الترمذى فى سننه فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ما جاء فى الاشتراك فى الأضحية ح ٤ ص ٨٩ رقم ١٥٠٢ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

**توزيع لحم الأضحية :**

يسن للمضحى ان يأكل من أضحيته ويهدى الأقارب ويتصدق منها على الفقراء ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( كلوا وأطعموا وادخروا )[١] .

وقد قال العلماء : الأفضل أن يأكل الثلث ويتصدق بالثلث ويدخر الثلث . ويجوز نقلها ولو إلى بلد آخر ولا يجوز بيعها ولا بيع جلدها .

( ولا يعطى الجزار من لحمها شيئا كأجر ، وله أن يكافئه نظير عمله ) وإنما يتصدق به المضحى أو يتخذ منه ما ينتفع به . وعند أبى حنيفة أنه يجوز بيع جلدها ويتصدق بثمنه وأن يشترى بعينه ما ينتفع به فى البيت .

**المضحى يذبح بنفسه :**

يسن لمن يحسن الذبح أن يذبح أضحيته بيده ويقول : بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عن فلان ـ ويسمى نفسه ـ فإن رسول الله ـ ﷺ ـ ذبح كبشا وقال : ( بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عنى وعن من لم يضح من أمتى )[٢] رواه أبو داود والترمذى .

فإن كان لا يحسن الذبح فليشهده ويحضره ، فإن النبى ـ ﷺ ـ قال لفاطمة : ( يا فاطمة قومى فاشهدى أضحيتك ، فإنه يغفر لك عند أول قطرة من دمها كل ذنب عملته ، وقولى : ( أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ) .

وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ـ فقال أحد الصحابة : يارسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة ؟ أو للمسلمين عامة ؟ قال رسول الله ﷺ : بل للمسلمين عامة[٣] ( من كتاب فقه السنة الجزء ١٣ ) .

## العقيقة

( من رسالة : العقيقة سنة لن تموت ، إبراهيم بن محمد )

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحى ) باب : ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث فى أول الاسلام وبيان نسخة واباحته إلى من شاء ح ٣ ص ٥١٥ ، ٤١٦ رقم ١٢٩٠ وهو جزء حديث رواه مسلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ رواه الترمذى فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ما جاء فى الرخصة فى أكلها بعد ثلاث ح ٤ ص ٩٤ ، ٩٥ رقم ١٥١٠ من طريق سليمان بن بريدة عن أبيه . وقال ابو عيسى : حديث بريدة حديث حسن صحيح .

وروى ابن ماجه نحوه من حديثة نبيشة : انظر ( كتاب الأضاحى ) باب : ادخار لحوم الأضاحى ح ٢ ص ١٠٥٥ رقم ٣١٦٠

(٢) انظر سنن أبى داود ( كتاب الأضاحى ) باب : فى الشاة يضحى بها عن جماعة ح ٣ ص ٩٩ رقم ٢٨١٠ فقد رواه عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه .

وانظر سنن الترمذى ( كتاب الأضاحى ) باب : العقيقة بشاه ح ٤ ص ١٠٠ رقم ١٥٢١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث رواه البيهقى فى السنن الكبرى فى ( كتاب الضحايا ) باب : ما يستحب للمرء ان يتولى ذبح نسكه أو يشهده ح ٩ ص ٢٨٣ من رواية عمران بن حصين .

وانظر مجمع الزوائد ( كتاب الأضاحى ) باب : فضل الأضحية وشهود ذبحها ح ٤ ص ١٧ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط ، وفيه ابو حمزة الشمالى ، وهو ضعيف .

العقيقة لغة : قال الامام أحمد : العق : معناه القطع ، ومنه : عق والديه إذا قطعهما .

والعقيقة فقها : عق عن ولده يعق عقا ، إذا ذبح يوم أسبوعه ، أى : عن المولود .

## الأحاديث التى وردت عن رسول الله ﷺ فى العقيقة

١ – عن سلمان بن عامر الضبى قال : قال رسول الله – ﷺ – ( مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دما ، وأميطوا عنه الأذى )(١). رواه البخارى .

٢ – عن سمة قال : قال رسول الله – ﷺ – ( كل غلام رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه ويحلق رأسه )(٢). رواه أصحاب السنن كلهم وقال الترمذى : حسن صحيح .

٣ – عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله – ﷺ – ( عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة )(٣). وفى لفظ : أمرنا رسول الله – ﷺ – أن نعق : عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان .. رواه أحمد فى مسنده .

٤ – وعن أم كرز الكعبية : أنها سألت رسول الله – ﷺ – عن العقيقة ؟ قال : ( عن الغلام شاتان ، وعن الأنثى واحدة ، ولا يضركم ذكرانا أو إناثا ) أى : ( الذبائح )(٤). رواه أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه .

٥ – عن ابن عباس أن رسول الله – ﷺ – عق عن الحسن والحسين كبشا كبشا(٥).

٦ – أمر رسول الله – ﷺ – لفاطمة – رضى الله عنها – حين عقت عن الحسن والحسين : أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما .

### الحكمة من العقيقة :

١ – سنة ، والعمل بالنسبة من أفضل القربان إلى الله .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى بحاشية السندى طبع المطبعة العثمانية المصرية فى ( كتاب العقيقة ) باب : إماطة الأذى عن الصبى فى العقيقة ج ٣ ص ٢٠١ .

وانظر سنن أبى داود ح ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٩ وسنن الترمذى ح ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٥ وابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٤

(٢) الحديث رواه ابو داود فى سننه فى ( كتاب العقيقة ) ج ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٨ وانظر سنن الترمذى ( باب من العقيقة ) ج ٤ ص ١٠١ رقم ١٥٢٢ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الذابح ) باب العقيقة ج ٢ ص ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ رقم ٣١٦٥ والنسائى فى سننه فى ( كتاب العقيقة ) باب : متى يعق ؟ ح ٧ ص ١٦٦ .

(٣) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ رقم ١٥١٣ وسنن ابى داود ح ٣ ص ١٠٥ رقم ٢٨٣٤ وسنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٣ واللفظ له : مع تقديم وتأخير .

(٤) سنن الترمذى ح ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٦ وسنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٢ إلى قوله : ( وعن الجارية شاة ) وفى سنن أبى داود ح ٣ ص ١٠٥ رقم ١٨٣٥ وسنن النسائى ح ٧ ص ١٦٥ .

(٥) سنن ابى داود ح ٧ ص ١٠٧ رقم ٢٨٤١ والنسائى ح ٧ ص ١٦٦ الا أنه قال : بكبشين كبشين .

٢ - لأنها سبب تجدد النعمة من الله على الوالدين ، وإظهار للفرح والسرور بخروج نسمة مؤمنة يكاثر بها رسول الله - ﷺ - الأمم يوم القيامة .

٣ - وفيها سر بديع موروث عن فداء إسماعيل - عليه السلام - بالكبش الذى ذبح عنه وفداه الله به ، فصارت سنة فى أولاده بعده بأن يفدى أحدهم عند ولادته بذبح يذبح عنه ، ولا يستنكر أن يكون هذا حرزا له من الشيطان بعد ولادته ، وأسرار الشرع أعظم من ذلك .

٤ - فدية يفدى بها المولود من المصائب والآفات .

٥ - فكاك لرهان المولود فى الشفاعة لوالديه .

٦ - جعل الله - سبحانه - اليوم السابع من الأسبوع عيدا لهم يجتمعون فيه مظهرين شكره وذكره .

٧ - تقوية لروابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع ، لاجتماعهم على موائد الطعام ابتهاجا بقدوم المولود الجديد .

## الأحكام العامة التى تتعلق بالعقيقة

١ - قال أبو عبد الله : عدم كسر عظم الذبيحة سواء حين الذبح أو عند الأكل ولكن يقطع كل عظم من مفصله ، فلا تكسر العظام لقول رسول الله - ﷺ - فى العقيقة التى عقتها فاطمة عن الحسن والحسين : ( أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل ، وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما ) رواه الامام أبو داود ( فى كتاب الراسيل ) عن جعفر بن محمد عن أبيه ) والحكمة من ذلك : إظهار شرف الطعام ، وهو من الجود . وتفاؤلا بسلامة أعضاء المولود وصحتها . ولكن قال ابن شهاب : لا بأس بكسر عظامها ، فقد جرت العادة بذلك لما فى ذلك من مصلحة أكله وتمام الانتفاع به .

٢ - قال ابن المنذر والامام الشافعى : العقيقة سنة واجبة . ويتقى فيها من العيوب ما يتقى من الضحايا ، ولا يباع إهابها ولا يكسر عظامها ويأكل أهلها منها ويتصدقون ، ولا يمس الصبى بشىء من دمها .

٣ - يأكل أهلها منها ويتصدقون ويهدى ولا يباع منها ولا جلدها ولا رأسها ولا سقطها ، وهذا قول الامام أحمد .. وكره الحسن أن يعطى جلدها فى أجرة الجازر أو الطباخ .

٤ - لا يمس الصبى شىء من دمها .

٥ - التسمية عند الذبح : ( بسم الله ، لك وإليك ، هذه عقيقة فلان ) قل ابن المنذر : وهذا حسن ، وإن نوى العقيقة ولم يتكلم به أجزأه إن شاء الله .

٦ - يستحب طبخها دون إخراج لحمها نيا . قال بذلك الخلال فى جامعة ، وأبو عبد الله ، وهو زيادة فى إحسان وفى شكر النعمة وتمتع المساكين بها هنيئة مكفية المؤنة .

وعند الشافعية : يستحب طبخ لحمها والتصدق به وبمرقها على المساكين بالبعث إليهم أفضل من الدعاء

إليها ، ولو دعا إليها قوما جاز ، ولو فرق بعضها ودعا ناسا إلى بعضها جاز ، ويستحب أن يأكل منها ويتصدق ويهدى كما فى الأضحية ..

٧ – والسنة : هى العق بالغنم دون غيره .. وهو قول جماعة ، منهم عائشة – رضى الله عنها – والإمام مالك .

٨ – يسن لمن يأكل منها أن يدعو بهذا الدعاء : ( اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك لهم فيما رزقتهم ) .

٩ – ( شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويمنعها الفقراء )[١] . ( رواه البخارى ومسلم ) .

**مسألة : هل التصدق بثمن العقيقة أفضل ولو بالزيادة ؟**

قال أبو عبد الله : العقيقة أفضل – وكذا قال الإمام الشافعى : إن ، إراقة الدم وتنفيذ السنة مقصودة ، فإنها عبادة مقرونة بالصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾[٢] . وقال سبحانه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾[٣] . ففى كل ملة صلاة ونسيكة لا يقوم غيرها مقامها .

**مسألة : هل يحق الاستقراض لها ؟**

قال صالح لأبيه عبد الله : الرجل يولد وليس عنده ما يعق : أحب إليك أن يستقرض ويعق عنه ؟ أم يؤخر ذلك حتى يوسر ؟ قال : أشد ما سمعنا فى العقيقة حديث الحسن عن سمرة عن النبى – ﷺ – ( كل غلام رهينة بعقيقة )[٤] . وإنى لأرجو إن استقرض أن يعجل الله الخلف ، لأنه أحيا سنة وابتع ما جاء عنه – ﷺ – ( تحفة المودود لابن قيم الجوزية ) .

**مسألة : فى حكم اجتماع العقيقة والأضحية :**

سئل الإمام أحمد ، فقال : لا أدرى . ثم قال : ( غير واحد يقول به ) أى : جواز أن يضحى مكان العقيقة .

وقال فى موضع آخر : أرجو أن تجزىء الضحية عن العقيقة إن شاء الله .

وقال بن القيم : ووجه اجزاء حصول المقصود منها بالذبح واحد ، فإن الأضحية عن المولود مشروعة كالعقيقة عنه . فإذا ضحى ونوى أن تكون عقيقة وأضحية وقع ذلك عنهما ، كما لو صلى ركعتين ينوى بهما تحية المسجد وسنة مكتوبة .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب النكاح ) باب الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة ص ٣٣٥ رقم ٩٠٧ فقد روى الحديث عن أبى هريرة .

(٢) الآية : ٢ من سورة الكوثر .

(٣) الآية : ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٤) سبق تخريجه .

**حكم من لم يعق عنه :**

أبواه هل يعق عن نفسه إذا بلغ ؟

قال الرافعي : فإن أفر حتى بلغ سقط حكمها فى حق غير المولود . وهو مخير فى العقيقة عن نفسه ، قال : واستحسن القفال والشاشي أن يفعلها ، للحديث المروى أن النبي ـ ﷺ ـ ( عق عن نفسه بعد النبوة ) قال النووى : ( وأما ) الحديث الذى ذكره فى عق النبي ـ ﷺ ـ عن نفسه فرواه البيهقى بإسناده عن عبد الله بن محرار ، عن قتادة ، عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ ( عق عن نفسه بعد النبوة ) وهذا حديث باطل قال البيهقى : هو حديث منكر ـ عبد الله بن محرر ـ متفق على ضعفه ، ولكن قال عنه حبيب الأعظمي فى تخريجه على مصنف عبد الرزاق : أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات كما فى مجمع الزوائد للهيثمى . ٤ / ٥٩ انتهى ، المصنف ٣٢٩٤ .

**وقتها :**

تستحب فى اليوم السابع ، للأحاديث السابقة ، وقد ذهب فى ذلك إلى :

يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[1] . ويقول أيضا : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾[2] .

وتقول أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ففى ( سبعة أيام ، أربعة عشر ، ولأحد وعشرين ) وقال به أبو صالح بن أحمد ، وأبو عبد الله .

وقال الامام مالك : الظاهر أن التقييد باليوم السابع إنما هو على وجه الاستحباب ، وإلا فلو ذبح عنه فى الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده أجزأت ، والاعتبار بالذبح لا بيوم الطبخ والأكل . ( تحفه المودود ) .

البشرى والتهنئة بالمولود ، قال تعالى : ﴿ **وبشروه بغلام عليم** ﴾[1] وتهنئة الإسلام بالمولود قول الحسن البصرى : ( بورك فى الموهوب شكرت الواهب ، وبلغ أشده ، ورزقت بره ) .

## « أضواء كاشفة »

فإن تاريخ الأمم هو تراثها الماضى الذى تستمد منه الإلهام والثقة فى حاضرها ، وتستشرف به مستقبلها مقتفية الأثر ، متجنبة الزلل ، آخذة بالمثل العليا ، والأنبياء هم أعظم العظماء ، بهم استنارات القلوب والعقول ، بلغوا رسالات السماء ، وأخرجوا الإنسانية من ظلمات الجهل والجاهلية وأرسوا أسس حضارات متميزة ، مجدوا الفضيلة ، وكانوا حربا على الرذيلة ، ونادوا بارتقاء الإنسانية على الحيوانية ، ورسموا لهم أسس حياة إنسانية راقية .

---

(١) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٧٨ من سورة الحج .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة الذاريات .

ولما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والصبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تتمه الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدى الغرض فيه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء .

قال ــ رحمه الله ــ عن إبراهيم خليل الرحمن :

هو إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرقحشد بن سام بن نوح ــ عليه السلام ــ هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم ــ عليه السلام ــ يكنى أبا الضيفان ، قالوا : ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم ــ عليه السلام ــ وناحور وهاران ، وولد لهاران لوط .

وعندهم أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ هو الأوسط ، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل .

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحيح ذلك ابن عساكر بسنده عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها : برزة ، فى جبل يقال له : قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط ــ عليه السلام ــ قالوا : فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور ملكا ابنة هاران ، يعنون بابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقرا لا تلد : قالوا : وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه ابن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين : يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال .

ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب ، ويعملون لها أعيادا وقرابين . وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط ــ عليهم السلام ــ وكان الخليل ــ عليه السلام ــ هو الذى أزال به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ آتاه رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا ، واتخذه خليلا فى كبره ، قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين** ﴾[1] . أى : كان أهلا لذلك ، وقال تعالى : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من**

---

(١) الآية : ٥١ من سورة الأنبياء .

**قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾**[1] .

ثم ذكر ــ تعالى ــ مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره ــ إن شاء الله ــ وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال ــ تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾[2] فذكر ــ تعالى : ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة ، وأحسن إشارة : بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئا ، أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر . ثم قال منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر منه سنا من أبيه : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ أى : مستقيما واضحا سهلا حنيفا يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك ، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده ، قال : ﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعال ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ أى : واقطعنى وأطل هجرانى ، فعندها قال له إبراهيم ﴿ **سلام عليك** ﴾ أى : لا يصلك منى مكروه ، ولا ينالك منى أذى بل أنت سالم من ناحيتى ، وزاده خيرا فقال : ﴿ **سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا** ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى لطيفا ، يعنى : فى أن هدانى لعبادته والاخلاص له ، ولهذا قال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ . وقد استغفر له إبراهيم ــ عليه السلام ــ كما وعده فى أدعيته . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ **وما كان استغفار**

---

(١) الآيات : ١٦ ــ ٢٧ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات : ٤١ ــ ٤٨ من سورة مريم .

**إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾**[١] .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة : عن النبى – ﷺ – قال : ( يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصنى . فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟! فيقول الله : إنى حرمت الجنه على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر ، فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار ) هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفردا[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين** ﴾[٣]

هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب – منهم ابن عباس – على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ – بالخاء المعجمة – فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر ، ولعل له اسمين علمين أو أحدهما لقب والآخر علم . وهذا الذى قال محتمل . والله أعلم .

## مناظرته لقومه

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجة قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[٤] .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله – عز وجل – لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب – تعالى – لا يغيب عنه شىء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقى بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب – قيل : هو الزهرة –

(١) الآية : ١٤ من سورة التوبة .
(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) إبراهيم – عليه السلام – ح ٦ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ رقم ٣٠
(٣) الآية : ٧٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات : ٧٥ – ٨٣ من سورة الأنعام .

لذلك ، ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] ولهذا قال : ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة** ﴾ أى : طالعة : ( وقال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجة قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ) أى : لست أبالى بهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله فانها لا تنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته فى الكواكب لأهل ( حران ) فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحق وغيره ، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾ وقال فى سورة الأنبياء : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين : قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾[2] .

وقال فى سورة ( الشعراء ) :

﴿ **واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال**

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .

(٢) الآيات : ٥١ — ٧٠ من سورة الأنبياء .

**أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾**[1] .

وقال تعالى فى سورة ( الصافات ) :

**﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾**[2] يخبر الله تعالى ـ عن إبراهيم خليله ـ عليه السلام ـ أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان ، وحقرها عندهم وصغرهم وتنقصها فقال : ( ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ) أى : يعتكفون عندها وخاضعون لها ؟ قالوا : ( وجدنا آباءنا لها عابدين ) ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ( قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ) . كما قال تعالى : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾** قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وقال لهم : ( هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) سلموا له أنها لا تسمع داعيا ، ولا تنفع ولا تضر شيئا ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال ، ولهذا قال لهم : **﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾** وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرن فيه ( قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ) يقولون : هذا الكلام الذى تقوله لنا ، وتتنقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه فى آبائنا ، تقوله محقا جادا فيه أم لاعبا ؟ ( قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ) يعنى : بل أقول لكم ذلك جادا محقا ، وإنما الهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شىء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله ( وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ) : أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل : انه قال هذه خفية فى نفسه وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه ليحضره ، فقال : إنى سقيم . كما قال تعالى : **﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم ﴾** عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق فى بطلان

(١) الآيات : ٦٩ – ٨٣ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات : ٨٣ – ٩٨ من سورة الصافات .

ماهم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الاهانة ، فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو فى بلدهم ( راغ إلى آلهتهم ) أى : ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها فى بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا لها فقال : لها على سبيل التهكم والازدراء : ( ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين ) لانها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم فى يده ، كما قال تعالى : ﴿ **فجعلهم جذاذا** ﴾ أى : حطاما ، كسرها كلها ( إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ) قيل : إنه وضع القدوم فى يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار ، فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ( قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ) وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء ، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : ( من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ) أى : يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها ، وعلى قول ابن مسعود أى : يذكرهم بقوله : تعالى لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ) أى : فى الملأ الأكبر على رءوس الاشهاد لعلهم يشهدون فعالته ، ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه ، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل ـ عليه السلام ـ أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون : ﴿ **موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾[1] فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ( قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا ) قيل : هو الحامل لى على تكسيرها ، وإنما عرض لهم فى القول ( فسئلوهم إن كانوا ينطقون ) وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد ( فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ) أى : فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ( ثم نكسوا على رءوسهم ) قال السدى : أى : ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : إنكم أنتم الظالمون ، أى : فى عبادتها . وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أى : فأطرقوا ثم قالوا : ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) أى : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ فعند ذلك قال لهم الخليل ـ عليه السلام ـ ( أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) كما قال تعالى : ( فأقبلوا إليه يزفون ) أى : يسرعون . ( قال أتعبدون ما تنحتون ) أى : كيف تعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ؟! ( والله خلقكم وما تعملون ) وسواء كانت ( ما ) مصدرية أو بمعنى ( الذى ) فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوق مخلوقا مثله ، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ( قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ) عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة

---

(١) من الآية : ٥٩ من سورة طه .

- إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب - جل جلاله - وأعلى كلمته ودينه وبرهانه ، كما قال تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى حوية عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط .

ثم وضعوا ابراهيم - عليه السلام - فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له ( هزن ) وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ، فلما وضع الخليل - عليه السلام - فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ الآية[1] .

وقال أبو يعلى عن أبى هريرة قال : قال - ﷺ - ( لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . ويروى عن ابن عباس وسعيد بين جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول : أومر فأرسل المطر ، فكان أمر الله أسرع ، قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ) قال على بن أبى طالب : أى : لا تضربه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله - تعالى - قال : وسلاما على إبراهيم لآذى إبراهيم بردها .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك : يروى أن جبريل - عليه السلام - كان معه يمسح العرق عن وجهه ، ولم يصبه منها شىء غيره . وقال السدى : كان معه أيضا ملك الظل . وصار إبراهيم - عليه السلام - فى ميل الحوية حوله النار وهو روضه خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ، ولا هو يخرج اليهم ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما أرى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم وروى ابن عسكر من عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها - عليه السلام - فنادته : يا بنى إنى أريد أن أجىء اليك ، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك . فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر

---

(١) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

والحديث رواه البخارى فى ( كتاب تفسير القرآن ) باب : إن الناس قد جمعوا لكم .. الآية ج ٣ ص ٧٥ ( صحيح البخارى بحاشية السندى - طبع المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٩٣٢ ) .

النار . فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما ، وإنه قال : ما كنت أياما وليالى أطيب عيشا إذ كنت فيها ، وودت أن أعيش وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفى الآية الأخرى : ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال ، وهذا فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما ، بل هى كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾[(١)] .

قال البخارى : عن أم شريك أن ـ ﷺ ـ أمر بقتل الوزغ ، وقال : كان ينفخ على إبراهيم[(٢)] وقال أحمد : إن نافع مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن ـ ﷺ ـ قال : ( اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم[(٣)] قال : فكانت عائشة تقتلهن . وقال أحمد : عن نافع أن إمرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب ، فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن ـ ﷺ ـ أن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب تطفى عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه . تفرد به أحمد من هذين الوجهين[(٤)] .

## ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من ادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[(٥)] يذكر ـ تعالى ـ مناظرة خليله من هذا الملك الجبار المتمرد الذى ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل ـ عليه السلام ـ دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق الحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار أوهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، قاله مجاهد وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا ـ فيما ذكروا ـ أربعة : مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، والكافران : النمرود وبختنصر . وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة ، وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا .

---

(١) الآية : ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ رزوق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) باب قوله تعالى : بل فعله كبيرهم هذا ج ٦ ص ٣٥٨ رقم ٣٩

(٣) سند احمد ( مسند عائشة رضى الله عنها ) ج ٦ ص ٢٠٠

(٤) انظر مسند احمد ( مسند عائشة ) ج ٦ ص ٨٣ ، ص ١٠٩ ، ص ٢١٧

(٥) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت .

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحق : يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا ، وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع فى الحقيقة ، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده : ضرورة عدم قيامها بنفسها ، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، خلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ، ولهذا ﴿**قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت**﴾(١) فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحيى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ماادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿**قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**﴾(٢) أى : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما أدعاه وبطلان ما سلكه وسكت ، ولهذا قال ﴿ **فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾(٣) .

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روى عبد الرزاق بن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم فى حجلة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه ، وقال : أشغل أهلى إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رحاله وجاء فنام ، فقامت امرأته سارة

(١) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

إلى العدلين .فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت من الذى جئت به ، فعرف أنه رزقهموه الله ــ عز وجل ــ قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالايمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى عليه ، ثم الثالثة فأبى عليه ، وقال : أجمع جموعك ، وأجمع جموعى ، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمرزاب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله ــ عز وجل ــ بها .

## هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله : ﴿ **فآمن له لوط ، وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاء وكانوا لنا عابدين** ﴾[2] .

لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت إمرأته عاقرا لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى ــ بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه ــ عز وجل ــ ودعوة الخلق إليه ، والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهى التى قال الله ــ عز وجل : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ قال أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفى عن ابن عباس قوله : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾[3] .

ثم المشهور أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرا من بلاده كما تقدم ، والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه : إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك ، فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة ، وضرب قبته شرق بيت المقدس ، ثم انطلق مرتحلا إلى

---

(١) الآيتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة العنكبوت

(٢) الآيتان : ٧١ - ٧٣ من سورة الأنبياء

(٣) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

التيمن ، وأنه كان جوع ، أى : قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر ، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها : قولى : أنا أخته ، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن ، يعنى : أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله ، قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : ههنا رجل معه إمرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه . قال : أختى فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبينى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ . فقال : ادعى الله ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها ، أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعا بعض صحبته فقال : إنكم لم تأتو لى بإنسان ، وإنما أتيتمونى بشيطان ، فاخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده : مهيم ، فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره واخدم هاجر . قال ابو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء )[1] تفرد به من هذا الوجه موقوفا .

وقال الامام أحمد : عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : ( إنى سقيم ) وقوله : ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقوله لسارة : ( إنها أختى ) قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ... أو جبار من الجبابرة ــ فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك ــ أو جبار من الجبابرة ــ فقيل : قال : أختى ، قال : فأرسل بها ، قال : فأرسل بها إليه وقال : لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى ، ليس على الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر ) قال : فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال : فأرسل ، ، قال : ثم قام إليها ، قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إلى إلا شيطانا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، قال : فرجعت ، فقالت لابراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة ؟ )[2] تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

وقال ابن أبى حاتم : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال : ( ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله ، فقال : ( إنى سقيم ) وقال : ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقال للملك حين أراد امرأته : هى أختى .

فقوله فى الحديث : هى أختى ، أى : فى دين الله ، وقوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ رقم ٣٨ .
(٢) مسند الامام أحمد ( مسند أبى هريرة ) ح ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

وغيرك يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ، ويتعين حمله على هذا ، لأن لوطا كان معهم وهو نبى ـ عليه السلام ـ وقوله لها لما رجعت : مهيم : معناه : ما الخبر ؟ فقالت : إن الله رد كيد الكافرين .. وفى رواية ( الفاجر ) وهو الملك وأخدم جارية .

وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله ـ عز وجل ـ ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت هى أيضا ، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها. ودعت الله ـ عز وجل ـ بما تقدم من الدعاء العظيم ، ولهذا قال ـ تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[1] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم ـ عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماءُ إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم ـ عليهن السلام ـ والذى عليه الجمهور أنهن صديقات ـ رضى الله عنهن وأرضاهن ـ ورأيت فى بعض الآثار أن الله ـ عز وجل ـ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ، وكان مشاهدا لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأقرب لعينه ، وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل : إنه لم تكن إمرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها ـ رضى الله عنها ـ ولله الحمد والمنة .

ثم إن الخليل عليه السلام ـ رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن ، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ، ثم إن لوطا ـ عليه السلام ـ نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان ، وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا ، وأوحى الله تعالى ـ إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية .

يؤيد ذلك قول رسول الله ـ ﷺ ـ ( إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها )[2] قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط ـ عليه السلام ـ فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، فاستنقذ لوطا ـ عليه السلام ـ واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا ، وهزمهم وساق فى آثارهم حتى

---

(١) من الآية : ٤٥ من سورة البقرة .

(٢) هذا جزء حديث رواه أحمد فى مسنده ( توبان ) ح ٥ ص ٢٧٨ ، ٢٨٤ وفى ح ٥ ص ١٢٣ ومسند شداد بن أوس . وانظر صحيح مسلم ( كتاب الفتن ) باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ ورواه أبو داود فى سننه ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ رقم ٤٢٥٢ ورواه ابن ماجة فى سننه فى ( الفتن ) ح ٢ ص ١٣٠ رقم ٣٩٥٢ وانظر سنن الترمذى ( الفتن ) ح ٣ ص ٣١٩ رقم ٢٢٦٧ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وصل إلى شرق دمشق ، وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمى لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيدا منصورا إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له ، مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاده ـ صلوات الله وسلامه عليه .

## ذكر مولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك ، وأنه لما كان لابراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت سارة لابراهيم ـ عليه السلام ـ إن الرب قد أحرمنى الولد ، فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا .

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ فحين دخل بها حملت منه ، قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها ، فغارت منها سارة ، فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت ، فنزلت عند عيث هناك ، فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافى ، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيرا ، وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل ، ويكون وحش الناس ، يده على الكل ، ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته ، فشكرت الله ـ عز وجل ـ على ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه الذى سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا ، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح مالم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وماذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ، ويمن بشارته ، وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل ـ عليه السلام ـ قالوا : وولدته ولابراهيم من العمر ستة وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره باسحق من سارة ، فخر لله ساجدا ، وقال له : قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدا كثيرا ، ويولد له أثنا عشر عظيما ، وأجعله رئيسا لشعب عظيم .

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( يكون اثنا عشر أميرا ) ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبى : ما قال ؟ قال : ( كلهم من قريش )[1] أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية : لا يزال هذا الأمر قائما . وفى رواية : عزيزا حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ( كتاب الأحكام ) باب بأن فى الاستخلاف ح ٤ ص ١٦٨ وانظر صحيح مسلم ( كتاب الامارة ) ح ٣ ص ١٤٥٣ رقم ٩ - ١٨٢١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ - ١٨٢١ وانظر الترمذى ( كتاب القدر ) باب : ما جاء فى الخلفاء ح ٣ ص ٢٤٠ رقم ٢٣٢٣ .

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضا ، ومنهم بعض بنى العباس ، وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقا بل لابد من وجودهم .

وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة ، الذى أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا ، وهو محمد ابن الحسن العسكرى ــ فيما يزعمونّ ــ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة ، وسكن رحى الحروب بين المسلمين ، والباقون من حجلة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور .

وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هو فى الرفوس ، وهذيان فى النفوس ، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر ــ عليها السلام ــ لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حتى وضعها حيث مكة اليوم ، ويقال ان ولدها كان إذ ذاك رضيعا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر ، وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها ، قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : فإذا لا يضيعنا .

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن زيد ــ رحمة الله ــ فى كتاب ( النوادر ) أن سارة تغضبت على هاجر ، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها . قال السهلين : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من ثقبت أذنها منهن ، وأول من طولت ذيلها .

## ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأم هاجر
## إلى جبال فاران وهى أرض مكة وبناء البيت العتيق

قال البخارى عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قض إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذا لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عن التنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[1] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال : يتلبط ــ

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : حية — تريد نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضا — فقالت : قد أسمعت ، إن كان عندك غواث ؟ فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه .. أو قال : بجناحه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — ( يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف الماء — لكانت زمزم عينا معينا ) فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبواه وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ .

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبى — ﷺ — فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه إمرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل إمرأته ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، فى حنيق وشدة وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على إمرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى — ﷺ — ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه ( وعن الثعلبى : فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا ) .

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومر به يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم

من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاله تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد . ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[1] قال وجعلا يبنيـان حتى يدورا حول البيت وهما يقـولان : ﴿ **ربنـا تقبـل منـا إنك أنت السميـع العليم** ﴾[2] .

ثم قال : عن ابن عباس قال : لما كان إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما تقدم ، وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفى بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الاسرائيليات وفيه أن إسماعيل كان رضيعا إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل وفى أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر فى موضعه .

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ــ ﷺ ــ ( اختتن إبراهيم النبى ــ عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم )[3] والقدوم : هو الآلة ، وقيل : موضع .

## قصـــة الذبيـــح

قال الله تعـالى : ﴿ **وقـال إنى ذاهب إلى ربى سيهديـن رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغـــلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ .

---

(١) من الآية : ١٣٧ من سورة البقرة .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى يشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٦٠ – ٣٦٨ رقم ٤٤ وانظر رقم ٤٥ من نفس المصدر ص ٣٦٨ – ٣٧١ .

(٣) انظره فى صحيح البخارى يشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٥٤ رقم ٣٦ .

يذكر – تعالى – عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا ، فبشره الله تعالى – بغلام حليم هو إسماعيل – عليه السلام – لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل ، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أول ولد وبكره ، وقوله : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ ( **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل ، فلما كان هذا رأى إبراهيم – عليه السلام – فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعا : ( رؤيا الأنبياء وحى )(1) قال عبيد ابن عمير : وهذا اختيار من الله – عز وجل – لخليله فى أن يذبح الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن ، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به جليس ولا أنيس ولا خرع ، فامتثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه ، فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده الذى قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته ، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا ( قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ) . فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ قيل : أسلما ، أى : استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل : هذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى : للجبين ، أى : ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاحقا بالأرض ، وأسلما ، أى : سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ، ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس . والله أعلم .

فعند ذلك نودى من الله – عز وجل – ﴿ **أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أى : قد حصل المقصود من اختيارك وطاعتك ومبادرتك إلى ربك ، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أى : الاختيار الظاهر البين . وقوله : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ أى : وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى – له من الفوضى عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة فى ثبير . قال الثورى : عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال سعيد بن جبير : كان يرفع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير ، وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى . وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن أنه كان يتسأ من الأروى ، واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما ههنا من

(1) انظر المستدرك ح ٤ ص ٣٩٦

الآثار مأخوذ من الاسرائيليات . وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم . وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشا .

قال الامام أحمد : عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله — ﷺ — إلى عثمان بن طلحة ، وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله — ﷺ — قال : إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرها ، فخمرهما ، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى . قال سعفان : لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا[1] وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره . والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : ( وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ) ومن جعله ( حالا ) فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق إنما هو إسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفى نسخة من المعربة : بكره ( إسحق ) فلفظة ( إسحق ) ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . ذاك إسماعيل . وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله — ﷺ — وإسحق والد يعقوب وزادوا فيه ، وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقال عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبى حاتم : سألت أبى عن الذبيح ، فقال : الصحيح أنه إسماعيل — عليه السلام — قال ابن أبى حاتم : وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير ، والحسن ومجاهد والشعبى ومحمد بن كعب وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح : أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل — عليه السلام — وحكاه النبوى أيضا عن الربيع بن أنس والكلبى وأبى عمرو بن العلاء . قلت : وروى عن معاوية ، وجاء عنه أن رجلا قال لرسول الله — ﷺ — يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله — ﷺ — وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحق بن يسار ، وكان الحسن البصرى يقول : لا شك فى هذا .

وقال محمد بن إسحق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة : ( فبشرناه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ) فقال له عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل — والله — يا أمير المؤمنين ، وإن

(١) انظر مسند أحمد ( حديث صفية بنت شيبة : إمرأة من بنى سليم ) ح ٤ ص ٦٨ وانظر ح ٥ ص ٣٨٠ .

اليهود لتعلّم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق : لأن إسحق أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسألة متقصاة بأدلتها واثارها فى كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

( مولد إسحاق )

قال الله تعالى : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾[1] وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم – كما سيأتى بيانه فى موطنه إن شاء الله تعالى – قال الله تعالى : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾[4] .

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ( فنكرهم ) إبراهيم ﴿ **وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[5] أى : لندمر عليهم ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشارا بذل قال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾[6] أى : بشرتها الملائكة

(١) الآيتان رقم ١١٢ – ١١٣ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٦٩ – ٧٠ – ٧١ – ٧٢ – ٧٣ من سورة هود .

(٣) الآيات ٥١ – ٥٢ – ٥٣ – ٥٤ – ٥٥ – ٥٦ من سورة الحجر .

(٤) الآيات ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٢٩ – ٣٠ من سورة الذاريات .

(٥) جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة هود .

(٦) من الآية رقم ٧١ من سورة هود .

بذلك ﴿ **فأقبلت امرأته فى صرة** ﴾[١] أى : فى صرخة ﴿ **فصكت وجهها** ﴾[٢] أى : كما يفعل النساء عند التعجب ﴿ **وقالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا** ﴾[٣] أى : كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضا وهذا بعلى : زوجى شيخا ، تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : ﴿ **إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٤] وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارا بهذه البشارة وتثبيتا لها وفرحا بها ﴿ **قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين** ﴾[٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة ، وقرروه معه فبشروهما ﴿ **بغلام عليم** ﴾[٦] وهو إسحق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال : فى الآية الأخرى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾[٧] وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل وان إسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

فقوله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾[٨] دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أى : يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما بمولد أبيه من قبله وقال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا** ﴾[٩] وقال تعالى : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب** ﴾[١٠] وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمشى عن إبراهيم بن زيد التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أى : مسجد وضع أول ؟ قال : ( المسجد الحرام قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت كم بينها قال : أربعون سنة قلت ثم أى ؟ قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد )[١١] وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله . وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين

(١) من الآية رقم ٢٩ من سورة الذاريات .

(٢) من الآية رقم ٢٩ من سورة الذاريات .

(٣) من الآية رقم ٧٢ من سورة هود .

(٤) من الآية رقم ٧٢ – ٧٣ من سورة هود .

(٥) الآيتان ٥٤ – ٥٥ من سورة الحجر .

(٦) من الآية ٥٣ من سورة الحجر .

(٧) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٨) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٩) من الآية ٨٤ من سورة الأنعام .

(١٠) من الآية ٤٩ من سورة مريم .

(١١) انظر صحيح مسلم ج ١ كتاب المساجد ص ٣٧٠ رقم ٥٢٠ .

سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحق لان إبراهيم عليه السلام لما دعا قال : فى دعائه كما قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾(١) . وما جاء فى الحديث ان سليمان بن دواد عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله : ﴿ **قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾(٢) وكما سنورده فى قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنه سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

قال الله تعالى : ﴿ **وإذ بوءنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وآمنا وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(٥).

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلات وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أى : أرشده إليه

---

(١) الآيات ٣٥ – ٤١ من سورة إبراهيم .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة ص .

(٣) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة الحج .

(٤) الآيتان ٩٦ – ٩٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآيتان ١٢٤ – ١٢٩ من سورة البقرة .

بوحى من الله ـ عز وجل ـ وقد قدمنا فى صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال : بعض السلف أن فى كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض ، فأمر الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يبنى له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت فى الصحيحين أن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يجىء فى خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبينا قبل الخليل ـ عليه السلام ـ ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكان المقدر فى علم الله المقرر فى قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم . وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق وقد قال الله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾[١] أى : أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة .

قيل : مكة وقيل : محل الكعبة ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾[٢] أى : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾[٣] أى : الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عند الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا فإنه قد وافقه ربه فى اشياء منها قوله لرسوله ـ ﷺ ـ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾[٤] وقد كانت اثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

| | |
|---|---|
| وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه | وراق لبر فى حراء ونازل |
| وبالبيت حق البيت من بطن مكة | وبالله إن ليس بغافل |
| وبالحجر السور إذ يمحسونه | اذ اكتنفوه بالضحى والأحائل |
| وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة | على قدميه حافيا غير ناعل |

يعنى إن رجله الكريم غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ولهذا قال تعالى :

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾[١] أى : فى حال قولهما : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[٢] فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله ـ عز جل ـ وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم** ﴾[٣] .

والمقصود : أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة الماء وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرما وآمنا محتما فاستجاب الله وله والحمد له سأله ولبى دعوته وأتاه طلبته فقال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا** ﴾[٥] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أى : من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة الفصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا ، وأى رسول ، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف اجناسهم ولغاتهم وحفلتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة . كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه فى نفسه وكما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على امته ولطفه ورحمته ، وكريم ، وعظيم مولده ، وطيب مصدره ، ومورده ، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام اذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه تم والحمد لله .

فمن ذلك ما قال السدى لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدرك أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى : ﴿ **وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** ﴾[٦] فلما بلغا القواعد بينا الركن قال : ابراهيم لإسماعيل يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوته بيضاء مثل النعامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبت من جاءك بهذا قال جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما

---

(١) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ١٢٨ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٦٧ من سورة العنكبوت .

(٥) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .

(٦) من الآية : ٢٦ من سورة الحج .

يدعوان الله ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[١] وذكر ابى حاتم انه بناه من خمسة أجبل وأن ذو القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال : من أمر كما بهذا فقال : إبراهيم الله امرنا به فقال وما يدرينى بما تقول فشهدت خمسة اكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشمال على ما هى عليه اليوم .

وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله ابن محمد أبى بكر أخبر ابن عمر عن عائشة أن ـ ﷺ ـ قال : ( ألم تر : إلى قومك حين بنوا الكعبة أقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم فقال : لولا حدثان قومك وفى رواية لولا أن قومك حديث عهدٍ بجاهلية أو قال : بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر )[٢] .

وقد بناها ابن الزبير ـ رحمة الله على ما أشار إليه رسول الله ـ ﷺ ـ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج فى سنة ٧٣ هـ كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير انما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية . كما هو مشاهد إلى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك .

ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الامام مالك فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له : إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

**ذكر ثناء الله ـ ورسوله الكريم ـ على عبده وخليله ابراهيم**

قال الله : ﴿ **واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾[٣] ولما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس اماما يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه وخالده فى عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام . وسلمت إليه الامامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون ، كما قال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وأتيناه أجره فى الدنيا وإنه**

---

(١) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٢ كتاب الحج باب فضل مكة ص ١٧٩ وانظر صحيح مسلم كتاب الحج ج ٢ ص ٩٦٩ رقم ٣٩٩ .

(٣) الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

في الآخرة لمن الصالحين ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن أبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾[٢] .

فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليبا وهذا هو الحامل للقائل الأخر إن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾[٣] الآية .

فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ، ومرتبة عليه لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر ثم إسحق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جدا بحيث لا يعلم عددهم الا الذى بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى بن مريم من بنى اسرائيل ، وإما اسماعيل ـ عليه السلام ـ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الاطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى المكى ثم المدنى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : ( سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم )[٤] مدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ ( يعوذ الحسن والحسين ويقول : إن اباكما كان يعوذ بهما إسماعيل واسحق . أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة )[٥] وراه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ اربعة من الطير فصرهن إليه ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[٦] .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ٨٤ – ٨٧ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٦٢ رقم ٢٧٣ .

(٥) أنظر البخارى ج ٢ ص ١٧٨ – ١٧٩ طبعة الشعب .

(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطاناها فى التفسير . وقررناها بأتم تقرير . والحاصل : ان الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فامره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا فى تعينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره ان يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه فى بعض قم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزأ ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى جناحيه وكل ريشه تأتى إلى اختها حتى اجتمع بدون كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدره الذى يقول : للشىء كن فيكون فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا ، ويقال : إنه أمر أن يأخذ رؤسهن فى يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله ، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فاجابه الله إلى سؤاله واعطاه غاية مؤمولة .

وقال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين** ﴾(١) ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منه وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى قوله سبحانه : ﴿ **وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده** ﴾(٢) .

أى : فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده ، بمدد متطاولة ولهذا قال : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ فبين أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الأخلاص والانحراف عمدا عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحد ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له**

---

(١) الآيات ٦٥ - ٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٦٥ من سورة آل عمران .

مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما بغافل عما تعملون ﴾[١] .

فنزه الله ــ عز وجل ــ خليله عليه السلام من أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾[٢] يعنى : الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وهذا النبى ﴾ يعنى محمدا ــ ﷺ ــ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه . اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[٤] .

وقال البخارى : عن ابن عباس أن النبى ــ ﷺ ــ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ، والله لم يستقسما بالأزلام قط .[٥] وفى بعض ألفاظ البخارى ( قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط ) .

فقوله ﴿ أمة ﴾ أى قدوة وإماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه ، ﴿ قانتا لله ﴾ أى : خاشعا له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حنيفا ﴾ أى : مخلصا على بصيرة ﴿ ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه ﴾ أى : قائما يشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ، ﴿ اجتباه ﴾ أى : اختاره الله لنفسه ، واصطفاه لرسالته واتخذه خليلا وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[٦] ويرغب تعالى فى اتباع إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾[٧] ولهذا اتخذه الله خليلا ، والخلة هى غاية المحبة . كما

---

(١) الآيات ١٣٠ – ١٤٠ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٦٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآيات ١٦١ – ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات ١٢٠ – ١٢٣ من سورة النحل .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٤ كتاب الحج باب من كبر فى نواحى الكعبة .

(٦) الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

(٧) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح منى    وبذا سمى الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : ( أيها الناس إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا )[١] وقال : أيضا فى آخر خطبة خطبها أيها الناس لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن إسحاق بن بشارة قال : ( لما اتخذ الله إبراهيم خليلا القى فى قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء ) .

وقال : عبيد بن عمير كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يضيف الناس فخرج يوما يلتمس انسانا يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال : يا عبد الله ما ادخلك دارى بغير إذنى قال : دخلتها بإذن ربها . قال : ومن أنت قال : أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا قال : من هو فوالله إن أخبرتنى به ثم كان باقصى البلاد لاتينه ثم لا ابرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت قال : ذلك العبد أنت قال : أنا قال : نعم قال : فبم اتخذنى ربى خليلا قال : بأنك تعطى الناس ولا تسألهم رواه ابن ابى حاتم ) وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيرا فى غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل : إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعا منها خمس عشر فى البقرة وحدها . وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الانبياء فى آيتى الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾[٢] وقوله ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[٣] الآية . ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ـ ﷺ ـ وهو الذى وجده ـ عليه السلام ـ فى السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة ثم لا يعدون إليه آخر ما عليهم وقال أحمد : عن أبى هريرة قال : قال : رسول الله ـ ﷺ ـ ( إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن . تفرد به أحمد )[٤] .

---

(١) انظر كنز العمال الفضل الثانى فى فضل الخلفاء الأربعة ج ١١ ص ٥٤٨ رقم ٣٢٥٧١ ورد الحديث عن ابى امامه بزاده ( وان خليلى ابو بكر ) وانظر صحيح مسلم ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهى عن بناء المساجد على القبور ج ١ ص ١٧٩ رقم ٢٣ - ٥٣٢ بلفظ الحديث .

(٢) الآية ٧ من سورة الاحزاب .

(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ .

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال : فيه ( وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم )[١] رواه مسلم وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه ، ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بقوله : ( أنا سيد آدم يوم القيامة ولا فخر )[٢] .

وقال : أحمد عن أبى هريرة : قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله )[٣] تفرد به أحمد ، فأما الحديث الذى رواه الامام احمد عن ابن عباس عن النبى ــ ﷺ ــ ( يحشر الناس حفاة عراه فأول من يكسى إبراهيم ــ عليه السلام )[٤] ثم قرأ ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ فاخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس . وهذه الفضيلة المعنية لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ــ وأما الحديث الأخر الذى قال : الأمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال : رجل للنبى ــ ﷺ ــ ( يا خير البرية فقال : ذاك إبراهيم )[٥] فقد رواه مسلم وقال : الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل ــ عليه السلام ــ كما قال : لا تفضلونى على الأنبياء وقال : لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور )[٦] وهذا كله لا ينافى ما ثبت بالتواتر عنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من ( أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ) .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ أمر المصلى أن يقول : فى تشهده ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن حجرة وغيره قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال : ( قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد )[٧] وقال تعالى : ﴿ **وابراهيم الذى وفى** ﴾[٨] قالوا : وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسبه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار .

---

(١) أنظر صحيح مسلم ــ كتاب الايمان ــ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ١٨٠ – ١٨١ عن رواية رقم ٣٢٢ – ١٩٣ أنس بن مالك وروى الحديث بمعناه .

(٢) الحديث فى مسند الأمام أحمد ج ١ ص ٢٨١ مسند ابن عباس ــ وفى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٧٨٢ ــ كتاب الفضائل ــ باب تفضيل نبينا ــ ﷺ ــ على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ ص .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٢٣ ــ انظر البخارى ص ١٢٢ ج ٦ فى تفسير سورة الانبياء .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٨٤ ــ وصحيح ملسم ج ٤ ص ١٨٣٩ رقم ١٥٠ – ٢٣٦٩ .

(٦) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٤ ــ كتاب الفضائل ــ باب ــ من فضائل موسى عليه السلام برقم ٢٣٧٣ . ومسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٠ – ٤١ بمعناه .

(٧) الحديث الامام مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٣٠٥ رقم ٦٦ – ٤٠٦ باب الصلاة على النبى ــ ﷺ ــ كتاب الصلاة .

(٨) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال : عبد الرزاق انبأنا معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾[١] قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد . فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفى الجسد ، تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الابط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن ابى حاتم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الابط )[٢] .

وفى صحيح مسلم وأهل السنة عن عائشة : رضى الله عنها ـ قالت : قال : رسول الله ـ ﷺ ـ ( عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء )[٣] والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله ـ عز وجل ـ وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى : فى حقه من المدح العظيم ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾

**قصره فى الجنة .**

قال : الحافظ أبو بكر البراز عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن فى الجنة قصرا أحسبه قال : من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا[٤] ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فاسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفا قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه .

**صفة إبراهيم عليه السلام .**

قال أحمد : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فاحمر جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم . قالوا له : فإبراهيم قالوا : انظروا إلى صاحبكم يعنى نفسه )[٥] .

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل : الضحاك الملك المشهور الذى يقال إنه ملك الف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح ـ عليه السلام ـ وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم اخفى ضوء الشمس والقمر

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٢ رقم ٢٥٧ – ٥٠ كتاب الطهارة بلفظ الحديث .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٣ رقم ٥٦ – ٢٦١ ( كتاب الايمان بلفظ الحديث .

(٤) انظر زوائد البزار ج ٣ ص ١٠٢ رقم ٢٣٤٦ ( ذكر ابراهيم الخليل ) .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٧٤ .

فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فامر عند ذلك يمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبابا باهرا وانبته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل : ببابل وقيل : بالسواد من ناحية كوفى ( بالعراق ) وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق ، فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم ــ عليه السلام ــ ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بنى جيث يقال له عفرون بن صبخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا : ثم خطب إبراهيم على أبنه إسحق فزوجه بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الأبل قالوا : ثم تزوج إبراهيم ــ عليه السلام ــ قنطورا فولدت له زمران ويقشان وماذان ومدين وشياق وشوح . وذكروا ماولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساكر من غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم ــ عليه السلام ــ أخبارا كثيرة الله اعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان ، والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا : ثم مرض إبراهيم ــ عليه السلام ــ ومات عن مائة وخمس وسبعين وقيل وتسعين سنة ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى عند إمراته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى وتولى دفنه إسماعيل وإسحق ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة كما قال ابن الكلبى .

وقال مالك : عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ( كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس أختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال : يارب ما هذا فقال الله : وقار ) فقال يا رب : زدنى وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استنحد وأول من لبس السراويل ) فقبرو وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب فى الربعة التى بناها سليمان بن دواد ــ عليه السلام ــ ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل إلى اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيل بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماتنا هذا أن قبرة بالمربعة تحقيقا . فأما تعينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها أن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء ــ عليهم السلام ــ تحتها . وروى ابن عساكر بسنده أن وهب بن منبه قال : ( وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة ) .

ألحق جهـــولا أملـــه      يموت من جا أجلـــه

ومـــن دنـــا من حتفـــه      لم تغـــن عنـــه حيلـــه

وكيـــف يبقـــى أخـــر      من مات عنـــه أولـــه

والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

**قصص موسى وهارون عليهما سلام :**

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين** ﴾ يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاه بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه وما كان يعتمد فى حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الابناء واستحياء النساء واستعمالهم فى أخس الأشياء ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقرأ عينهم منهم فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين وهو التوراه كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراه فيها هدى ونور** ﴾[2].

وقال عز وجل : ههنا ﴿ **وآتيناهما الكتاب المستبين** ﴾ أى : وأعطيناهما الكتاب الجلى الواضح لما يحتاج إليه البشر من مصالح الدين والدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾ أى : ودللناهما على طريق الحق وأمددناهما بالتوفيق والعصمة .

وقوله تعالى : ﴿ **وتركنا عليهما فى الآخرين** ﴾ أى : وأبقينا ليحيا الذكر الحسن والثناء الجميل فيمن بعدهم ، وهذا ما تصبوا إليه النفوس قال الشاعر :

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الانبياء .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وإنما المرء حديث بعـــــــده فكـــن حديثـــا حسنـــا لمن وعـــى

وقال الآخر : الذكر للانسان عمر ثان قوله تعالى : ﴿ **سلام على موسى وهارون** ﴾ أى : وجعلنا الملائكة والإنس والجن يسلمون عليهما أبد الدهر ، ولا شىء أدى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال كما ورد فى الحديث ( من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ) ثم ذكر سبحانه سبب هذه النعم فقال تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ أى : إنهما كانا فى زمرة المحسنين فجازيناهما بالإحسان إليهما ﴿ **وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان** ﴾ .

**قصص إلياس ـ عليه السلام :**

قال تعالى :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

**تفسير المفردات :**

( تدعون بعلا ) أتعبدون الصنم المسمى بعلا ، ( لمحضرون ) تحضرهم الزبانية فى النار ، ( إلياسين ) يعنى إلياس وأهل دينه ، قال العلماء : يجوز أن يكون إلياس والياسين بمعنى واحد كما يقال ميكال وميكائيل .

**« التفسير »**

قوله تعالى : ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين** ﴾ قال قتادة : ومحمد بن إسحاق يقال الياس هو إدريس ، وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه قال : إلياس هو إدريس . وقال وهب بن منيه : هو إلياس بن نسى ، ابن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون ، بن عمران بعثه الله تعالى فى بنى إسرائيل بعد حزقيل ـ عليهما السلام ـ وكانوا قد عبدوا صنما يقال له : بعل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنيين ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالايمان به إن هم أصابهم المطر ، فدعا الله لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الفكر فسأل الله أن يقضبه إليه ، وكان قد نشأ على يديه اليسه بن أخطوب ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فأمر الياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما

جاءه فليركبه ولا يهبه فجاءته فرس من نار فركب فالبسه الله تعالى النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا انسيا سماويا أرضيا . هكذا مكان وهب بن منبه عن أهل الكتاب . قال ابن كثير : والله أعلم بصحبته .

قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لقومه ألا تتقون** ﴾ أى : ألا تخافون الله ــ عز وجل ــ فى عبادتكم غيره ﴿ **أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين** ﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما ــ ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة والسدى بعلا يعنى ربا . قال عكرمة : وقتادة وهى لغة أهل اليمن . وقال ابن إسحاق أخبرنى بعض أهل العلم انهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبن هواسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق .

وقوله تعالى : ﴿ **أتدعون بعلا** ﴾ أى : أتعبدون صنما ﴿ **وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى : هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ أى : للعذاب يوم الحساب . ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى : الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع ثبت .

وقوله تعالى : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ أى : ثناء جميلا ﴿ **سلام على الياسين** ﴾ يعنى الياسين وأهل دينه . ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ تقدم تفسيره .

**أضواء كاشفة :**

قال الحافظ : العلامة ابن كثير فى كتابه : قصص الأنبياء ) عن النبى إلياس : وأما الياس عليه السلام .

فقال الله تعالى : بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب أبائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إلياسين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ قال علماء النسب : هو إلياس التشبى . ويقال : ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هارون . وقيل : الياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله ــ عز وجل ــ وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم : ﴿ **ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب أبائكم الأولين** ﴾ فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم .

وقال ابن أبى الدنيا : عن سعيد بن عبد الغزيز عن بعض شيخة دمشق قال : أقام إلياس ــ عليه السلام ــ هاربا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة أو قال : أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه ـ عز وجل ـ أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا وأوصى الى اليسع بن أخطوب ففى هذا نظر وهو من الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم . ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ **أى : للعذاب إما فى الدنيا والآخرة أو في الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون وقوله** ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى : إلا من آمن منهم وقوله : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ أى : أبقينا بعده ذكرا حسنا له فى العاملين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال : ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾ أى : على إلياس والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل إسرائين ، وإلياس وإلياسين . ومن قرأ سلام على آل ياسين أى : على آل محمد وقرأ ابن سعود وغيره سلام على إدراسين . ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود انه قال : الياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن فراصم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم .

**قصص لوط ـ عليه السلام :**

قال تعالى :

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

## « تفسير المفردات »

( فى الغابرين ) فى الباقين فى العذاب ، ( دمرنا الآخرين ) أهلكناهم ، ( مصبحين ) داخلين فى وقت الصباح .

## « المعنى الاجمالى »

يخبرنا الله تعالى عن عبده ورسوله لوط أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنه قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ أى : أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ونجد الآيات قوله تعالى : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتاتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، إئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ، فما كان جواب قومه إلا أن**

**قالوا أخرجوه آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين** ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾[٢] وقوله ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾[٣] .

**أضواء كاشفة :**

قال الحافظ ابن كثير : فى كتابه : ( قصص الأنبياء ) عن قصة النبى لوط مع قومه قال : ومما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ وما حل بهم من النقمة والغميمة وذلك أن لوطا بن هاران بن تاح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن اخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور اخوة كما قدمنا ويقال : إن هاران هذا هو الذى بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة الخليل عليهما السلام بإمره له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرفى ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس واكفرهم واسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر ولا ينتاهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى ايتان الذكران من العالمين وترك ما خلق من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستحقات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا فى فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثله فى العالمين وعبرة يتعظ بها من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى : قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾[٤] وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر**

(١) الآيات ٥٤ – ٥٨ من سورة النمل .

(٢) الآيات ٧٣ – ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآيات ٨٠ – ٨٤ من سورة الأعراف .

الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾(١) .

وقال تعالى فى سورة الحجر : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ، فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ، فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾(٢) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزوجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين , وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة النمل : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون

(١) الآيات ٦٩ — ٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيات ٥١ — ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآيات : ١٦٠ — ١٧٥ من سورة الشعراء .

**الرجال من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين** ﴾[١]. وقال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين ، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾[٢] وقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ **وإن لوطا لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[٣] .

وقال تعالى : فى الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾[٤]. وقال فى سورة القمر : ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر** ﴾[٥] وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السور فى التفسير وقد ذكر الله لوطا وقومه فى مواضع أخر من القرآن الكريم تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود . والمقصود الآن ايراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار والله المستعان .

وذلك أن لوطا ـ عليه السلام ـ لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا باخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل

---

(١) الآيات ٥٤ – ٥٨ من سورة النمل .

(٢) الآيات ٢٨ – ٣٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيات ١٣٣ – ١٣٨ من سورة الصافات .

(٤) الآيات : ٣١ – ٣٧ من سورة الذاريات .

(٥) الآيات ٣٣ – ٤٠ من سورة القمر .

صوابهم عن خطابهم إذا كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا غاية المدح ما يقتضى الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه الا العناد واللحاح فنظره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن اخراج وتركهم فى محلتهم خالدين لكن بعد ما صيرهم عليهم بحيرة فتنة ذات أمواج لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج ، وما كان هذا جوابهم الا لما نهاهم عن الطآعة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويأتون فى ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال ، والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا فى مجالسهم ولا يستحون من مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضى ولا راموا فى المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا وقالوا له : فيما قالوا : ﴿ **أأتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته واجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤا له من الأمر الجسيم والخطب العميم .

**قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾ وقال : ﴿ **ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط** ﴾ وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾ أى : اعرض عن هذا وتكلم فى غيره فإنه قد ختم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾ أى : قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه ﴿ **وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾ .

وذكر سعيد بن جبير والسُدى وقتادة ومحمد بن إسحق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول ( أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا : لا ، قال : فمائتا مؤمن قالوا : لا ، قال فاربعون مؤمنا قالوا : لا ، قال : فاربعة عشر مؤمنا قالوا : لا ) قال ابن إسحق إلى أن قال : ( أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا : لا . ﴿ **قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ الآية وعند أهل الكتاب أنه قال : يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا قال : لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل إلى عشرة فقال الله ﴿ **لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب** ﴾ .

قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل اقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا ــ عليه السلام ــ وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس ، وسيء بهم وضاق بهم ذرعا ﴿ **وقال هذا يوم عصيب** ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ومحمد بن اسحق ، شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه . وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق امامهم وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها فقال لهم : فيما قال : يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال : وكانوا قد امروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنه لوط تستقى من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا ، فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فاتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاءتهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فاخبرت قومها فقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ . أى : هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة . ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** ﴾ يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث وكما قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾[1] وفى قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم . وهذا كقوله ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾ وهذا هو الذى نص عليه مجاهد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد ابن اسحق وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد عليهم ، كما أخطأوا فى قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصه تخبيطا .

وقوله ﴿ **فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد** ﴾ نهى لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء . فجرة أقوياء . كفرة أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد . مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿ **لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد** ﴾ يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا ، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم . ولهذا

(١) من الآية ٦ من سورة الأحزاب .

قال : عليه السلام ـ ( لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد ) ود أن لو كان بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى هريرة رضى الله عنهما مرفوعا ( نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى . وقال محمد بن عمرو : من علقمة عن أبى سلمة : عن : أبى هريرة : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله ـ عز وجل ـ فما بعث الله من بعده من نبى الا فى من قومه )[1] وقال تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين** ﴾ فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيأتهم هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعون بل كلما يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون ولم يعلموا ما صم به القدر مما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم منتقلون ، ولهذا قال تعالى : مقسما بحياة نبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطا ـ عليه السلام ـ جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ماهم فى ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد لأحل بكم النكال . قالت الملائكة : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ وذكروا أن جبريل ـ عليه السلام ـ خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان . ويتوعدون رسول الرحمن . ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شان قال الله تعالى : ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط ـ عليه السلام ـ آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساق لهم . وقوله ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك أى : فأنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول اظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلى : واسم امرأة لوط واهلة ، اسم امرأة نوح والغة وقالوا له : مبشرين بهلال هؤلاء البغاة العناة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب ﴿ **إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾ فلما خرج لوط ـ عليه السلام ـ بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال : ان امرأته

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى تفسير سورة يوسف ج ٨ ص ٥٤١٥٤٠ من رواية عبده وعبد الرحيم عن محمد بن عمر عن أبى هريرة .

خرجت معه فالله أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس عند شروقها جاءهم من أمر الله مالا يرد . ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد . وعند أهل الكتاب أن الملائكة امروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب الى قرية قريبه منهم فقالوا : اذهب فإنها ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب الى قرية صغر التى يقول الناس : غور زغر ، فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قراهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم فقالوا : إنهم كانوا أربع مائة نسمة وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات ما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ والسجيل : هو الشديد الصلب القوى ﴿ **منضود** ﴾ أى : يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء ﴿ **مسومه** ﴾ أى : معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال : ﴿ **مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى** ﴾[1] يعنى : قلبها فأهوى بها منكسة عاليها وسافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال : إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا ، وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[2] أى : فخانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد : أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما . فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس : وغيره : من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال : خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا .

وقوله ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ أى : وما هذه العقوبة ببعيدة ممن اشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الامام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ـــ .

---

(٢) الآيتان ٥٣ – ٤٥ من سورة النجم .

(٢) الآية ١٠ من سورة التحريم .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ( من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به )(١) وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى : ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى انجائه إياهم من المهلكات . وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أى : من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة كما روى الترمذى وغيره مرفوعا ( اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وقوله ﴿ **وانها لبسبيل مقيم** ﴾ أى : الطريق مهىء مسلوك إلى الآن كما قال : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الآليم** ﴾ أى : تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف إن يشابه قوم لوط ( ومن تشبه بقوم فهو منهم ) وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم : فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد : فالعاقل اللبيب الخائف من ربه ، الفاهم ، يمتثل ما أمره الله به ـ عز وجل ـ ويقبل ما أرشد إليه رسول الله من إيتان ما خلق له من الزوجات الحلال . والجوارى من السرارى ذوات الجمال . وإياه أن يتبع كل شيطان مريد . فيحق عليه الوعيد . ويدخل فى قوله تعالى ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ .

**قصص يونس عليه السلام :**

قال تعالى :

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرحها مع الترمذى ج ٥ ص ٢١ رقم ١٤٨١ ( أبواب الحدود ) وفى سنن ابن ماجة ـ كتاب الحدود ( باب ) من عمل قو لوط ج ٢ ص ٨٥٦ رقم ٢٥٦١ .

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

## « تفسير المفردات »

أصل الاباق : هرب العبد من سيده ، والمراد : هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ، ( المشحون ) : المملوء ، ( فساهم ) أى : فقارع من فى النلك ، أى : عمل قرعة . ( المدحضين ) أى : المغلوبين بالقرعة ، ( فالتقمه ) أى : فابتلعه ، ( مليم ) : أى أن ما يستحق عليه اللوم ، ( بالعراء ) أى : بالمكان الخالى ، ( يقطين ) أى : ذباء ( القرع العسلى المعروف الآن ) وقيل : الموز .

قوله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ أى : وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى بالموصل ، ﴿ **إذ أبق إلى الفلك المشحون** ﴾ أى : هرب إلى الفلك المملوء بالأمتعة قاله ابن عباس : ﴿ **فساهم** ﴾ أى : قارع ، ﴿ **فكان من المدحضين** ﴾ أى : المغلوبين ، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام ثلاث مرات وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر ان يشق البحار وأن يلتقم يونس ـ عليه السلام ـ فلا يهشم له لحما ولا يكسر له عظما فجاء ذلك الحوت وألقى يونس ـ عليه السلام ـ نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس فى بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى فقام فصلى فى بطن الحوت وكان من جملة دعائه يارب اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس ، واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة : وقيل سبعة . قاله جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ ويقال : أربعين يوما قاله أبو مالك وقال مجالد عن الشعبى ، التقمه ضحى ولفظه غشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك ، فى ذلك يقول أميه أبى الصلف : (١)

وأنت بفضل منك نجيت يونسا ... وقـد بات فى أضعاف حوت لياليـا

﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ أى : فالتقمة الحوت وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه ، وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه . ثم ذكر سبحانه أنه أنجاه لما كان له من عمل صالح فقال : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء ، وفى الحديث ( تعرف إلى الله فى الرخا يعرفك فى الشدة ) . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ وسعيد ابن حبير ، والضحاك ، وعطاء ، بن السائب والسدى ، والسحن ، وقتادة ، ﴿ **فلولا أنه كان من**

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٨ ص ٥٥٥ رقم ٥١٣٣ .

المسبحين﴾ يعنى المصليين . وقيل المراد : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ هو قوله - عز وجل - حكاية عنه كما فى سورة الأنبياء ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[١] وقال إبن ابى حاتم عن أنس بن مالك عن رسول الله - ﷺ - حين بداله أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة بالعرش قالت الملائكة : يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيده غريبة فقال الله تعالى : اما تعرفون ذلك ، فقالوا : يارب ومن هو ؟ قال : عز وجل عبدى يونس قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ قالوا : يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه فى البلاء ؟ قال : بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء[٢] ولهذا قال تعالى : ﴿ **فنبذناه بالعراء وهو سقيم** ﴾ أى : ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ **قال ابن عباس أرض ليس بها نبت ولا بناء** ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أى : ضعيف البدن ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال : غير واحد من السلف : هو القرع . وذكر بعضهم فى القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمرة ، وأنه يؤكل نيأ ومطبوخا وقشرة أيضا . وقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحى الصحفة .

وقوله تعالى : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما - إنما كانت رسالة يونس - عليه السلام - بعدما نبذه الحوت . وعن مجاهد : أنه أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت ( قال ابن كثير ) ولا مانع أن يكون الذى أرسل أليهم أولا أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البنوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون . وقوله تعالى ﴿ **أو يزيدون** ﴾ قال ابن عباس : معناها : بل يزيدون فالمراد : ليس أنقص من ذلك بل أزيد . وقوله تعالى ﴿ **فآمنوا** ﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس - عليه السلام - جميعهم ﴿ **فمتعناهم إلى حين** ﴾ أى : إلى وقت آجالهم كقوله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ .

قال : العلامة الحافظ ابن كثير فى كتابة قصص الأنبياء عن النبى يونس : قال الله تعالى فى سورة يونس ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء ﴿ **وذا النون إذ مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[٤] .

---

(١) من الآية ٨٧ ، الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٢) أنظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الايدية .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ٨٧ - ٨٨ من سورة الأنبياء .

وقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين إذا أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾[1] .

وقال تعالى فى سورة ن ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تدأركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾[2] .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس ـ عليه السلام ـ إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك ، عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود : ومجاهد ، وسعيد بن حبيد ، وقتادة ، وغير واحد من السلف فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قدف الله فى قلوبهم التوبة والانابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عادوا إلى الله ـ عز وجل ـ وصرخوا ، وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال ، والنساء ، والبنون والبنات ، والأمهات وجأرت الأنعام ، والدواب ، والمواش ، فرغت الأبل ، وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ أى : هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ وقوله ﴿ **إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين** ﴾ أى : آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الايمان فى الدار الآخر فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدينوى على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم .

وقد كانوا مائة الف لا محالة واختلفوا فى الزيادة فعن محكول عشرة آلاف وروى الترمذى عن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال يزيدون عشرين الفا[3] فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا فى هذا الباب قال ابن عباس مائة الف

---

(١) الآيات ١٣٩ – ١٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٤٨ – ٥٠ من سورة القلم .

(٣) الحديث فى تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٦ ص ٦٧ رقم ٣٢٨٢ وقال : هذا حديث غريب ـ وفى تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٦٧ فى سورة الصافات .

وثلاثين الفا )[١] وقال : سعيد بن حبَير : ( كانوا مائة ألف وسبعين الفا )[٢]
واختلفوا هل كان أرساله فيهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هى مبسوطة فى التفسير . والمقصود : أنه ـ عليه السلام ـ لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب السفينة فى البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة القوة من السفينة ليتحفظوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به فاعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا لما يريد الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة القى فى البحر وبعث الله عز وجل حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ان لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت اخر اكبر منه . قالوا ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حى فخر لله ساجدا وقال : يارب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد فى مثله .

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه . فقال مجالد : عن الشعبى التقمة ضحى ولفظه عشية . وقال قتادة : مكث فيه ثلاثا وقال جعفر الصادق : سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن ابى الصلت .

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وقال : سعيد بن أبى الحسن ، وأبو مالك مكث فى جوفه أربعين يوما والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصود : أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى فسمع تسبيح الحتيان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى . فعند ذلك وهنالك قال : ما قال : بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر ، والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات ، وإن عظمت حيث قال : فى كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين وإله المرسلين ﴿ **وذا النون إذ ذهب** ﴾ إلى أهله ﴿ **مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أى : نضيق ، وقيل معناه نقدر من التقدير ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ قال ابن مسعود : وابن عباس وسعيد بن حبير وغيرهم ظلمة الحوت ، وظلمة البحر وظلمة الليل . وقال سالم بن أبى الحجر اتبلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون** ﴾ قيل

(١) انظر ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ فى تفسير سورة الصافات .
(٢) وانظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ فى تفسير صورة الصافات .

معناه : لولا أنه سبح الله هنالك وقال : ما قال : من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه . للبث هنالك إلى يوم القيامة . ولبعث من جوف ذلك الحوت . وقيل معناه ﴿ **فلولا أنه كان** ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ **من المسبحين** ﴾ أى : المطيعين المصلين الذاكرين لله كثيرا ، قاله الضماك بن ميس ، وابن عباس ، وأبو العالية وغيرهم واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لى : ( يا غلام إنى معلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة )[١] رواه ابن جرير والحبزار فى سنده عن أبى هريرة يقول : قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخدشن لحما ولا تكسرن عظما فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال : فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ( يا ربنا نسمع صوتا بأرض غريبة ) قال : ذلك عبدى يونس ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال : نعم ، قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله : ﴿ **وهو سقيم** ﴾[٢] .

وقد قال ابن أبى حاتم عن أنس ( أن يونس النبى ــ عليه السلام ــ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : ( اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ) فاقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذاك قالوا : يارب ومن هو قال : عبدى يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة قالوا : يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه فى البلاء قال : بلى فامر الحوت فطرحه فى العراء )[٣] وروى ابن جرير عن أبى هريرة أنه قال : ( طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة : وما اليقطينة : قال : شجرة الدباء قال : أبو هريرة هيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال هشاش الأرض : قال : فتنفشح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت )[٤] وقال أمية ابن أبى الصلف فى ذلك بيتا من شجرة .

فأنـبت يقطينـا عليـه برحمة ... من الله لولا الله أصبـح ضاويـا

وقد قال الله تعالى : ﴿ **فنبذناه** ﴾ أى : ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار بل هو عار منها ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أى : البدن . ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال غير واحد من المفسرين : هو القرع . قال بعض العلماء فى انبات القرع عليه حكم جمة . منها أن ورقة فى

(١) هذا جزء حديث رواه أحمد فى مسنده ( مسند ابى عباس ) ج ١ ص ٣٠٧ .
(٢) أنظر كشف الأستار عن روائد البزار ج ٣ ص ٦٧ – ٦٨ رقم ٢٢٥٤ ، وانظر الطبرى ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .
(٣) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الاميرية .
(٤) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٦ المطبعة الاميرية .

غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمرة من أول طلوعه إلى آخره نيا ومطبوخا وبقشرة وببذره أيضا ، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبى هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الإردية التى كانت ترصفه لبنها وترعى فى البرية وتأتيه بكرة وعشية .

وهذا من رحمة الله به ، ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له فنجيناه من الغم** ﴾ أى : الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ أى : وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : عن سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول ( اسم الله الذى إذا ادعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال : فقلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها )[1] ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به وقال ابن أبى حاتم عن سعد قال قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ( من دعا بدعاء يونس أستجيب له ) قال : أبو سعيد الأشج يريد به ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما قال الأمام أحمد : عن سعد بن أبى وقاص ( مررت بعثمان بن عفان فى السمجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يردد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى السلام شيء قال : لا : وماذاك قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمتْ عليه فملأ عينيه منى ثم لم يردد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام . قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى واستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ـــ ﷺ ـــ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة قال سعد فأنا أنبئك بها أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلما اشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال : من هذا . أبو اسحق قال : قلت : نعم . يا رسول الله قال : فمه قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت )[2] ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شيء قط إلا استجاب له . ورواه الترمذى والنسائى من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد .

**فضل يونس :**

قال الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء

---

(١) انظر الطبرى ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .

(٢) الحديث فى سنن أحمد ج ١ ص ١٧٠ بلفظه .

والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وقال الأمام احمد : عن : أبى وائل عن : عبد الله ، قال : رسول الله ـ ﷺ ـ ( لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ﴾[1] وقال البخارى : عن أبى هريرة عن النبى ، ـ ﷺ ـ قال : ( لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى )[2] وكذا رواه مسلم كما ورد فى بعض الأحاديث لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى . وهذا من باب الهضم والتواضع منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

**افتراء على الله .**

**قال تعالى :**

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا

(١) أنظر مسند أحمد ( مسند عبد الله بن مسعود ) ج ص ٢٩٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ ج ١ الشعب ـ كتاب بدء الخلق ـ باب قوله تعالى : ﴿ **وان يونس لمن المرسلين** ﴾ وأنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٦ رقم ٢٣٧٦ الفضائل باب فى ذكر يونس ـ عليه السلام ـ وقول النبى ـ ﷺ ـ ( لا ينبغى لعبد ) .

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **إفكهم** ﴾ كذبهم على الله ، ﴿ **أصطفى** ﴾ ؟ أختار ؟ استفهام توبيخ ، ﴿ **سلطان** ﴾ **حجة** وبرهان ، ﴿ **الجنة** ﴾ الملائكة . أو الجن ، ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ إن الكفار لمحضرون للنار ، ﴿ **بفاتنين** ﴾ أى : بمضلين من قولهم فتن فلان على فلان امرأته إذا افسدا عليه ، ﴿ **صال الجحيم** ﴾ أى : داخل فى النار ومعذب فيها ، ﴿ **الصافون** ﴾ أى : صافوا أنفسهم للعبادة ، ﴿ **ذكر** ﴾ أى : كتابا ، ﴿ **كلمتنا** ﴾ : وعدنا ، ﴿ **المنصورون** ﴾ أى : الغالبون فى الحرب وغيرها ، ﴿ **جندنا** ﴾ أى ; اتباع رسلنا ، ﴿ **الساحة** ﴾ المكان والواسع .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

أمر الله رسوله فى صدر هذه السورة بتبكيت قريش وتوبيخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة وتظاهرها على وجوده ، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده ولا جحده ، ثم أعقبه بذكر ما سيلقونه من العذاب حينئذ ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين ، وبين ما يلقونه من النعيم ، ثم عطف على هذا انه قد ضل قبلهم أكثر الأولين ، وأنه أرسل إليهم منذرين ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء تفصيلا متضمنا وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل ، وهنا أمره بالتنديد عليهم ثانيا بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائزة التى عملوها وهى جعل البنات لله وجعل البنين لأنفسهم بقولهم : الملائكة بنات الله ، ثم بالتقريع ثالثا على استهانتهم بالملائكة بجعلهم إناثا ، ثم أبطل كلا من هذين بالحجة التى لا يجد العاقل محيصا عن التصديق بها والإذعان لها ، وأتبع ذلك بما نبه به إلى أن هؤلاء المشركين لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان مستعد له ، وقد سبق فى حكم الله أنه من أهل النار وأنه لا محالة واقع فيهم ، ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيها إلى فساد قول من ادعى أنهم أولاد الله . ثم هدد سبحانه المشركين بقوله ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ وأردف ذلك ما يقوى قلب : رسوله — صلى الله عليه وسلم — بوعده بالنصر والتأييد . كما جاء فى آية أخرى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ وختمت السورة بهذا الختام الرائع ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين** ﴾ .

من قبائح هؤلاء المشركين ، أنهم نسبوا لله تعالى الملائكة وقالوا إنهم بنات الله قال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾[1] ﴿ **فاستفتهم** ﴾ فى هذا الأمر ﴿ **ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ كيف يكون ذلك كذلك وهم يكرهون الإناث ، ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب إن ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم** ﴾ ثم يقول الى : ﴿ **ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون** ﴾[2] ثم تأمل معى كيف يجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون قال تعالى : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** ﴾[3] ثم يقول سبحانه : ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون** ﴾ أوم هنا بمعنى بل والهمزة أى : بل أخلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون كما قال تعالى : ﴿ **أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ إن الملائكة عباد مكرمون ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة إنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم يقول سبحانه مخبرا عن افتراء هؤلاء العصاة ﴿ **ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون** ﴾ قال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[4] .

وقال جل شأنه ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله** ﴾[5] وقال سبحانه : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا**

---

(١) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات من ٥٨ — ٦٠ من سورة النحل . والآية ٦٢ من نفس السورة .

(٣) الآيات ١٧ — ١٨ من سورة الزخرف .

(٤) الآيات ١ — ٤ من سورة الاخلاص .

(٥) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

**إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾**[١] وقال جل شأنه : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾**[٢] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **اصطفى البنات على البنين** ﴾ استفهام توبيخى فيه تبكيت وتقريع لهؤلاء الجاحدين لعظمة الله تعالى هل يصطفى ويختار البنات على البنين يا من تكرهون البنات وتأدونهم ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ أى : خبل تلبستم به ، كيف تحكمون هذا الحكم ، ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ ﴿ **فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾ إن كان لكم سلطان مبين ، وحجة واضحة فأتوا بهذا الكتاب الذى يثبت هذا الحجة ويبين هذا البرهان . ثم يستطرد النظم الكريم فى بيان قبائح هؤلاء فيقول ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** ﴾ قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فمن أمهاتهن ، قالوا بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة : وابن زيد ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد علمت الجنة** ﴾ أى : الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم ، ثم ينزه الله ذاته المقدسة تنزيها مطلقا ، فيقول ﴿ **سبحان الله عما يصفون** ﴾ كما قال فى آخر السورة : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ . وقوله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن عباد الله المخلصين ، فإنهم لا يصفون الله إلا بكل كمال يليق بذاته ، وينزهونه عن كل نقص . قوله تعالى : ﴿ **فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وان كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون** ﴾ . هذا اخبار منه تبارك وتعالى وخطاب يتوجه به إلى أهل الضلال الذين أضلوا عباد الله وفتنوهم يقول لهم سبحانه : فإنكم يا أهل الضلال وما تعبدون من دون الله لا تستطيعون فتنة أحد ، إلا إذا كان من أهل النار وسيصلى سعيرا ويدخل جحيما . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا** ﴾[٣] وقال سبحانه ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[٤] قوله تعالى : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون** ﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الملائكة المكرمين فما منهم من أحد إلا له مقام معلوم ومكانة فى السماء فإنهم المسبحون الذين جعلت صفوفنا فى الصلاة كصفوفهم فى السماء قال ابن عساكر فى ترجمة : لمحمد بن خالد بسنده : إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد ، عن أبيه وكان محمد بايع يوم الفتح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوما لجلسائه

(١) الآيتان ١٠١ – ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة الزمر .

(٣) من الآية ٦٣ من سورة القصص .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الاعراف .

أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد )[١] ثم قرأ - ﷺ - ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون** ﴾ وقال الضحاك فى تفسيره ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ قال : كان مسروق يروى عن عائشة : رضى الله عنها - أنها قالت : قال : رسول الله - ﷺ - ( ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم ) فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ .

ومعنى ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ أى : نقف صفوفا فى الطاعة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ قال أبو نضرة كان عمر - رضى الله عنه - إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم استووا قياما يريد الله بكم هدى الملائكة ثم : يقول : ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم : يتقدم فيكبر )[٢] رواه ابن ابى حاتم وابن جرير .

وفى صحيح مسلم عن : حذيفة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا )[٣] قوله تعالى : ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له ، فقراء إليه خاضعون لديه .

وقال ابن عباس : رضى الله عنه - ومجاهد ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ الملائكة نسبح الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون** ﴾ وقد كان ذلك قبل مبعثه - ﷺ - ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٤] وذلك كما فى قوله جل شأنه : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنت الله تبديلا ، ولن تجد لسنت الله تحويلا ، أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا ، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾[٥] لقد تمنوا أن يكونوا عباد الله المخلصين ، ولكن وما نيل المطالب بالتمنى ، وليس الإيمان بالتمنى

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة بمعناه ج ٢ ص ١٤٠٢ رقم ٤١٩٠ .
أنظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨ تفسير سورة الصافات .
(٢) انظر الطبر ج ٢٣ ص ٧١ بلفظه .
(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧١ رقم ٥٥٢ ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة بلفظ الحديث .
(٤) من الآية ٨٩ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ٤٢ - ٤٥ من سورة فاطر .

ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل لذلك ذهب تمنيهم أدراج الرياح واظهر الله تعالى ما فى قلوبهم لقد كفروا به وبكتابه وبرسوله . ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾[1] وفى قوله تعالى ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ وعيد تنخلع له الأفئدة وتنفطر من هوله مرائر النمور ، وتسبل له الأكباد مرارة ولوعة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ أى : تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[3] ولهذا قال جل جلاله ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون** ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين . ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ أى : تكون لهم العاقبة . وقوله جل جلاله ﴿ **فتول عنهم حتى حين** ﴾ أى : اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فانا سنجعل لك العاقبة والنصر والظفر ، ولهذا قال بعضهم : ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضا فى معناها . وقوله جلت عظمته ﴿ **وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ أى : أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ولهذا قال تعالى : على وجه التهديد والوعيد ، ﴿ **فسوف يبصرون** ﴾ ثم : قال — عز وجل — ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ أى : هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة قال الله تعالى ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين** ﴾ أى : فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم باهلاكهم ودمارهم وقال السدى : ﴿ **فإذا نزل بساحتهم** ﴾ يعنى بدارهم ، ﴿ **فساء صباح المنذرين** ﴾ أى : بئس الصباح صباحهم . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس : رضى الله عنه ـ قال : صبح رسول الله — ﷺ — خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون محمد والله والخميس فقال النبى : — ﷺ — ( الله أكبر خرجت

(١) الآيات ٤٨ – ٥١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .

خبير إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين )[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك فى قوله تعالى ﴿ **فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ ويختتم الله تعالى هذه السورة المباركة بقوله : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون والمكذبون المعتدون تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوا كبيرا ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة** ﴾ أى ذى العزة التى لا ترام ﴿ **عما يصفون** ﴾ أى : عن قول هؤلاء المعتدين المغترين ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ أى : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه فى ربهم وصحته وحقيته وجهادهم فى سبيل أعلاء كلمة التوحيد ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ أى : له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما فى هذا الوضع وفى مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال : تبارك وتعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ وقال سعيد . بن أبى عروبة : عن : قتادة : قال : قال : رسول الله ـــ ﷺ ـــ ( إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين )[٢] هكذا رواه ابن جرير وابن ابى حاتم .

## سـورة ( ص )

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . وآياتها ثمان وثمانون فى عد الكوفة ، وست فى عد الحجاز ، والشام ، والبصرة ، وخمس فى عد أيوب بن المتوكل وحده .

**وكلماتها** : سبعمائة واثنتان وثلاثون . وحروفها . ثلاثة آلاف وسبع وستون . وكلماتها : سبعمائة واثنتان وثلاثون . **وحروفها** : ثلاثة آلاف وسبع وستون .

**مجموع فواصل آياتها** : ﴿ **حد قطرب من لج** ﴾ ولها اسمان : سورة صاد ، لافتتاحها بها،وسورة داود ، لاشتمالها على مقصد قصته فى قوله ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ .

**مقصود السورة :**

معظم مقصود السورة : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى ﷺ ، ووصف المنكرين رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالأختلاف والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء ، وعنجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان فى حديث الملك ، على سبيل المنة والعطاء ، وذكر أيوب فى

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٢٦ رقم ١٢٠ - ١٣٦٥ ( كتاب الجهاد والسير ) .
وأنظر البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبة ج ٥ ص ١٦٧

(٢) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٧٤ بلفظه .

الشقاء ، والابتلاء وتخصيص إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكنى جنة المأوى ، وحجز حال الأشقياء فى سقر ولظى ، وواقعة ابليس مع آدم وحواء وتهديد الكفار على تكذيبهم للنبى المجتبى فى قوله ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ .

**المتشابهات فى سورة .**

قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون** ﴾ **بالواو ، وفى ق** : ﴿ **فقال** ﴾ بالفاء ، لأن اتصاله بما قبله فى هذه السورة معنوى ، وهو أنهم عجبوا من مجىء المنذر وقالوا : هذا المنذر ساحر كذاب . واتصاله فى ﴿ **ق** ﴾ معنوى ولفظى ، وهو أنهم عجبوا ، فقالوا : هذا شىء عجيب . فراعى المطابقة بالعجز والصدر ، وختم بما بدأ به ، وهو النهاية فى البلاغة .

قوله : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ وفى القمر ﴿ **أألقى** ﴾[١] لأن ما فى هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمدا ـ ﷺ ـ حين قرأ عليهم ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[٢] فقالوا : أأنزل عليه الذكر ومثله ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾[٣] ﴿ **وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده** ﴾[٤] .

وهو كثير ، وما فى القمر حكاية عن قوم صالح . وكان يأتى الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة وألواح مسطورة ، كما جاء إبراهيم وموسى . فلهذا قالوا : ﴿ **أألقى الذكر عليه** ﴾[٥] مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال .

قوله : ﴿ **ومثلهم معهم رحمة منا** ﴾[٦] وفى الأنبياء ﴿ **من عندنا** ﴾ لأن الله تعالى ـ ميز أيوب بحسن صبره على بلائه ، من بين أنبيائه ، فحيث قال لهن : من عندنا قال له : منا ، وحيث لم يقل لهم : من عندنا قال له : من عندنا . فخصت هذه السورة بقوله : منا لما تقدم فى حقهم ﴿ **من عندنا** ﴾ **فى مواضع ، وخصت سورة الأنبياء بقوله** ﴿ **من عندنا** ﴾ لتفرده بذلك .

قوله ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد** ﴾[٧] وفى ق : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس** ﴾[٨] إلى قوله ﴿ **فحق وعيد** ﴾ .

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة القمر .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٣) من الآية ١ من سورة الكهف .

(٤) من الآية ١ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية ٢٥ من سورة القمر .

(٦) من الآية ٤٣ من سورة ( ص ) .

(٧) الآية ١٢ من سورة ( ص ) .

(٨) الآيات ١٢ — ١٤ من سورة ق .

قال الامام : سورة ص بنيت فواصلها على ردف أواخرها بالالف ، وسورة : ق على ردف أواخرها بالياء والواو . فقال فى هذه السورة : الأحزاب ، عقاب ، وجاء بإزاء ذلك فى ق : ثمود ، وعيد ، ومثله فى الصافات : ﴿ **قاصرات الطرف عين** ﴾[1] وفى ص ﴿ **قاصرات الطرف أتراب** ﴾ فالقصد إلى التوفيق بين الألفاظ مع وضوح المعانى . قوله فى قصة آدم ﴿ **إنى خالق بشرا من طين** ﴾[2] قد سبق .

**مناسبتها لما قبلها :**

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالمتممة لها وذلك من وجهين :

١ – إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء ما لم يذكر فى تلك كداود وسليمان .

٢ – إنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم وبدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذى الذكر وفصل ما أجمله هناك من كفرهم :

قال تعالى :

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ

(١) الآية ٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧١ من سورة ( ص ) .

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . . .

## « تفسير المفردات »

﴿ **الذكر** ﴾ : الشرف كما قال : ﴿ **وانه لذكر لك ولقومك** ﴾ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ هم رؤساء قريش وأشياعهم ﴿ **فى عزة** ﴾ أى : فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه ، والعزة أيضا الغلبة والقهر . ﴿ **شقاق** ﴾ أى : مخالفة من قولهم : فلان فى شق غير شق صاحبه ، ﴿ **فنادوا** ﴾ أى : استغاثوا ، ﴿ **لات** ﴾ أى : ليس الحين ﴿ **مناص** ﴾ أى : خيرا وهرب ، ﴿ **عجاب** ﴾ أى : بالغ فى العجب ﴿ **الملة الآخرة** ﴾ هى ملة النصارى ، ﴿ **إختلاف** ﴾ أى : كذب وافتراء ، ﴿ **فليرتقوا** ﴾ أى : فليصعدوا ، ﴿ **فى الأسباب** ﴾ أى : فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة : ﴿ **جند ما** ﴾ أى : جند كثير عظيم ، ﴿ **مهزوم** ﴾ أى : مغلوب ، ﴿ **الأحزاب** ﴾ أى : المجتمعين لايذاء محمد وكسر شوكته وابطال دينه . ﴿ **القط** ﴾ النصيب والحظ ، والكتاب بالجوائز والجمع القطوطة .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص** ﴾ .

﴿ **ص** ﴾ هذا مما استأثر الله بعلمه ، ﴿ **والقرآن ذى الذكر** ﴾ أى : والقرآن ذى الشرف قاله ابن عباس : أى : الشأن والمكانة كقوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾[3] وقال الضحاك : فى قوله تعالى ﴿ **ذى الذكر** ﴾ أى : تذكير كم وكذا قال قتادة : واختاره ابن

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيتان ٢١ — ٤٢ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ — ٤ من سورة الزخرف .

جرير : ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والانذار .

وقال المراغى فى تفسيره : ﴿ **والقرآن ذى الذكر** ﴾ أى : أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز ، وإن محمدا لصادق فيما يدعيه من النبوة ، وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر ، وإن كتابه لمنزل من عنده : ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال ! ﴿ **بل الذين كفروا فى عزة وشقاق** ﴾ أى : إن فى هذا القرآن لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ **فى عزه** ﴾ أى : استكبارا عنه وحمية ﴿ **وشقاق** ﴾ أى : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة كما حكى عنهم سبحانه فى موضع آخر ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[1] ثم حذرهم وخوفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم فقال تعالى : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص** ﴾ أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب ، فلم يغنى ذلك عنهم شيئا ، فقد فات الأوان وحل اليأس ، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون** ﴾[2] ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجئروا اليوم إنكم منا لا تنصرون** ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ، وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب** ﴾[4]

قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** ﴾ يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة رسول الله — ﷺ — بشيرا ونذيرا كما قال عز وجل : ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾[5] وقال جل وعلا ههنا ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم** ﴾ أى : بشر مثلهم ﴿ **وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا** ﴾ أى : أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون بالله فإنهم قد تلقوا عن ابائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول — ﷺ — إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الاله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿ **أجعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم** ﴾ وهم سادتهم وكبراؤهم قائلين ﴿ **امشوا** ﴾ أى : استمروا على دينكم ﴿ **واصبروا على آلهتكم** ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد —

---

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان ٨٤ – ٨٥ من سورة غافر .

(٣) الآيتان ٦٤ – ٦٥ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات ٥١ – ٥٤ من سورة سبأ .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

ﷺ - من التوحيد ، قوله تعالى : ﴿ **إن هذا لشىء يراد** ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذى يدعونا إليه - ﷺ - من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

قال ابن كثير : ( ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات ) .

قال السدى إن ناسا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاصى بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضه : لبعض انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذى يعبده ،فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شىء فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلا منهم يقال له : المطلب فاستأذن لهم على أبى طالب فقال : هؤلاء شيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا ندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسوا الله - ﷺ - قال : يا ابن أخى هؤلاء شيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال : ﷺ - ( يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟ قال - ﷺ - ( ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم ) فقال أبو جهل : لعنه الله من بين القوم ما هى وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها قال - ﷺ - ( تقولون لا إله إلا الله ) فنفروا وقالوا : سلنا غيرها قال - ﷺ - ( لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها )[1] فقاموا من عنده غضابا وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد** ﴾ .

ورواه ابن ابى حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله - ﷺ - عنه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾[2] .

وقولهم ﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** ﴾ أى : ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة يعنى النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقا لأخبرتنا به النصارى ﴿ **إن هذا إلا اختلاق** ﴾ قال مجاهد : وقتادة كذب وقولهم ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ يعنى : أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال : فى الآية الأخرى ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[4] ولهذا لما

---

(٩) انظر تفسير ابن كثير فى تفسير ( ص ) ج ٧ ص ٤٦ وتفسير الطبرى ج ٢٣ ص ٧٢ .

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٣) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام .

قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى : ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ أى : انما يقولون هذا لانهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون غب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، ثم قال تعالى مبينا أنه المتصرف فى ملكه الفعال لما يشاء الذى يعطى من يشاء ما يشاء ويضر من يشاء ويذل من يشاء ويهدى من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير ، ولهذا قال تعالى : منكرا عليهم ﴿ **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾ أى : العزيز الذى لا يرام جنابه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الإنسان قتورا** ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ **أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون** ﴾[3] . وقوله تعالى ﴿ **أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب** ﴾[4] أى : ان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ ومجاهد وسعيد بين جبير وقتادة وغيرهم يعنى طرق السماء . وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة . وقد قال تعالى : فى موضع آخر ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون** ﴾[5] .

ثم قال عز وجل : ﴿ **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتب الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين وهذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾[6] وقوله ﴿ **قل للذين**

(١) الآيات ٥٣ ـ ٥٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٠٠ من سورة الأسراء .

(٣) الآية ٣٧ من سورة الصور .

(٤) الآية ١٠ من سورة الصافات .

(٥) الآيات ٢٩ – ٤٣ من سورة الطور .

(٦) الآيتان ٤٤ – ٤٥ من سورة القمر

**كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾**[١] .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب إصبر علىٰ ما يقولون** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقوله تعالى ﴿ **أولئك الأحزاب** ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب** ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق** ﴾ قال ملك : عن زيد بن أسلم : أى : ليس لها مثنوية أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله ــ عز وجل ــ وقوله جل جلاله : ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب فإن القط هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب قال ابن عباس : رضى الله عنهما ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد سألوا تعجيل العذاب زاد قتادة كما قالوا : واذ قالوا ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم** ﴾[٢] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمي لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾[٣] .

وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا ، وقال ابن كثير وهذا الذى قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبى خالد والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله ــ ﷺ ــ آمرا له بالصبر على أذاهم ومبشرا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر ــ كما قال له سبحانه فى مواقع أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما**

---

(١) الآية ١٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآيات ٥٣ – ٥٥ من سورة العنكبوت .

يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٢] وقوله ﴿ وأصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٤] وقوله ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٥].

**قصص داود عليه السلام :**

قال تعالى :

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ

(١) الآية ٣٥ من سورة الاحقاف .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .

(٣) الآيتان ١٢٧ - ١٢٨ من سورة النحل .

(٤) الآية ١١٥ من سورة هود .

(٥) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **الأيد** ﴾ والآد : القوة فى العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ﴿ **أواب** ﴾ : أى : رجاع إلى الله وإلى طاعته من قولهم آب الرجل إذا رجع ـ ﴿ **والاشراق** ﴾ : أى : وقت الأشراق ، يقال : أشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طعلت . ﴿ **محشورة** ﴾ أى : محبوسة فى الهواء ، ﴿ **أواب** ﴾ : أى : نقاد يسبح تبعا له ، ﴿ **شددنا ملكه** ﴾ أى : قويناه بالهيبة والنصر ، ﴿ **والحكمة** ﴾ هى إصابة الصواب فى القول والعمل ، ﴿ **الفصل** ﴾ : الحاجز بين الشيئين ، ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل ، ﴿ **هل** ﴾ هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما ير بعدها ، ﴿ **والخصم** ﴾ جماعة المخاصمين ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا . ﴿ **تسوروا** ﴾ أى : أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، ﴿ **والمحراب** ﴾ : الغرفة التى كان يتعبد فيها ويشتغل بطاعة ربه ، ﴿ **والفزع** ﴾ : انقباض ونفار يعترى الانسان من شىء مخيف ، ﴿ **بغى** ﴾ أى : جار وظلم ، ﴿ **لا تشطط** ﴾ أى : لا تبعد عن الحق ولا تجر فى الحكومة ، ﴿ **سواء الصراط** ﴾ أى : وسط الطريق ، ﴿ **النعجة** ﴾ أنثى الضأن ، ﴿ **أكفلينها** ﴾ أى : ملكينها ، ﴿ **وعزنى**[1] ﴾ أي : غلبنى ، ﴿ **فى الخطاب** ﴾ أى : فى مخاطبته إياى ومحاجته ، إذ أتى بحجاج لم استطع رده ، ﴿ **والخلطاء** ﴾ هم المعارف أو الأعوان من بينهم ملابسه شديدة وأمتزاج : واحدهم خليط ، ﴿ **فتناه** ﴾ أى : أبتليناه ، ﴿ **خر** ﴾ أى : سقط ، ﴿ **راكعا** ﴾ ساجدا ، وقد يعبر بالركوع عن السجود . ﴿ **أناب** ﴾ أى : رجع إلى ربه ، ﴿ **الزلفى** ﴾ القرب من الله ، ﴿ **والمآب** ﴾ المرجع ، ﴿ **باطلا** ﴾ أى : عبثا ولعبا ، ﴿ **ويل** ﴾ أى : هلاك ، ﴿ **مبارك** ﴾ أى : كثير

المنافع الدينية والدنيوية ، ﴿ **ليدبروا** ﴾ أى : ليتفكروا ، ﴿ **ليتذكر** ﴾ أى : ليتعظ ، ﴿ **الألباب** ﴾ واحدها لب ، وهو العقل .

## « المناسبة والمعنى الإجمالى »

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على أذى المشركين ـ أردف ذلك ذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم ترغيبا له فى الصبر ، وإيذانا ببلوغه ما يريد كما كان ذلك عاقبة من قبله .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ . يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ـ عليه السلام ـ أنه كان ذا أيد والأيد : القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ الأيد : القوة وقال قتادة : أعطى داود عليه ـ الصلاة والسلام ـ قوة فى العبادةوفقها فى الاسلام ، وثبت فى الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : ( أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أوابا )[1] وهو الرجاع إلى الله ـ عز وجل ـ فى جميع أموره وشئؤونه .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق** ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه إذ مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعا له بالعشى والاشراق .

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كان لا يصلى الضحى قال : فأدخلته على أم هانىء ـ رضى الله عنها ـ فقلت : أخبرى هذا ما أخبرتنى فقالت : ( دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح فى بيتى ثم أمر بماء صب فى قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بينى وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء قريب بعضهن من بعض فخرج ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الصيام ـ ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .
وأنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣ باب صوم داود عليه السلام .

صلاة الضحى إلا الآن )[١] . ﴿ **يسبحن بالعشى والاشراق** ﴾ وكنت أقول اين صلاة الإشراق وكان بعد يقول : صلاة الإشراق . ولهذا قال عز وجل : ﴿ **والطير محشورة** ﴾ أى : محبوسة فى الهواء ﴿ **كل له أواب** ﴾ أى : مطيع ، يسبح تبعا له ، قال سعيد بن جبير ، وقتادة : ومالك ، وعن زيد ، بن أسلم وابن زيد ، ﴿ **كل له أواب** ﴾ أى : مطيع .

وقوله تعالى : ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ أى : جعلنا له ملكا عظيما كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك ، قال ابن ابى نجحيح : قال مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطانا ، وقال السُّدى : كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف ، فمعنى شددنا ملكه أى : قوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكمة** ﴾ قال مجاهد : يعنى : الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه ، وقال السدى : الحكمة والنبوة .

وقوله تعالى : ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ قال شريح القاضى والشعبى : فصل الخطاب : الشهود والأيمان ، وقال قتادة : شاهدات على المدعى أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : والسدى : هو : اصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضا : هو العقل فى الكلام وفى الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد : واختاره ابن جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : أول من قال أما بعد داود عليه السلام وهو فصل الخطاب وكذا قال الشعبى فصل الخطاب أما بعد .

**قوله تعالى : ﴿ وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .**

قال العلامة ابن كثير : ذكر المفسرون ههنا قصة اكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن ابى حاتم حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس رضى الله عنه ، ويزيد وان كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى : أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا . وقوله تعالى : ﴿ **ففزع منهم** ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه وهو أشرف مكان فى داره وكان قد أمر أن لا

(١) وانظر تفسير الطبرى فى تفسير سورة ( ص ) ج ٢٣ ص ٧٨ .

يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أى : احتاطابه ، يسألونه عن شأنهما .

وقوله عز وجل : ﴿ **وعزنى فى الخطاب** ﴾ أى : غلبنى يقال عز يعز إذا قهر وغلب ، وقوله تعالى ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرراكعاوأناب** ﴾ قال ابن عباس : أى : اختبرناه وقوله تعالى ﴿ **وخر راكعا** ﴾ أى : ساجدا ﴿ **وأناب** ﴾ وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ أى : ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الابرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة فى سجدة ﴿ **ص** ﴾ هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنها ليست من عزائم السجود هى سجدة شكر والدليل على ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : فى السجدة فى ص ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يسجد فيها ورواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى فى تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذى : حسن صحيح . وقال النسائى : أيضا عند تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : إن النبى ـ ﷺ ـ سجد فى ص وقال : ( سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ونسجدها شكرا )[1] تفرد بروايته النسائى ورجال اسناده كلهم ثقات .

وعن ابن عباس : رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله ( إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وضع بها عنى وزرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ فرأيت النبى ـ ﷺ ـ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل من كلام الشجرة )[2] رواه الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال البخارى : عند تفسيرها أيضا عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال : سألت ابن عباس ـ رضى الله عنهما من اين سجدت فقال : أو ما تقرأ ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكان داود عليه ـ الصلاة والسلام ـ من أمر نبيكم ـ ﷺ ـ أن يقتدى به فسجدها داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسجدها رسول الله ـ ﷺ ـ .

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى على بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
والحديث فى صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٠ باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها .
وانظر ابو داود فى سنة كتاب الصلاة باب السجود فى ( ص ) ج ٢ ص ١٢٣ رقم ١٤٠٩ وقال أبو داود : انظر النسائى فى الافتتاح باب السجود فى صورة ( ص ) حديث ٩٥٨ .
وفى النسائى فى سننه ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح باب سجود القران السجود فى ( ص ) .

(٢) الحدث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٩ ص ٣٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب ـ ما جاء ما يقول فى سجود القرآن .
وفى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٥٥ فى تفسير سورة ( ص ) .

وقال الإمام أحمد : عن بكر هو ابن عبد الله المزنى أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ رأى رؤيا أنه يكتب ــ ص ــ فلما بلغ إلى الآية التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصها على النبى ــ ﷺ ــ فلم يزل يسجد بها بعد )(١) ، تفرد به أحمد .

وقال أبو داود : عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : ( قرأ رسول الله ــ ﷺ ــ وهو على المنبر ( ص ) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال ــ ﷺ ــ ( إنما هى توبة نبى ولكنى رأيتكم تشرفتم )(٢) فنزل وسجد وتفرد به أبو داود واسناده على شرط الصحيح .

وقوله تعالى ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أى : وإن له يوم القيامة لقربه يقربه الله ــ عز وجل ــ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية فى الجنة لتوبته وعدله التام فى ملكه كما جاء فى الصحيح ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا ) .

قوله تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ هذه وصية من الله ــ عز وجل ــ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده ــ تبارك وتعالى ــ ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبى حاتم : بسنده عن إبراهيم أبو زرعة كان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل فى أمان الله ، قلت : أنت أكرم على الله أو داود ــ عليه الصلاة والسلام ــ إن الله تعالى : جمع له النبوة والخلافة ثم توعده فى كتابه فقال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ الآية . لقد أمر الله نبيه بما أمر به المرسلين من قبل فقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... الآية** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾(٥) وقال

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) انظر سنن ابو داود كتاب الصلاة باب السجود فى ( ص ) ج ٢ ص ١٢٤ رقم ١٤١٠ وذكر أبو داود فى قوله تشرن الناس معناه : قلفنا الناس وفى تفسير ابن كثير معناه : التأهب والتهيؤ للشىء والاستعداد له .

(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٤) الآيتان ٤٩ - ٥٠ من سورة المائدة .

(٥) من الآية ٤٢ من سورة المائدة .

تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين** ﴾ [(١)]

وعن أبى هريرة : رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه )[(٢)] متفق عليه ، وفى الصحيحين ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا )[(٣)].

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة : رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ) قال الترمذى حديث حسن وحذر ـ ﷺ ـ من الظلم والحكم بالهوى فقال ـ ﷺ ـ كما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ( صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى إمام ظلوم ، وكل غال مارق ) ( واخرجه الهيثمى وقال رواه الطبرانى فى الكثير والأوسط ورجال الكبير ثقات ) وأخرج الترمذى ، وأحمد والبيهقى ، من أن سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند إسته )[(٤)] قال الترمذى : حسن صحيح .

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : ( ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة )[(٥)] وعن أبى سعيد الخدرى : أنه ـ ﷺ ـ قال : **أشد الناس عذابا يوم القيامة إمام جائر** )[(٦)] رواه أبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم ( فى الحليه وهو حديث حسن لغيره وقوله تعالى ﴿ **إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ أى : ان الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معالمه لهم من الله العذاب الشديد يوم الحساب لنسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فمن دس نفسه وسلك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العاصين جزاء

---

(١) الآيتان ١٨ - ١٩ من سورة الجاثية .

(٢) انظر فيض القدير بشرح جامع الضعير ج ٤ ص ٨٨ رقم ٤٥ - ٤٦ .

وانظر الامام احمد فى سنده ج ٢ ص ٤٣١ عن ابى هريرة .

(٣) وانظر سند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .

وفى صحيح مسلم كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨ - ١٨٢٧ بلفظ حديث زهير .

(٤) وانظر الطبرانى ج ٨ ص ٣٣٧ رقم ٨٠٧٩ .

(٥) انظر صحيح مسلم باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ج ٣ ص ١٤٦٠ رقم .

(٦) انظر الحلية ج ١ ص ١١٤ رقم ٢٢ .

وفاقا على أعمالهم التى كسبوها بأيديهم . قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما خلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا** ﴾ أى : الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾ أى : ويل لهم يوم القيامة ، يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم . ثم بين سبحانه وتعالى أنه ـ عز وجل ـ من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ أى : لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله وإذا كان الأمر كذلك فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطرة المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت . كذلك ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلابد فى حكمه الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار فتعين أن هناك دارا أخرى لهذا الجزاء والمواساة ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾[3] .

ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى : أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس ، المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، فى دينهم ودنياهم ، الجامع لوجوه المصالح ، ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم ، فاهتدوا بهديه ، وسلكوا فى أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا بمن قبلهم فارعووا عن مخالفته ، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين ويستأصلهم كما استأصل السابقين ، ممن بغوا فى الأرض فسادا وما تدبره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى : قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيعوا

(١) الآيتان ٢١ – ٢٢ من سورة الجاثية .

(٢) الآيتان ٢٨ – ٢٩ من سورة النحل .

(٣) للآيات ١١٥ – ١١٨ من سورة المؤمنون .

حدوده حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه واضاعة حدودة ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، لا أكثر الله فى الناس من مثل هؤلاء .

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه : ( قصص الأنبياء ) عن النبى داود : هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن فحشون بن عويناذب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس .

قال محمد بن اسحق : عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام ـــ قصيرا أزرق العينين ، قليل الشعر طاهر القلب ونقيه ، تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصد أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود ــ عليه السلام ــ وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فأجتمع فى داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1] أى : لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء فى بعض الآثار ( السلطان ظل الله فى أرضه ) . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ( إن الله ليزغ بالسلطان مالا يزغ بالقرآن ) وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : أخرج إلى واخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾[3] أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ **فقدر فى السرد** ﴾ أى : لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد : وقتادة والحكم ، وعكرمة . قال الحسن البصرى : وقتادة ، والأعشى ، كان الله قد آلان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت فى الحديث ( إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده ) .

---

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ١٠ – ١١ من سورة سبأ .

(٣) سورة الأنبياء من الآية ٧٩ – ٨٠ .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد الايد القوة فى الطاعة يعنى : ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح ، قال قتادة : اعطى قوة فى العبادة وفقها فى الاسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : ( أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفتر إذ لاقى )[١] وقوله : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب** ﴾ كما قال : ﴿ **يا جبال أوبى معه والطير** ﴾ أى : سبحى معه قاله ابن عباس : ومجاهد وغير واحد فى تفسير هذه الآية ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾ أى : عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقال الأوزاعى : حدثنى ، عبد الله بن عامر : قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى إن كان الطير والوحش ينكعف حوله حتى يموت عطشا وجوعا وحتى أن الانهار لتقف .

وقال الامام أحمد : عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود )[٢] وهذا من شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور كما قال الامام أحمد : عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ( خفف على داود القراءة فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرأ الزبور من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه )[٣] وكذلك رواه البخارى : منفردا به عن عبد الله بن محمد عن عبد الله الرزاق به ولفظه ( خففه على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل ان تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه )[٤] .

والمراد بالقرآن هنا : الزبور الذى أنزله عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظا فإنه كان ملكا له اتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد قال الله تعالى : ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ **والزبور : كتاب مشهور وذكرنا فى التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل فى شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه . وقوله** ﴿ **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ أى : أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الصيام ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .
وانظر البخارى ج ٢ ص ٥٢ – ٥٣ ( باب ) صوم داود عليه السلام .

(٢) الحديث فى سند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٧ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٤ والبخارى ج ٤ ص ١٩٤ .

(٤) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ – ١٩٥ كتاب بدء الخلق .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنّ رجلين تداعيا إلى داود ـ عليه السلام ـ فى بقر أدعى أحدهما على الأخر أنه أغتصبهما منه فانكر المدعى عليه فأرجا أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن أقتل المدعى فلما أصبح قال له داود : إن الله أوحى إلى أن أقتلك فإنى فاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا قال : والله يا نبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما ، قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ ﴿ **الحكمة** ﴾ النبوة ، ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ قال شريح والشعبى ، وقتادة ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وغيرهم ، ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد ، والسدى ، هو إصابة القضاء وتهمه ، وقال مجاهد : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم واختاره ابن جرير ، وهذا لا ينافى ما روى عن أبى موسى أنه قال ( أما بعد ) وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء فكانت مدورة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان فى حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل إليها فلم تزل كذلك حتى أودع رجلا لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بنى إسرائيل . ثم رفعت سريعا من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من العشرين وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه ﴿ **وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغىَ بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا اكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا ايرادها فى كتابنا قصدا اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وقد اختلف الأئمة فى سجدة ص هل هى من عزائم السجود أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين . قال البخارى : عن العوام قال : سألن مجاهدا عن سجدة ( ص ) فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت قال : أو ما تقرأ ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم ـ ﷺ ـ أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ـ ﷺ ـ وقال الإمام أحمد : عن عكرمة : عن ابن عباس أنه قال : فى السجود فى ( ص ) ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ

يسجد فيها )[١] وقال النسائى : عن ابن عباس أن النبى ــ ﷺ ــ سجد فى ( ص ) وقال : سجدها داود توبه ونسجدها شكرا تفرد به أحمد ورجاله ثقات .

وروى الترمذى وابن ماجة : عن ابن عباس . قال : جاء رجل إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : يا رسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول : وهى ساجدة ( اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخرا وضع عنى بها وزرا واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود وقال ابن عباس : فرأيت النبى ــ ﷺ ــ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل عن الكلام الشجرة )[٢] ثم قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد ذكر بعض المفسرين أنه ــ عليه السلام ــ مكث ساجدا أربعين يوما وقاله مجاهد : والحسن ، وغيرهما ، وورد فى ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية .

قال الله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أى : إن له يوم القيامة لزلفى . وهى : القربة التى يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه يسيعها كما ثبت فى حديث ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهلهم وحكمهم وماولوا )[٣] وقال الإمام أحمد : عن أبى سعيد الخدرى . قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منى مجلسا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر )[٤] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مالك بن دينار فى قوله ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ قال : يقوم داود عليه السلام ــ يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا فيقول : وكيف وقد سلبته فيقول : إنى أرده عليك اليوم قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان . ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد : ولاة الأمور وحطام الناس وأمرهم بالعدل وابقاع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الأراء الأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود ــ عليه السلام ــ هو المقتدى به فى ذلك الوقت فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربان حتى إنه كان لا يمضى ساعة من أناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهارا كما قال تعالى : ﴿ **اعملوا آل**

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وانظر سنن النسائى ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح ــ باب سجود القرآن ــ السجود فى سورة ( ص ) .

(٢) الحديث فى تحفة الأحوذى جامع الترمذى ج ٩ ص ٣٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب ــ ما جاء ــ ما يقول فى سجود القرآن .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الامارة ــ باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ... الخ ج ٢ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ – ١٨ بلفظ حديث زهير .
وسند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .

(٤) انظر سند الامام أحمد ج ٣ ص ٢٢ عن أبى سعيد الخدرى .

**داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾**(١) قال أبو بكر بن أبى الدنيا عن ، أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة داود ـ عليه السلام ـ أنه قال : يارب كيف لى أن اشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك قال : فأتاه الوحى ( أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى قال : بلى يارب قال : فإنى أرضى بذلك منك ) .

وقال البيهقى : عن ابن شهاب قال : قال : داود ( الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة يا داود ) .

وقال عبد الله بن المبارك : عن وهب بن منبه : قال : إن فى حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بينه وبين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، واجمام القلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاث زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشة ، ولذة فى غير محرم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ـ عليه السلام ـ أشياء كثيرة مليحه منها قوله : ( كن ليتيم كالأب الرحيم ، وأعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد ، وروى بسند غريب مضوعاً قال داود : يا زراع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها ، وعن داود ـ عليه السلام ـ أنه قال : مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت ، وقال أيضا ، ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى ، وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال لا تعدن أخاك بمالا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر ، الواقدى حدثنى ، هشام بن سعد ، عن عمر مولى عفرة ، قال : قالت : يهود لما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يتزوج النساء انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا فى النساء ، حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيا مارغب فى النساء ، وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فاكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه ـ صلوات الله عليه ـ وسلامه ـ فقال : **﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾**(٢) يعنى : بالناس رسول الله ـ ﷺ ـ **﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما ﴾**(٣) يعنى : ما أتى الله سبحانه ابن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلثمائة سرية وكانت لداود ـ عليه السلام ـ مائة امرأة منهن امرأة ، أوريا أم سليمان ابن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا اكثر مما لمحمد ـ ﷺ ـ .

---

(١) سورة سبأ من الآية ١٣ .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٤ وانظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) سورة النساء من الآية ٥٤ .

**كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام :**

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ـ فرأى فيهم رجلا يزتقر فقال : أى رب من هذا قال : هذا ابنك داود قال : أى : رب كم عمره قال : ستون عاما قال : أى ربى زد فى عمره قال : لا : إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما فلما انقض عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقى من عمرى أربعون سنه ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فاتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة )[1] رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى وصححه عن أبى هريرة وابن خزيم وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم .

وأما وفاته ـ عليه السلام ـ فقال الأمام أحمد فى سنده : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فاقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت : لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لنتفضحن بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له . داود : من أنت فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع الحجاب فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه ، فما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال : سليمان للطير أظلى على داود فاظلته الطير حتى اظلمت عليه الأرض فقال : سليمان للطير اقبض جناحا قال : قال : أبو هريرة فطفق رسول الله ـ ﷺ ـ يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله ـ ﷺ ـ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية )[2] انفرد باخراجه أحمد وأسناده جيد قوى رجاله ثقات . ومعنى قوله وغلبت عليهن يومئذ المضرحية ، أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحى . قال الجوهرى وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدى : عن ابن مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله .

وقال أبو السكنى الهجرى مات إبراهيم ـ عليه السلام ـ فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أجمعين رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعنى أنزل أو أصعد فقال : يا نبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والارزاق . قال فخر ساجدا على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد .

وإتماما للفائدة نذكر مقالا هاما ذكره الشيخ محمد مصطفى الشاطر فى كتابه ( القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد ) عن قصة داود ورد فيها من إسرائيليات .

---

(١) الحديث فى سند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥١ - ١٥٢ عن رواية ابن عباس .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤١٩ عن أبى هريرة .

قال ما نصه : نسب الكاذبون من اليهود والنصارى فى كتبهم إلى سيدنا داود ـ عليه السلام ـ ما تتألم له النفس وينضر منه السمع فتارة يرمونه بالزنا ، وطورا يرمونه بالغدر والمكر والاحتيال ليستولى على امرأة قائده لانه رآها فى محرابه فأعجبته وشغف بها إلى آخر ما دنسوا به الكتب ، تلقف بعض القصاص هذا الروايات ولم يفحصوا مصدرها وأخذوا يلقونها للعامة فلما علم الامام على ـ كرّم الله وجهه ـ بذلك أعلن بأن من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء فأخذ بعضهم يعدل فيها ، ويلطفوا منها ويقولوا إن شريعة داود كانت تجيز لرجل أن يسأل الأخر عن النزول عن امرأته ليتزوجها إذا أعجبته ، وأن داود فعل ذلك وإنه خطبها منه أو من أبيها ولا أدرى من أين جاء لهؤلاء إن هذا كان جائزا فى شريعة داود عليه السلام .

وقد اندفع مدير مجلة الأزهر فى ملحقة ص ٣٧ وراء هؤلاء فقال : إن داود كان يريد أن يضيف امرأة أحد أتباعه إلى نسائه التسع والتسعين فطلب إلى زوجها أن يتنازل له عنها . وإنى أنصح كل مسلم أن لا يهجم على مقام الأنبياء فينسب إليهم ما يعد ذنبا ، أو هفوة فإنه من أكبر البهتان بل يجب عليه أن ينفيه نفيا باتا إلا إذا كان منصوصا عليه بنص صريح لا يحتمل التأويل ، إنه لا يوجد نص صريح لا من كتاب ولا سنة على أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ كان متزوجا بتسع وتسعين امرأة بل روى عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أنه نفى ذلك بتاتا ( انظر الينسابورى ) .

وإذا علمت أنه لا يوجد نص من كتاب ولا حديث فى تفسير هذه الآيات وليست غامضة المعنى حتى يقال إنها من المتشابهات ، كان لنا أن نفسرها بما ينطبق على اللغة العربية وعادة العرب وما يسيغه لعقل ويشير إليه القرآن الكريم ، هذه الآيات لم تكن مسوقة لبيان ذنب وإنما هى مسوقة للعظة والاعتبار وبيان ما فيها من قواعد عمرانية واجتماعية ونظامية فاسمع أيها الأخ ما أفهمه إن هذه القصة ، ان هذه القصةُ مبنية على أمور ثلاث .

الأول : هل العزلة أفضل أم الاجتماع .

الثانى : هل للمالك أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء ولو مكان مضر بملكه فلا يملك أحد أن يشاركة فى هذا التصرف ولو كان فيه المنفعة .

الثالث : ما هى الصفات التى يجب أن يتصف بها الحاكم والخليفة لينتظم الملك ويتم العدل . مقدمة .

إذا قرأت سورة ( ص ) وجدت أن الله تعالى قد ذكر قبل القصة المذكورة بعضا من صفات داود ـ عليه السلام ـ وشيئا من النعم التى أنعم بها عليه فقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ .

وصفه بالعبودية بقوله تعالى : ﴿ **عبدنا** ﴾ والاضافة هنا للتشريف وهى أشرف أوصاف المخلوقين

ولذلك وصف بها سيدنا محمد ـ ﷺ ـ بقوله ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾[(١)] وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ـ ﷺ ـ إذا ذكر داود تحدث عنه بقوله : كان اعبد البشر ) ( تيسير الوصول ص ٨٦ ج ٢ ) لقد كان يعبد الله تعالى أحب العبادة إليه يدل على ذلك ما جاء عن نبينا محمد ـ ﷺ ـ فى البخارى ( أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما )[(٢)] وقوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ وصف ثان أى : القوة فى العبادة والصلابة فى الحق والدين والشدة على الباغين ، والغلبة على المفسدين اقرأ قصته فى سورة البقرة ، والنمل وسبأ أيضا وانظر تفسير الطبرى .

وقوله ﴿ **إنه أواب** ﴾ وصف ثالث أى : رجاع فى الأمور كلها إلى مرضاة الله تعالى ، لاجىء إليه فى جميع أحواله مستعين به فى جميع شئونه لا يرى لنفسه ولا غيره حولا ولا قوة ولا نصرا ولا نجاة إلا بالله تعالى وهذا أعلى مقام المتوكلين .

وفى المفردات للأصفهانى ، الأواب : هو الرجاع إلى الله تعالى بترك المعاصى وفعل الطاعات ـ وقال بعضهم : الأواب : المسبح وهو تفسير له ببعض أنواعه فإن التسبيح من ضمن أنواع الرجوع إلى ما يرضى الله تعالى ويحبه ، وقال قتادة : كان داود مطيعا لله تعالى ، كثير الصلاة ، ( انظر تفسير الطبرى ) .

هذه الأوصاف الثلاثة منتهى ما يطلب من العبد للرب ، فإذا أفاض الله عليه بعد ذلك بالوصفين الآخرين وهما الحكمة والعلم فقد بلغ المرتبة العليا والمكان الأسمى ، والدرجة التى لا مطمع للبشر إليها ، ولقد أوتى داود عليه السلام العلم والحكمة أما الحكمة فثابتة فى هذه الآية وهو النبوة وأما العلم : ففى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾[(٣)] فهل من كان متصفا بهذه الصفات كثير الصلاة والصيام ، يقوم أكثر الليل ، ويصوم يوما ويفطر يوما ويسبح الله يوم صباح ومساءا قد استغرق أوقاته بعبادة الله تعالى يتفرغ لتسع وتسعين امرأة ثم لم يكفه ذلك فيمد عينه إلى زوجة غيره فيحبها ويحتل على زوجها ليستولى عليها أو يطلبها منه ليكمل زوجاته مائة ، حاشا وكلا وألف كلا . أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أنعم عليه بتسخير الجبال له والطير وحشرها إليه وبقتوية ملكه بقوله ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه** ﴾ ( الآية ) أما كيفية تسخير الجبال والطير له فلم يعرف للآن ، ولكن الآية الكريمة تدلنا على نوع من أنواع هذا التسخير وهو تسبيحها معه بالعشى ( من وقت العصر إلى الليل ) والاشراق : ( وهو الغداة أو وقت الضحى ) .

كان داود ـ عليه السلام ـ يسبح الله فى هذين الوقتين وكان إذا سبح سبحت معه الجبال واجتمعت إليه

---

(١) الآية ١ من سورة الاسراء .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٥ باب احب الصلاة الى الله صلاة داود .

(٣) الآية ١٥ سورة النمل .

الطير فسبحن معه ولذلك قال اكثر المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير** ﴾[1] إن معنى . أوبى : رجعى معه التسبيح ، ولا غرابة فى ذلك فإن الله يقول : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ... الآية** ﴾[2] ويقول حكاية عن سليمان وداود ـ عليهما السلام ـ أو عن الأول فقط على اختلاف بين المفسرين فى ذلك ﴿ **علمنا منطق الطير** ﴾[3] وإن من معجزات نبينا محمد ـ ﷺ ـ تسبيح الحصى فى كفه الشريفة ( انظر حديث انس فى الشفاء للقاضى عياض ) .

وقوله تعالى : ﴿ **كل له اواب** ﴾ يدل على أن الجميع رجاع إلى طاعاته واوامره ، وقال بعضهم : إن المراد بأواب : هنا هو : المسبح كقوله تعالى : ﴿ **أوبى معه** ﴾ أقول إن التسبيح نوع من أنواع الطاعة ثم أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنعم عليه بنعمة ( اجتماعية ) جليلة وهى فصل الخطاب بقوله تعالى ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ أى : فصل المخاصمات وعلم القضاء . وإن من مقتضى هذه النعمة العظيمة أن يبرز للناس ليفصل فى منازعتهم وليفض خصوماتهم . إلا لحبه عبادة ربه حبا شديدا ( كما تقدم ) جعلت نفسه تميل إلى الخلوة ( بربه ) فى المحراب ليقضى فيه بعضا من الأيام بعيدا عما يشغله عن العبادة ـ أن العبادة إذا تمكنت من القلب فإنه لا يعد لها فى الدنيا لذة ولا حلاوة ولا سرور ولا ملك . قال : عليه الصلاة والسلام ـ ( جعلت قرة عينى فى الصلاة )[4] وقال بعض العباد لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة لقاتلونا عليه بالسيوف ( انظر الاحياء للغزالى ) ـ ولذلك ترى كثيرا من العباد المخلصين يفرحون بدخول الليل وبالخلوة وبالبعد عن الناس ليتفرغوا للعبادة وليحظوا بلذة المناجاة ولتنشرح صدورهم وتقر عيونهم فيما يتجلى عليهم من الأنوار ـ والاطمئنان والتجليات . كذلك كان سيدنا داود ـ عليه السلام ـ مالت نفسه إلى الخلوة لعبادة ربه فدخل محرابه وأغلق عليه بابه وانشغل بعبادة الخالق عن النظر فى مصالح الخلق فبينما هو فى محرابه اذ تسوره الخصوم .

## « شرح الآيات »

قال تعالى : ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ الخصم : يطلق على الواحد والاثنين والجمع والتعبير بواو الجمع يدل على أنهم كانوا أكثر من إثنين . قال بعض المفسرين : إن المراد بالخصمين ملكان ويرد عليهم بأنهما لو كانا ملكين فما الداعى الى تسورهما المحراب ولو كانا ملكين لكانا كاذبين فى أخبارهما بقولهما ﴿ **خصمان بغى بعضنا على بعض** ﴾ والملائكة لا يكذبون ، ولو قيل : بأن القصة تمثلية فلا يكون فيها كذب قلنا : هذا غير مسلم به واذا كان الغرض تفهيمه الصواب فإنه يكفى نزول ملك واحد لتفهيمه ، فالخصمان من الرجال بلا شك . أما كونهم أكثر من أثنين فلانه من المحتمل أن يكون معهما

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

(٣) سورة النمل من الآية ١٦

(٤) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٢٨٧ رقم ١٨٩١٢ .

شهودهما ليكون القضاء أمامهم فلا يحصل نزاع فى المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ **تسوروا المحراب** ﴾ أشارة إلى أن داود – عليه السلام – قد ملكه حب التفرغ لعبادة ربه حتى أغلق عليه محرابه وترك الناس بلا قضاء مدة طويله حتى اضطروا إلى التسور ليقضى بينهم فى خصوماتهم . ﴿ **إذ دخلوا على داود ففزع منهم** ﴾ فزع داود كما يفزع الشخص المقيم فى بيته ممن يقتحمون منزله بغير علمه فلما رأوا فزعه ، طمأنوه وقالوا : ﴿ **لا تخف** ﴾ أى : نحن لا نريد شيئا يخيفك ولكنا نريد أن تحكم بيننا وتفصل فى خصومتنا بما من الله عليك من فصل الخطاب ثم شرعوا يقصون عليه خصومتهم فقالوا : ﴿ **خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق** ﴾ أى : بما أوحاه الله إليك لأنه هو الحق الذى لا شك فيه ﴿ **ولا تشطط** ﴾ أى : فإن لم يوجد نص من وحى فاحكم بيننا بما لا يبعد عما فى كتاب الله وهو ما يؤديك إليه اجتهادك واقتباسك من وحى الله . واهدنا إلى سواء السبيل . أى : إن لم يوجد نص فى الحكم أو ما تستنبط منه الحكم فاهدنا إلى الصواب . إما بالصلح أو بالأرشاد إلى ما تراه صوابا وهذا هو الواجب على الحاكم الذى نصب للفصل بين الناس ، عليه أولا أن ينظر إلى نص الشارع ويحكم به ، فإن لم يوجد نص نظر إلى أقرب المقاصد للشارع فلا يتجاوزه فى حكمه . فإن لم يوجد ولم يتوصل إلى أقرب المقاصد لا يقطع بالحكم بل يرشد الخصمين إلى ما يراه صوابا ويصلح بينهما إصلاحا .

ثم أخذوا يشرحون قضيتهم فقال أحدهما : ﴿ **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : اكفلنيها وعزنى فى الخطاب** ﴾ النعمة : واحدة النعاج وهى معروفة ، والكفالة : الضم مع بقاء الملكية أما لو زالت الملكية عن الشىء فلا يكون الضم كفالة بل يكون تملكا . والتعبير بلفظ الكفالة : ينافى زعمهم من أن هذه القصة ضرب مثل لسيدنا داود لأنه تزوج امرأة الغير يزيل ما كان لذلك الغير فيها من حق . والكفالة ليست كذلك الخطاب هنا المخاطبة والحجة ومما يدلك على هذا – أن ذلك اللفظ ذكر قبل نفس السورة دالا على هذا المعنى ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ فقول من قال : إن المراد به : الخطبة قول بعيد ومعنى عزنى فى الخطاب اغلبنى فى الحجة . فالمدعى يعترف بأن حجة المدعى عليه غلبت حجته ولكنه غير مسلم له بأن يضم نعجته إلى نعاجه لأنه مالكها وهو حر فى التصرف فيها فعرضا أمرهما على داود ليفصل بينهما – لم يبين الله تعالى لنا تلك الحجة نصا وترك بيانها لافهام القارئين ، يفهمونها حسب ما تصل إليه عقولهم وعلومهم فيصح أن نفهم أن من ضمن الحجة أن وجودها مع النعاج الكثيرة خير له ولنعجته فإنها إذا كانت مع نعاج كثيرة فإنها تأتنس بها ويكثر درها وتأتى بنتاج كثير ، أما اذا كانت وحدها فإنها تسأم ويقل خيرها وتعدم نتاجها . فلما شرحا له دعواهما قضى لمن له النعجة الواحدة بقوله ﴿ **لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** ﴾ باينا هذا الحكم على ما هو معروف من إحدى النظريات التشريعية من أن مالك الشىء له أن يتصرف فى ملكه كيف شاء ولا يجيز على إعطائه لغيره ولو كان فى ذلك الإعطاء إنماء لملكه أو رفع ضرر عنه ، وإنما اختار هذه النظرية دون النظرية الأخرى القاضية بأن المصلحة العامة تقضى بتقييد حرية المالك فى التصرف فى ملكه – لكثرة الباغين من الشركاء بعضهم على بعض إلا القليل إذ لا يصح بناء قواعد الأحكام على ذلك القليل بل ينظر فيها إلى الكثير – وأن التعبير بلفظ ( الخلطاء ) يدل

على أن موضوع النزاع بينهما هو طلب الشركة فى النعاج ولو كان المراد بالقصة : ضرب مثل لسيدنا داود لما كان للفظ ( الخلطاء ) هنا موضع لأن ضم امرأة الغير إلى نفسه لا يسمى شركة بينه وبين ذلك الغير ، وأيضا فإن البقعة التى كان فيها سيدنا داود كانت مشهورة بكثرة الغنم ورعيها والشركة فيها ولا زالت كذلك للآن .

ثم قال تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه** ﴾ الفتنة : التمحيص أو الابتلاء ـ لم يبين الله لنا ما هى الفتنة التى ظن داود ـ عليه السلام ـ أن الله فتنه بها . ولكن المتأمل فى القصة يتبين له أن هذه الفتنة هو حبه الخلوة للعبادة والعزلة عن الخلق حتى انصرف عنهم فدخل محرابه وأغلقه عليه طويلا حتى اضطروا إلى تسورة ليفض نزاعهم ويحل مشاكلهم أو أنه استلذ بالعبادة حتى انشغل بها عن العباد وهم فى حاجة إليه لما أوتى من فصل الخطاب ـ إن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ليعتبرون بالحوادث أكثر من غيرهم .

وهذه القضية وإن كانت حقيقة ( لا ضرب مثل ) إلا أن ذهنه الثابت استنبط منها مالا يستنبطه غيره فاستنتج منها أن اختلاط الشخص بالناس مستوجب للمنفعة العامة والخير الكثير بخلاف العزلة واستنتج منها أن المنفعة العامة راجحة على المنفعة الخاصة وأكثر منها ثوابا ، وأن شغفه بالعبادة ﴿ **مع ما آتاه الله من فصل الخطاب** ﴾ كان ابتلاء ومفوتا لهذه الفوائد التى يجنيها المجتمع منه ، واستنتج أيضا من تسور الخصوم للمحراب اضطرار الناس إلى التقاضى وفق الخصومات الكثيرة بينهم وأنه كان الأولى به أن يكون بابه مفتوحا لهم غير محتجب عنهم حتى لا تلجئهم المنازعات إلى تسور الحيطان أو التمادى فى الشقاق والنزاع . واستنتج أيضا أن كثرة الخصومات تستدعى الجلوس طويلا من الزمان ظاهرا بين الناس .

كل هذا يصح أن يكون سببا لظن داود أن الله ابتلاه بحب العزلة للعبادة وأن هذه الحادثة كانت وسيلة لتمحيص حالته وبيان ما هو الأولى والأليق بمن جعله الله خليفة فى الأرض . ﴿ **فاستغفر ربه** ﴾ مما ظنه فتنه وهو فعله ما يخالف الأولى به ، ﴿ **وخر راكعا** ﴾ تقربا الى الله تعالى وشكرا إذا أرشده ونبهه بهذه الحادثة إلى ما هو الأولى به وإنما قلنا شكرا لأن العادة أن الإنسان إنما يسجد للشكر والتقرب ـ وأناب ـ أى : رجع إلى ما هو الأجدر بمقامه فجازاه الله على الاستغفار بالغفران وعلى الشكر بالزلفى وعلى الرجوع إلى الأولى بمقامه بحسن العاقبة والمآب بقوله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض** ﴾ أى : ومن شأن الخليفة أن يباشر مصالح الناس وحوائجهم وأقضيتهم لا أن يتركهم ويدخل المحراب .

ثم وصاه بأن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى إتباع الهوى مضل عن سبيل الله بقوله تعالى : ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ وهذه الوصية تشابه وصية الله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ـ ﷺ ـ بقوله ﴿ **وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾[1] فهى توصية تثبيت وارشاد وتهييج وتنبيه

(١) الآية ٤٩ من سورة المائدة .

( ليس غير ) . إلى بيان أن يكون عليه الحاكم مطلقا وهو ما يأتى :

أولا : أن يحكم بالحق وهو ما شرعه الله .

ثانيا : والا يتبع الهوى سواء كان هواه أو هوى الناس بل يتبع الصواب وما يقتضيه روح الدين عند تطبيق الحوادث على النص أو معاملة الخصوم .

ثالثا : أن يعلم الحاكم أن هناك يوما للحساب وأن يتذكر دائما وهو يحكم أن الله سيحاسبه على حكمه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا صاحب ولا شفيع .

بهذا ينتظم الملك ويستتب الأمن وتعمر البلدان ، فإنه العدل أساس الملك فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لوقوع ذنب من نبى ( حاشا ) وإنما سيقت لبيان هذه الحكم الجليلة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

## « قصص سليمان ـ عليه السلام »

قال تعالى :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **الصافنات.** ﴾: الصافن من الخيل : الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها ،

﴿ **والجياد** ﴾ : واحدها جواد ، وهو : السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد : ﴿ **والخير** ﴾ هنا : الخيل ﴿ **توارت** ﴾ أى : غيبت عن البصر ، ﴿ **طفق** ﴾ : شرع : ﴿ **المسح** ﴾ : امرار اليد على الجسم . ﴿ **لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾ أى : لا ينتقل منى إلى غيرى ، ﴿ **رخاء** ﴾ أى : لينة ، ﴿ **أصاب** ﴾ أى : قصد وأراء ، ﴿ **مقرنين** ﴾ أى : مربوطين ، ﴿ **الأصفاد** ﴾ واحدها : صفد ﴿ **بالتحريك** ﴾ وهو : الغل الذى يجمع اليدين إلى العنق ، ﴿ **والزلفى** ﴾ الكرامة ، ﴿ **المآب** ﴾ : المرجع .

## « المعنى الاجمالى »

**قوله تعالى** : ﴿ **ووهبنا لداود سليمان** ﴾ أى : وآتينا داود ابنا يسمى سليمان ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ . ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى : ما أحقه بالمدح والثناء لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والانابة إلى ربه فى أكثر الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، أعتقادا منه بأن كل شىء من الخير لا يتم إلا باعانته وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله تستحق الاطراء والثناء فقال : ﴿ **إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد** ﴾ أى : امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار لينظر إليها ويتعرف أحوالها ، ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره . وقد وصفها بالصفوف والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها ، وقيل وصفها : بالصفون لأنه لا يكون فى الهجن ، بل يكون فى العراب الخلص .

قوله تعالى : ﴿ **فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى** ﴾ قد يحب الإنسان شيئا وهو يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذى يشتهى ما يزيل مرضه ، الوالد الذى يحب ولده السىء والسيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان ــ عليه السلام ــ يقول : إنى أحب حبى لهذه الخيل وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربى وأمره لا عن الشهوة والهوى . وقوله تعالى : ﴿ **حتى توارت بالحجاب** ﴾ أى : حتى غابت عنى بسبب العثير المتطاير من سنابكها . فالمراد : أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة ﴿ **إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى** ﴾ ومازال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهه ، ولبعد المسافة من جهة أخرى . وبعد أن اطمأن الى حالها ، وحمد جميل أمرها قال : ﴿ **ردوها على** ﴾ فقد كفى ما قامت به من حضر دلت به على نجابتها وفراصتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات ، وفيها

الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات من غزو وغيره .

ولما أرتاح إليها وسر بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد ـ أظهر استحسانه لها ولفرسانها . ﴿ **فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ أى : فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه ، إذ هى أعظم الأعوان ، فى دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها ، وأنها خلو من الأمراض التى قد تعوقها من عملها حين البأساء .

والخلاصة : أن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر باحضارها واجرائها أمامه ، وقال : إنى ما احببتها للدنيا ، وإنما احببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره أمر راكضيها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها ، سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

يراعى الشيخ المراغى ـ رحمه الله تعالى ـ فى هذه القصة أن الفتنة كانت بسبب مرض عضال فى جسده صار ملقى على كرسيه ، لشدة وطأته عليه ( والعرب تقول فى الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ) ثم رجع بعد ، إلى حالة الأولى ، واستقامت له الأمور كما كان .

﴿ **قال رب اغفر لى** ﴾ طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن هذا فى مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام ( إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة )[1] .

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة أخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب أ هـ .

ويقول صاحب التفسير الواضح رحمه الله تعالى ـ فى هذه القصة ﴿ **ولقد فتنا سليمان** ﴾ فتنة الله أعلم بها ، وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، وهذه الفتنة تكلم فيها القصاص والاسرائيليون كثيرا ، والذى نختاره

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٧ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ – ٢٧٠٢

ما ذكره أئمة التفسير المحققون من أمثال أبى السعود والفخر والألوسى وغيرهم من أفاضل العلماء ، وكان مرجع أرائهم إلى القول بعصمة الأنبياء ، ومنع تمثل الشيطان بهم ، وغلق باب زعزعة الناس فى معتقداتهم ، وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان عليه السلام ماروى مرفوعا إلى النبى ــ ﷺ ــ أنه قال ( لأطرفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل ( إن شاء الله ) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين )[1] .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين البخارى ومسلم ، تلك هى فتنة سليمان كما وردت فى الحديث ، وأما إلقاؤه على كرسيه جسدا فلأنه حين الفتنة كان يجلس على كرسى الحكم جسدا لاروح فيه لأنه لما لم يقل : إن شاء الله ، كأنه ارتكب ذنبا فصار جسدا ثم تاب وأناب .

وأما قوله سليمان ﴿ **رب اغفر لى** ﴾ فليس يصح أن يكون هذا دليلا على صدور الزلة منه كما قال القصاص مستندين إلى أن طلب المغفرة يدل على سبق الذنب .

فالانسان ولو كان نبيا لاينفك عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ألم تر إلى قول النبى ــ ﷺ ــ ( إنى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة )[2] .

وانظر إلى سليمان ، وقد طلب المغفرة من الله قبل طلبه الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده فهذا دليل على أن طلب المغفرة والرجوع إلى الله سبيل وطريق إلى السعادة فى الدنيا والأخرة ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[3] .

ولقد طلب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فسخر له ربه الريح حالة كونها جارية بأمره ، لينة لا تعب معها ، وإن كانت فى الأصل عاصفة قوية فهى رخاء لينة تجرى بأمره حيث أراد . وسخر الشياطين له تعمل تحت أمره من كل بناء وغواص تغوص فى البحار لاستخراج الدر منها والأصداف ، وآخرين منهم مقرنين فى الأصفاد والقيود خاضعين لأمره ، عاملين تحت إذنه .

هذا ــ والأشارة إلى ما تقدم من إعطاء المُلك الواسع ، والتسليط على الرياح والجن والشياطين ــ عطاؤنا الخاص بك فاعط من تشاء ، وامنع ممن تشاء غير محاسب على ذلك يوم القيامة .

وإن لسليمان عند ربه لزلفى وقربة وكرامة وحسنى ، وله حسن مآب ومرجع فى الجنة ، وأن ختام القصة

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ — ٢٧٠٢ .

(٣) سورة نوح الآيات ١٠ — ١١ — ١٢ .

بهذا الدليل على أن كل ما قيل عن سليمان مما هو ثابت فى كتب أهل الكتاب أو عند قصاص الأخبار من المسلمين خرافة و أكاذيب لا تليق بمركز النبوة والله أعلم .

## « تعقيب على دعوة سليمان »

دعا سليمان ربه فقال ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** ﴾ أى لا ينبغى لأحد من البشر يأتى من بعدى ، وقد جاءت الأحاديث مصرحة بذلك .

روى البخارى ـ رضى الله عنه ـ لسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال ( إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾[1] قال روح فرده خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبه به .

وقال مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الرداء ـ رضى الله عنه ـ قال قام رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى فسمعناه يقول ( أعوذ بالله منك ـ ثم قال ـ ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال ـ ﷺ ـ إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة )[2] .

وقال أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال ( لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى ، وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين الابهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل )[3] .

قوله تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ أى سهلة الأنقياد ، حيث أراد من البلاد ، ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص** ﴾ أى منهم ما هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللألى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : ووهبنا لداود سليمان .
الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة رقم ٣٩ – ٥٤١ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة . رقم ٤٠ – ٥٤٢ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٨١ ، ٨٢ مسند أبو سعيد الخدرى

﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ أى موثوقون فى الأغلال والأكبال ممن قد تمردوعصىوامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى ضيق واعتدى .

وقوله عز وجل ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ .

أى هذا الذى أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك . أى مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ لما خير بين أن يكون عبدا رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم بين الناس كما أمره الله ـــ تعالى به ـــ وبين أن يكون نبيا ملكا يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح أختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له تواضع فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدرا عند الله عز وجل وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا فقال تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أى فى الدار الأخرة .

## اضواء كاشفة »

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه ( قصص الأنبياء ) عن النبى سليمان :

قال الحافظ بن عساكر : هو سليمان بن داود ، بن ايشا بن عويد ، بن عابر ، ابن سلمون ، بن نحشون ، بن عمنيا بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم أبى الربيع نبى الله من نبى الله .

قال الله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ، وقال يأأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ﴾(١) .

أى ورثة فى النبوة والملك وليس المراد ورثة فى المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال ( لا تورث ما تركناه فهو صدقة )(٢) فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباؤهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم .

---

(١) سورة النمل آية ١٦ .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٥ باب فضائل الصحابة باب مناقب قرابة الرسول .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٧٧ - ١٣٧٨ كتاب الجهاد والسير .
باب حكم الفيىء . قرم ٤٩ - ١٧٥٧ .

وقال ﴿ **يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وارادتها .

﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾[1] .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما السلام أنه ركب يوما فى جيشه جمعية من الجن والإنس والطير يسير ون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أى نقباء يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد من موضعه الذى يسير فيه ، ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : ﴿ **حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ .

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها بالرأى السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار ، والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن فى هذا أيضا فائدة يعول عليها ، ولهذا قال ﴿ **رب أوزعنى** ﴾ أى ألهمنى وأرشدنى ﴿ **أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾[2] .

فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر له العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود ــ عليه السلام ــ وأمه وكانت من العابدات الصالحات . كما قال سنيد بن داود عن

(١) سورة النمل الآيات ١٧ – ١٨ – ١٩ .

(٢) سورة النمل آية ١٩ .

يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى ـ ﷺ ـ قال ( قالت أم سليمان بن داود يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة )[1] .

رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرازق عن معمر عن الزهدى أن سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ خرج وهو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها )[2] .

وقال السدى أصاب الناس قحط على عهد سليمان ـ عليه السلام ـ فأمر الناس فخرجوا فإذا نملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهى تقول ( اللهم إنا خلق من خلقك ولاغنا بنا عن فضلك ) قال فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعد بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ؟ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما أتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾[3] .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجىء فينظر لهم هل هذه البقاع من ماء وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان ـ عليه السلام ـ ذات يوم فقده ولم يجده فى

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٢٢ كتاب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٢ . باب ما جاء فى قيام الليل .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٥٩ تفسير سورة النمل . ( تفسير قوله تعالى : حتى إذا أتوا على وادى النما... ) الآية .

(٣) سورة النمل الآيات ٢١ — ٣٧

موضعه من محل خدمته ﴿ **فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ أى ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ توعده بنوع من العذاب ﴿ **أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ أى بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أى فغاب الهدهد غيبه .. ليست بطويلة ثم قدم منها ( فقال ) لسليمان ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ أى اطلعت على مالم تطلع عليه ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ أى بخبر صادق ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم** ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين . وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال ( لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة )[1] رواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح ﴿ **وأوتيت من كل شىء** ﴾ أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ، ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ يعنى سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلى والذهب والحلى الباهر ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله ، واضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾[2] أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات .

فعند ذلك أرسل معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة رسلوله والانابة والاذعان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم ﴿ **ألا تعلوا على** ﴾ أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى ﴿ **وأتونى مسلمين** ﴾ أى أقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تلك كانت مع طائر سامع مطيع ، فاهم ، عالم بما يقول له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ **قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولا : ﴿ **إنه من سليمان** ﴾ ثم قرأته ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** ﴾ نعم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يستمعون ﴿ **قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ تعنى ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون ﴿ **قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاء والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ومع هذا ﴿ **الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٠ باب كتاب النبى ــ ﷺ ــ إلى كسرى وقيصر .

(٢) سورة النمل الآية ٢٦

عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها فى ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف ، ولا يخادع . ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾ تقول رأيها السديد ان هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا على . ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان ــ عليه السلام ــ لا يقبل منهم ، والحالة هذه ، صرفا ولا عدلا ــ ﷺ ــ لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون ، ولهذا ﴿ **لما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون ، ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ يقول ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قدمن بها فإن عندى مما قد أنعم الله على واسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة . ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار،فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم إليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن ﴿ **قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها أدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[1] .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ يعنى قبل أن ينقض مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب من الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ أى وإنى لذو قدرة على احضارى إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسه لديك ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ المشهور أنه أصف بن برخيا وهو ابن خالة

(١) سورة النمل الآيات من ٣٨ – ٤٤ .

سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بنى إسرائيل ، من علمائهم ، وقيل إنه سليمان ــ وهذا غريب جدا ــ وضعفه السهيلى بأنه لا يصح فى سياق الكلام ، قال . وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقيل معناه قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس ، وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك ، وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل . ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ أى فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ﴿ **قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ أى أنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ **ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ أى غنى عن شكر الشاكر ، وتضرر بكفر الكافرين ، ثم أمر سليمان ــ عليه السلام ــ أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال ﴿ **ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو** ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها .

لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى اخبارا عن سليمان وقومه ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ أى ومنعها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله اتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ .

وقد قال تعالى فى سورة ( ص ) ﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق ، ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص : وأخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان ــ عليهما السلام ــ ثم أثنى الله عليه تعالى فقال ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى رجاع مطيع لله .

ثم ذكر ما كان من أمره فى الخيل الصافنات وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . والجياد : وهى المعتمرة السراع ﴿ **فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب** ﴾ يعنى الشمس . وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين .

﴿ **ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف ، وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الأخر . وهذا القول اختاره ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذى قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغا فى ملتهم .

وقوله تعالى ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب** ﴾ ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا أثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الاسرائيليات وفى كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير ، واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة .

وقوله تعالى : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ .

وقد ذكر القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم ( كرم ) فنفشت فيه غنم قوم آخرين . أى رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم ـ العنب ـ بقيمته فلما خرجوا على سليمان . قال : بما حكم لكم نبى الله ؟ فقالوا بكذا وكذا : فقال أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه الى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود ـ عليه السلام ـ ذلك فحكم به وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا فى الأمر . فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان قال أئتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها )[1] ولعل كلا من الحكمين كان سائغا فى شريعتهم . ولكن ما قاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه أياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال ﴿ **وكلا آتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ .

ثم قال لسليمان ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة** ﴾ أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ **تجرى بأمره إلى**

---

الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٩ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٤٤ - ١٣٤٥ كتاب الأقضية باب اختلاف المجتهدين رقم ٢٠ - ١٧٢٠ .

**الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾**[1] .

وقال فى سورة ( ص ) ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيرا ، وأقول وأعظم ، ولا كلفة عليه لها ، تجرى بأمره رخاء ﴿ **حيث أصاب** ﴾ أى حيث أراد من أى البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب بحيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة ، والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات ، والطيور ، فإذا أراد سفرا أو مستترها أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله مشاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته فى أى مكان شاء ، بحيث أنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر ، مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس . كما قال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . أعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾**[2] .

قال الحسن البصرى كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغذى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر ، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، قلت تذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر ، وبيت المقدس ، وباب جبرون ، وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال .

وأما ( يقطر ) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد هو النحاس قال قتادة وكان باليمن انبعها الله له ، قال السدى ثلاث أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

وقوله ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير** ﴾ أى وسخر الله له من الجن عما لا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به .

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٨١ — ٨٢ .

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٢ — ١٣ .

﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾ وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ **وتماثيل** ﴾ وهى الصور فى الجدران وكان هذا سائغا فى شريعتهم وملتهم . ﴿ **وجفان كالجواب** ﴾ قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ، وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الأعشى :

تروح على آل المحلـــق جفنـــة ... كجابيـــة الشيـــخ العـــراقى يفهـــق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافيها منها يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى ﴿ **اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص وأخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لا ستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلى وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله ﴿ **وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ أى قد قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود .

هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، ولم يكن أيضا لمن كان قبله .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال ( إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ **رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾[1] فرددته خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائى عن أبى الدرداء قال قام رسول الله ـ ﷺ ـ فصلى فسمعناه يقول ( أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة )[2] .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ، سبعمائة بمهور ، وثلثمائة سرارى . وقيل بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الاماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا ، عظيما جدا قال البخارى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال ( قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .
انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى الصلاة.رقم ٣٩ - ٥٤١ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن شيطان . رقم ٤٠ - ٥٤٢

سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه ، إن شاء الله ، فلم يقل فلم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي — ﷺ — لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله ) تفرد به البخارى من هذا الوجه[1] .

وقال أحمد عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ولم يستثن فما ولدت الا واحدة منهن بشق انسان . قال — قال : رسول الله — ﷺ — لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل فى سبيل الله — عز وجل — تفرد به أحمد أيضا[2] .

وقد كان له — عليه السلام — من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها مالم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحدا بعده كما قال ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ وقال ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** ﴾ وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ أى أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك ، أى تصرف فى المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يعطى أحدا ولا يمنع أحدا إلا بإذن الله له فى ذلك ، وقد خير نبينا محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدا رسولا .

وفى بعض الروايات إنه استشار جبريل فى ذلك فأشار عليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبدا رسولا صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فالله الحمد والمنة .

ولما تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له فى الأخرة من الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم ، والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول الله ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

## « وفاته ومدة ملكه وحياته »

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين** ﴾[3] .

قال أبو داود فى كتاب القدر عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود — عليهما السلام — لملك الموت إذا

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٢٩ مسند أبى هريرة .

(١) سورة سبأ آية ١٤

أردت أن تقبض روحى فأعلمنى . قال : ما أنا أعلم بذاك منك إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت وقال اصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بى فأعلمنى فأتاه فقال يا سليمان قد أمرتِ بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى ، قال فبعث الله دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك إنفضوا وذهبوا فذلك قوله ﴿ **مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين** ﴾[١] قال اصبغ وبلغنى من غيره أنها مكثت سنة تأكل فى منسأته حتى خر ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم .

قال اسحق بن بشر عن محمد ابن اسحق عن الزهرى وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقال اسحق أنبأنا أبو ورق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم . وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفا وخمسين سنة وفى سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ملك بعده ابنه مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل . أ . هـ .

## « قصص أيوب عليه السلام »

قال تعالى :

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

---

(١) سورة سبأ آية رقم ١٤ .

النصب

## « تفسير المفردات »

( أيوب ) : هو أيوب بن أموص بن أردم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قال بن جرير . ( النقب ) ( بضم فسكون ) والنقب ( بفتحتين ) : كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، ( عذاب ) : أى ألم مضر كما جاء فى قوله : ﴿ أنى مسنى الضر ﴾ ، ﴿ أركض برجلك ﴾ : أى أضرب بها على الأرض ، ﴿ مغتسل ﴾ : أى ماء تغتسل به وتشرب منه ، ﴿ الضغث ﴾ : الحزمة الصغيرة من الكلأ والريحان ، ( ويقال حنث فى يمينه ) إذا لم يفعل مات حلف به .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ .

قال الشيخ المراغى فى تفسير هذه القصة : أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضاع الولد . ومن حديث مس الشيطان له ماروى ـ إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فابتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ، فصبر على ما أصابه من أذى وما ناله من ألم ممضى ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ، ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكنا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه لأن ذلك شرط من شروط النبوة ، كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء .

**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ أى حرك الأرض برجلك واضربها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب ، فتبرأ مما أنت فيه من المرض . وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالاكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد ، كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد بالشرب أيضا كما ترى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوروبا ومصر وغيرها واستعملت مشاتى ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى ، وسويسرا ، وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب ـ ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وكما دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجاب دعاءه فى أهله وولده فقال :

﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى وجمعنا له أهله بعد التفرق والتشتت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة لتعتبر وتعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه فى تحلة يمينه فقال :

﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ أى وخذ حزمة من ريحان أو كلأ فاضرب بها ـ فيكون ذلك تحله ليمينك التى حلفتها والكتاب لم يبين لما علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواه أنه حلف على زوجه ( رحمه بنت إفرائيم ) وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربها إن برىء مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر فى يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفى هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأناب إليه ، ولهذا قال عز اسمه :

﴿ **إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى أنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه فى النفس والأهل والمال من أذى ، فجازيناه بما فرج كربته ، وأذهب لوعته ، وليس فى الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، وليس فيه شىء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم أكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان .

ويقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآيات :

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما كان ابتلاه به من الضر فى جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليم سوى قلبه ، ولم يبق من الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله . فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك فقال كما حكى ربنا تبارك اسمه : ﴿ **إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

**وفى هذه الآية الكريمة قال** : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ قيل بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ، فأنبع الله تعالى عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ، ولهذا قال تبارك وتعالى :

﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ .

وقال الامام أحمد عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحثو فى ثوبه فناداه ربه عز وجل يا أيوب ألم اكن غنيتك عما ترى قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلى ، يارب ولكن لاغنى بى عن بركتك )[1] إنفرد باخراجه البخارى من حديث عبد الرازق به ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ قال حسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم وقوله عز وجل ﴿ **رحمة منا** ﴾ أى به على صبره وثباته وتواضعه ، واستكانته . ﴿ **وذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى لذوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله جلت عظمته ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ وذلك أن أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد غضب على زوجته ووجد عليها فى أمر فعلته ، قبل باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤهما مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[2] .

ولهذا قال جل جلاله ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ .

**أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه** ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى رجاع منيب . واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ .

على سائل فى الأيمان وغيرها ، وقد أخذوها بمقتضاها والله أعلم بالصواب .

## أضواء كاشفة

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه ( قصص الأنبياء ) عن النبى أيوب :

قال ابن اسحق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موصى بن زراح بن العيص ابن اسحق بن ابراهيم الخليل . وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل ابن العيص بن اسحق بن يعقوب وقيل غير ذلك فى نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ـ عليه السلام ـ وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم ـ عليه السلام ـ يوم ألقى فى النار فلم تحرقه والمشهور لأنه من ذرية ابراهيم كما قررنا عند قوله تعالى ﴿ **ومن ذريته داود**

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر .
(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢ – ٣ .

**وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ﴾** الآيات من الصحيح الضمير عائد إلى إبراهيم دون نوح عليه السلام وقال تعالى : **﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ﴾**[1] الآية فهو من الأنبياء المنصوص على الايحاء اليهم .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن اسحق وامرأته قبل اسمها ليا بنت يعقوب ، وقيل رحمة بنت أفرائيم وقيل منشا بن يوسف ابن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا ثم نعطف بذكر أنبياء بنى اسرائيل بعد قصته إن شاء الله . قال الله تعالى : **﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾**[2] .

وقال تعالى فى سورة ( ص ) :

**﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾** .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض البثينة من أرض حدران .

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه . يذكر الله تعالى عز وجل بها وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليلة ونهاره وصباحه ومسائه .. ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته وضعف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأموره ــ رضى الله عنها وأرضاها ــ وهى صابرة على ما حل بها من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : ( أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه )[3] ولم يزد هذا كله أيوب ــ عليه السلام ــ إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره ــ عليه السلام ــ ويضرب المثل بما حصل له من أنواع البلايا .

وقال ابن ابى حاتم وابن جرير عن أنس بن مالك أن النبى ــ ﷺ ــ قال ( إن نبى الله أيوب لبث به

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣

(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٣ – ٨٤

(٣) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ١١١ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من أخوانه كانا من أخص أخواته له كان يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وماذاك قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا إليه فلم يصبر الرجل حتى ذكر له ، قال أيوب لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق . قال وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم ابطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه ﴿ **أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء .

وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فو الله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك اذ كان صحيحا قال فإنى أنا هو قال وكان له اندران ، اندر للقمح واندر للشعير ، فبعث الله سحابتين فلما كانت احداهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وافرغت الأخرى فى اندر الشعير الورق حتى فاض )[1] هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامة ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبه عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جدا . والأشبه أن يكون موقوفا .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه . أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ لما عافى الله أيوب ــ عليه السلام ــ أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع . قال يارب ومن يشبع من رحمتك .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل ﴿ **يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى . قال بلى يارب ولكن لاغنى لى عن بركتك** ﴾ .

رواه البخارى من حديث عبد الرازق به[2] .

وقوله ﴿ **أركض برجلك** ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان بجسده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهرا وباطنا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى ﴿ **وأتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾

---

(١) أنظر تفسير ابن جرير الطبرى ج ٢٣ ص ٩٦ تفسير سورة ص .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذا نادى ربه .

الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٣١٤ مسند أبى هريرة .

فقيل أحياهم الله بأعيانهم . وقيل أجره فيمن سلف وعوضه عنهم فى الدنيا بذلهم ورحمه له شمله بكلهم فى الدار الأخرة . وقوله تعالى ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ أى رفعنا عنه شدته ﴿ **وكشفنا مابه من ضر** ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانا ﴿ **وذكرى للعابدين** ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبى الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

وقوله ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب ـ عليه السلام ـ فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عرضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فاخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعنكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة ـ رضى الله عنها ـ ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ وقد أستعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور وتوسع أخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان وصدوره بهذه الآية الكريمة . وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكر طرفا من ذلك فى كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة . وقيل إنه عاش أكثر من ذلك .

وقد روى لبث عن مجاهد مامعناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان ـ عليه السلام ـ على الأغنياء ، وبيوسف ـ عليه السلام ـ على الأرقاء ، وبأيوب ـ عليه السلام ـ على أهل البلاء . رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات إبنه هذا وكان نبيا فيما يزعمون وكان عمره من الستين خمسا وسبعين . أنتهى .

وإتماما للفائدة نذكر ما قاله صاحب كتاب ( روائع البيان ) .

بشأن هذه القصة تحت عنوان « موقف الشريعة من الجبل » .

قال الله تعالى :

**﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .**

## « التحليل اللفظى »

( نصب ) النصب : بضم النون وسكون العباد بمعنى التعب كالنصب .

قال الفراء : هما كالرشد والرشد . والحزن والحزن معناها واحد .

وقال فى اللسان : والنصب ، والنصب والنصب : الداء والبلاء والشر ، والنصب : الإعياء من العناء ، وفى التنزيل ( لا يمسهم فيها نصب ) أى تعب .

وقال أبو عبيدة : النصب : الشر والبلاء ، والنصب : التعب والاعياء . والمراد فى الآية : مرض أيوب وما كان يقاسيه من أنواع البلاء فى جسده ( الركض ) الركض : الدفع بالرجل : يقال ركض الدابة إذا ضربها برجله لتعدو ، وقال المبرد : الركض التحريك والضرب ، ولهذا قال الأصمعى : يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هى ، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك .

والمراد فى الأية : أضرب الأرض برجلك ينبع الماء فتغتسل وتشرب منه .

( مغتسل ) المغتسل الماء الذى يغتسل به ، وقيل : الموضع الذى يغتسل فيه ، والصحيح الأول .

( ضغثا ) الضغث فى أصل اللغة : الشيء المختلط ومنه ( أضغاث أحلام ) للرؤيا المختلطة .

قال فى اللسان : الضغث : قبضة من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد مثل الأسل والكراث .

وقيل : هى الحزمة من الحشيش ، مختلطة الرطب باليآس .

وقال ابن عباس : هو عثكال النخل الجامع بشماريخه . أى عنقود النخل المتفرع الأغصان .

والمعنى : أمره الله أن يأخذ حزمة من العيدان فيها مائة عود ، ويضربها ضربة ، ليبر فى يمينه ولا يحنث فيها .

( تحنث ) : الحنث : الخلف فى اليمين ، يقال حنث فى يمينه ، يحنث اذا لم يبر بها .

قال فى اللسان : الحنث فى اليمين : نقضها والنكث فيها ، وهو من الحنث بمعنى الاثم وفى الحديث ( اليمين حنث أو مندمة )[1] .

ومعناه : إما أن يندم على ما حلف عليه ، أو يحنث فتلزمه الكفارة .

والحنث : الذنب العظيم ، وفى التنزيل ﴿ **وكانوا يصرون على الحنث العظيم** ﴾[2] .

﴿ **أواب** ﴾ : الأواب : الرجوع ، والأواب : التواب . الرجاع ، الذى يرجع إلى التوبة والطاعة ، ويرجع إلى الله فى جميع أموره وهى صيغ المبالغة مثل ( ظلام ) ( قتال ) .

## « المعنى الجملى »

اذكر يا محمد لقومك قصة عبدنا ( أيوب ) إذ نادى ربه مستغيثا به ، ضارعا إليه . فيما نزل به من

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٦٨٠ باب اليمن حنث أو ندم رقم ٢١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة آية ٤٦ .

البلاء . راجيا أن يكشف الله عنه الضر حيث قال : رب إنى أصبت ببلاء وشدة وتعب وضنى وأنت أرحم الراحمين ، ورب المستضعفين ... فاستجاب الله الحليم الكريم دعاءه ـ وكشف عنه شدته . فأذهب عنه الآلام والأسقام . وأمره أن يضرب برجله الأرض ، حتى تنبع له عين ماء يكون فيها شفاؤه . وقلنا له : هذا مغتسل بارد وشراب تغتسل منه وتشرب فتشفى بإذن الله ، فلما ضرب الأرض نبعت له عين ماء ، فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منها فذهب الداء من باطنه ، فعادت إليه الحياة الطبيعية التى كان يعيشها وشعر بأهله وأولاده ، ونعم بأسرته التى كانت بالنسبة إليه كالمفقودة ومتعه الله بصحته وقواه حتى كثر نسله وتضاعف عدد أولاده ورزقه من الأموال فضلا منه ونعمة ، وأكراما لعبده الصالح الطائع وتذكيرا لعباد الله بفضل الله وإكرامه لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وهو أفضل أهل زمانه ـ وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها ، واللجوء إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ أيوب ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العاقبة وعظيم الإكرام .

وما كان الله ـ جلت حكمته ـ ليكرمه ويدع زوجتهالتى أحسنت إليه وأعانته فى بلائه ومحنته .

وكان قد حلف لأمر فعلته ليضربها مائة جلدة ، فجزاها الله بحسن صبرها أن أفتاه فى ضربها تسهيلا عليه وعليها فأمره أن يجمع لها ( مائة عود ) ويضربها ضربة واحدة ولا يحنث فى يمينه .

ثم شهد الله تعالى لأيوب عليه السلام شهادة تبقى على مر الأزمان مظهرة أنه كان فى بلائه صابرا ، لا تحمله الشدة على الخروج عن طاعة ربه ، والدخول فى معصيته ، فكان من خيرة خلق الله وعباده ، مقبلا على طاعته ، رجاعا إلى رضاه ، فلم يكن دعاؤه عن تذمر وشكوى ، وإنما كان لجوء إلى الله العلى القدير الذى بيده مقاليد السموات والأرض .

## « الغرض من القصة »

المقصود من ذكر قصة ( أيوب ) عليه السلام ، وما قبلها من قصص الأنبياء الإعتبار بما يقع فى هذه الحياة . كأن الله تعالى يقول : يامحمد ، اصبر على سفاهة قومك ، وشدتهم فى معاملتك ، ومقابلة دعوتك بالصدود والإعراض ، فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من ( داود )و( سليمان ) ـ عليهما السلام ـ وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ـ عليه السلام ـ فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد . وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره .

## « لطائف التفسير »

### اللطيفة الأولى :

فى قصة أيوب ـ عليه السلام ـ كان قد حصل له نوعان من البلاء ( المشقة الشديدة ) بسبب زوال النعم والخيرات ، وحصول المكروه ( والألم الشديد ) فى الجسم . ولما كان كل منهما قد لحق به وأصابه الضر بسببه . أحدهما مادى . والأخر جسدى . ذكر الله تعالى فى الآية الكريمة لفظين ( النصب ) و

( العذاب ) ليقابل بذلك الضر الذى أصابه . فالنصب الضر فى الجسد ، والعذاب البلاء فى الأهل والمال .

**اللطيفه الثانية :**

وصف الله تعالى نبيه أيوب ـ عليه السلام ـ بالصبر . وأثنى عليه بقوله ﴿ **إنا وجدناه صابرا** ﴾ مع أن أيوب كان قد اشتكى إلى ربه من الضر الذى أصابه فقال ﴿ **مسنى الضر** ﴾ فى سورة الأنبياء ، وقال هنا ﴿ **مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ فدل ذلك على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ، وقد قال يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾[1] ولهذا مدحه الله بقوله ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ ولو كانت الشكوى إلى الله تنافى الصبر لما استحق هذا الثناء .

**اللطيفة الثالثة :**

قوله تعالى : ﴿ **أنى مسنى الشيطان** ﴾ أسند الضر الذى أصابه فى جسمه وأهله ، وماله إلى الشيطان أدبا مع الله تعالى ، مع أن الفاعل الحقيقى هو الله رب العالمين ، فالخير والشر ، والنفع والضر ، بيد الله جل وعلا ، ولكن لا ينسب الشر إلى الله وانما ينسب إلى النفس أو الشيطان ، ولهذا راعى ـ عليه السلام ـ الأدب فى ذلك فنسبه إلى الشيطان ، وهو على حد قول ابراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين** ﴾[2] حيث نسب الأحكام إلى الله ونسب المرض إلى نفسه أدبا .

قال الزمخشرى : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه ، وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم يلسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو .

**اللطيفة الرابعة :**

سئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الأخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر ، والأخر شاكر ثناء واحدا فقال فى وصف أيوب ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ ، وقال فى وصف سليمان ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ وفضل بعض العلماء : الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر ، لأن الغنى ابتلاء وفتنة ، والشاكر من عباد الله قليل ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾ بخلاف الصابر فإنه كثير والمسألة فيها نظر .

( قال الامام ابن تيميه أفضلهما أتقاهما ) .

---

(١) سورة يوسف آية ٨٦

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٧٩ - ٨٠

**اللطيفة الخامسة :**

يضرب المثل بصبر أيوب ـ عليه السلام ـ فيقال : ( صبر كصبر أيوب ) وقد صبر على البلاء فى جسمه وأهله ، وولده مدة ثمان عشرة سنة على المرجح من الأقوال ، ويروى أن زوجه لما طلبت منه ان يدعو الله أن يشفيه سألها :

كم مكثنا فى الرخاء ؟ قالت سبعين عاما ، فقال لها : ويحك كنا فى النعيم سبعين عاما ، فاصبرى حتى نكون فى الضر سبعين عاما .

ويروى أنه قال لها : إنى لأستحيى من الله أن أسأله أن يشفينى وما قضيت فى بلائى ما قضيته فى رخائى .

ولهذا يضرب به المثل فى الصبر .

**اللطيفة السادسة :**

روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه ياأيوب : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لاغنى لى عن بركتك )[1] ( رجل جراد : قال فى اللسان الرجل الطائفة من الشىء ) .

قال بعض العلماء : حين صبر أيوب أكرمه الله بالمال الوفير ، والأجر الجزيل ، وعوضه عن الأهل والولد ، بضعفهم وبارك فيهم ، كما قال تعالى ﴿ **فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

## « الأحكام الشرعية »

الحكم الأول : ماهو سبب حلف أيوب ـ عليه السلام ـ بضرب أهله ؟ دل ظاهر قوله تعالى ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ على أن أيوب عليه السلام كان قد صدر منه يمين على ضرب أهله ، ويقول المفسرون إنه حلف لئن شفاه الله ليجلدن زوجته مائة جلدة ، فأمره الله أن يأخذ قبضة من حشيش أو حزمة من الخلال والعيدان ، فيضرب بها ليبر بيمينه ولا يحنث ، ولم تذكر الآية سبب هذا الحلف ، وقد ذكر بعض المفسرين كلاما طويلا فى سبب هذا اليمين ، فقيل : إن امرأة أيوب كانت تخدمه وضجرت من طول مرضه ، فتمثل لها الشيطان بصورة طبيب وجلس فى طريقها فقالت له : ياعبد الله ههنا إنسان مبتلى ، فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم إن شاء شفيته ، على أن يقول إذا برأ : أنت شفيتنى فجاءت إلى أيوب فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله على إن شفانى الله أن أجلدك مائة جلدة .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذ نادى ربه .

وزعم بعضهم أن إبليس لقى زوجة أيوب فقال لها : أنا الذى فعلت بأيوب ما فعلت ، وأنا إله الأرض ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله ، فجاءت فأخبرت أيوبُ فأقسم أن يضربها إن عافاه الله .

وكتاب الله تعالى لم يأت فيه تفصيل للقصة ، ولهذا انطلقت الخيالات تنسج قصصا فى سبب بلائه وفى سبب حلفه على زوجه منها مّا هو باطل لا يصح اعتقاده ومنها ما هو ضعيف واهن .

يقول أبو بكر ابن العربى : ( ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان فى السماء السابعة ، وأنه طلب من ربه أن يسلطه على أيوب فقال له : قد سلطتك على أهله وماله .. الخ إن هذا قول باطل لأن ابليس أهبط منها بلعنة الله وسخطه ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول فى مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى !! إن هذا لخطبٌ منَ الجهالة عظيم .

وأما قولهم : إن الله تعالى قاله له : هل قدرت من عبدى أيوب على شيء ؟ فباطل قطعا ، لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس اللعين ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟!

وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده ، فذلك ممكن فى القدرة ، ولكنه بعيد فى هذه القصة ، وكذلك قولهم :

إنه نفخ فى جسده حين سلطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان كسب فيه حتى تقر له ــ لعنة الله عليه ــ عين بالتمكن من الأنبياء فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم .

وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركت ذكر الله وسجدت لى لعافيته .. فاعلموا أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ، ما جاز عنده أن يكون إلها فى الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعانى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبى ؟ ولو كانت زوجة سوارى أو قدم بدبرى ما ساغ ذلك عندها ) .

ثم قال : ( ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين : الأولى قوله تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر** ﴾ والثانية فرص ﴿ **أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ وأما النبى ــ ﷺ ــ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله ( بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب ــ الحديث ) وقد تقدم .

وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على لسان سمعه ؟ ، والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على الثبات . فأعرض عن سطورها بصرك .

وأصم عن سمعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا . أ هـ أقول :

( ليس بلازم ثبوت صبر أيوب اعتقاد أمثال هذه القصص الاسرائيلية التى حشابها بعض المفسرين كتبهم ، ولا أمثال هذه الغرائب التى لا يصح سندها ولا نسبتها إلى الأنبياء الكرام لأنها تنافى « العصمة »

ولا تتفق مع المناصب الرفيعة للأنبياء الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم ـ ويكفى أن نقتصر على ماذكره الله تعالى فى كتابه ، ونعرض عن مثل هذه الخرافات والأباطيل ، كزعم بعضهم أن أيوب تساقط لحمه من شدة المرض ، وأصبح الدود يخرج من جسمه حتى استقذره القريب والبعيد ، ومله الصديق والغريب ولم يصبر عليه إلا امرأته ، وأنه عظم بلاؤه حتى أخرج من بيته وألقى على كناسه ( مزبله ) .. إلى آخر ما هنالك من حكايات مكذوبة وقصص إسرائيلية تلقفها بعض القصاص ، ودخلت إلى بعض كتب التفسير وهى مماتنا فى عصمة الأنبياء .

والذى ينبغى أن يقتصر عليه المسلم أن ما أصاب ( أيوب ) من ضر إنما كان مرضا من الأمراض المستعصية ، التى ينوء بحملها الناس عادة ، ويضجرون من ثقلها ، وخصوصا إذا امتد الزمن بها ، وأن هذا المرض لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة ، وأنه غضب على زوجه لأمر من الأمور فحلف أن يضربها مائة جلدة ، فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ، وسهل عليه الأمر ، فجمع لها ( مائة عود ) فضربها بها ضربة واحدة ولم يحنث فى يمينه ، وكشف الله عنه ضره وبلاءه ) .

الحكم الثانى : هل يباح للرجل ضرب امرأته تأديبا ؟

أستدل بعض العلماء بالآية الكريمة على جواز ضرب الرجل أمرأته تأديبا . وذلك لأن امرأة أيوب أخطأت فى حق زوجها فحلف ليضربنها مائة جلدة ، فأمر الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل أو بحزمة من العيدان وذلك ليبر فى يمينه ولا يحنث ولو كان الضرب غير جائز لما أقره القرآن عليه ودله على ما هو أرحم .

وفى الآية أشارة إلى أنه لا يجوز ضرب المرأة فوق حدود الأدب ، ولهذا قال ـ عليه السلام ـ فى حجة الوداع ( واضربوهن ضربا غير مبرح ) والجواز لا ينافى الكراهة فقد ورد عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال ( لا تضربوا إماء الله ) فجاء عمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : ذأرن ـ اجترأن ـ النساء على أزواجهن ، فرخص فى ضربهن ، فأطاف بآل النبى ـ ﷺ ـ نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال ـ ﷺ ـ لقد طاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم ( رواه أبو داود والنسائى والبخارى فى التاريخ )

قال الجصاص ( والذى ذكره الله فى القرآن وأباحه من ضرب النساء إذا كانت ناشزا بقوله ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾ إلى قوله ﴿ **واضربوهن** ﴾[1] . وقد دلت قصة أيوب على أن له ضربها تأديبا لغير نشوز وقوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ فما روى من القصة فيه يدل على مثل دلالة قصة أيوب ، لأنه روى أن رجلا لطم امرأته على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فأراد أهلها القصاص فأنزل الله ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٨ كتاب النكاح باب فى ضرب النساء رقم ٢١٤٦

الحكم الثالث : هل الحكم خاص بأيوب أم هو عام لجميع الناس ؟ .

أختلف العلماء فى هذا الحكم الذى أرشد الله تعالى إليه نبيه ( أيوب ) عليه السلام هل هو خاص أم عام لجميع الناس ؟

فذهب ( مجاهد ) إلى أنه خاص بأيوب عليه السلام ، وهو منقول عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو مذهب ( مالك ، وأحمد بن حنبل ) . رحمهما الله .

وذهب عطاء بن أبى رباح ، وابن أبى لعلى إلى أن الحكم عام ، وأن هذه الرخصة لجميع الناس فضلا من الله تعالى وكرما ، وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفه رحمهما الله تعالى .

الحكم الرابع : هل يشترط فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

وبناء على ما سبق فقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط ، فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة ، هل يكفى ذلك أم لابد فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

فقال مالك وأحمد : لا يبر بيمينه حتى يفرق الضرب .

وقال أبو حنيفة والشافعى : إذا أصابه واحد منها فقد بر فى يمينه ولا يشترط التفريق .

« حجة المذهب الأول »

١ - إن هذا الأمر خاص بأيوب وزوجه لأن الله تعالى قال ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[1] ولأن زوجة أيوب لم تفعل أمرا تستحق معه مائة جلدة . فجعل الله سبحانه لأيوب فرجا ومخرجا بذلك .

٢ - ولأنه إذا أقسم بالضرب إنما أراد الايلام ، وليس فى الضرب بالجميع إيلام .

٣ - الأيمان مبناها على النية ، فإن لم توجد فعلى اللغة والعرف ، واللغة لا تجعل الضارب مرة بسوط ذى شعب ضاربا مرات بعدد الشعب ، وكذا العرف فوجب أن تجرى على ما هو الحكم عندنا بموجب العرف واللغة .

**« حجة المذهب الثانى »**

١ - عموم قصة أيوب ـ عليه السلام ـ وشرع من قبلنا شرع لنا مالم يأت ناسخ ، وقد جاء فى الشرع ما يؤيدها ، ولم يثبت الناسخ .

٢ - واستدلوا بحديث أبى أمامة عن بعض الصحابة من الأنصار : أنه اشتكى رجل منهم فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهى لها ، فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال من قومه يعودنه أخبرهم بذلك ، وقال استفتوا لى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكروا له ذلك ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الضر

(١) سورة المائدة جزء من الآية ٤٨

مثل مابه ، ولو حملناه لك لتفخست عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم فأمر ـ ﷺ ـ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة ( الحديث رواه أبو داود وسكت عنه المنذرى ، وقال القرطبى وقد تكلم فى اسناده ).[١]

ودلالة الآية ظاهرة على صحة هذا القول :

وذلك لأن فاعل ذلك يسمى ضاربا لما شرط من العدد ، وذلك يقتضى البر فى يمينه .

٣ - وقالوا : أن القرآن حكم بأنه لا يحنث بفعله لقوله تعالى ﴿ **فاضرب به ولا تحنث** ﴾ ولكن يجب أن لا يطبق ذلك فى الحدود إلا مقيدا بما ورد الحديث به فتكون ذلك حد المريض الذى وصل من المرض إلى الحد الذى وصف فى الحديث الشريف .

**الحكم الخامس : هل تجوز الحيلة فى الشريعة الاسلامية ؟**

قال الحصاص فى تفسيره أحكام القرآن : ( وفى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى ما يجوز فعله ، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره ، لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به عن اليمين ولا يصل إليها كثير حذر ) .

أقول : هذا هو الحد المقبول من الحيل الشرعية التى توصل إلى ما يجوز فعله وتدفع المكروه عن نفسه وغيره ، أما الحيل التى يتوصل بها إلى الهرب من فرايض الله ، والتخلص مما أوجبه الله على الإنسان ، فهذه لا يقبلها ذو قلب سليم ، ولا يقرها مسلم عاقل لأن فرائض الله إنما فرضت لتؤدى ، والواجبات إنما شرعت لتقام على وجه الأرض لا لتكون طريقا للتلاعب فى أحكام الله .

وقد استدل بعض العلماء على جواز الحيلة مطلقا بهذه الآية ويقول الله تعالى فى قصة يوسف ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه** ﴾[٢] وليس الأمر كما زعموا فإن ذلك كان بإذن الله ليظهر فضله على سائر إخوانه بدليل قوله تعالى ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله** ﴾[٣].

قال الألوسى : وعندى أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط فى المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقا ، ومنهم من لا يجوزها مطلقا .

**الحكم السادس :**

هل أفعال الاله جل وعلا ، تابعة للمصالح ؟

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٤ ص ٦١٥ كتاب الحدود باب إقامة الحد على المريض . رقم ٤٤٧٢ .
(٢) سورة يوسف آية ٧٠
(٣) سورة يوسف جزء من الآية : ٧٦

قال الامام الفخر ــ رحمه الله ــ وفى قصة أيوب ــ عليه السلام ــ دلالة على أن أفعال ذى الجلال والاكرام منزهة عن التعليل للمصالح والمفاسد ﴿ **لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون** ﴾[1] . وذلك لأن أيوب لم يقترف ذنبا حتى يكون ابتلائه فى مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان البلاء ليجزل له الثواب فإن الله تعالى قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الألام والأسقام ، وحينئذ فى تلك الأمراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جلية والحق الصريح أنه لا يسئل عما يفعل .

**الحكم السابع :**

**هل البر فى اليمين أفضل أم الكفارة عن اليمين ؟**

فى الآية الكريمة دليل على أن البر باليمين مالم يكن فى إثم أفضل من الكفارة وقد قال ابن تميه « رحمه الله » إن الكفارة لم تكن مشروعة فى زمنه ، وإلا أمره الله تعالى بها ، وذكره ابن العربى قبله .

قال القرطبى : قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح فإن أيوب ــ عليه السلام ــ لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة كما فى حديث ابن شهاب قال له صاحباه لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه فقال أيوب ــ ﷺ ــ ما أدرى ما تقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم ارادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق ﴿ **فنادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ وذكر الحديث .

فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب وأن من كفر عن غيره بغير إذنه قام بالواجب عنه ، وسقطت عنه الكفارة .

ما ترشد إليه الآيات الكريمه .

**أولا** : ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب ــ عليه السلام ــ كان امتحانا لإيمانه ورفعا لمقامه .

**ثانيا** : الانسان يبتلى فى هذه الحياة على قدر إيمانه ولهذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء .

**ثالثا** : التضرع إلى الله والشكوى إليه سبحانه لا ينافى مقام الصبر الممدوح .

**رابعا** : كما يبتلى الله سبحانه وتعالى بالفقر فيبتلى بالغنى والمؤمن من يشكر الله فى السراء والضراء .

**خامسا** : إذا اتقى الإنسان ربه جعل الله له من أمره فرجا ومخرجا كما صنع بأيوب عليه السلام .

**سادسا** : زوجة أيوب جازاها الله بحسن صبرها فأفتاه فى ضربها بمائة عود جملة واحدة .

**سابعا** : إتخاذ الحيلة جائزة إذا لم يكن فيها إبطال حق أو هدم أمر من أمور الشرع الحنيف .

**ثامنا** : على الإنسان أن يبر فى يمينه أو يكفر عنها إذا كان ثمة وكان الحنث أفضل من البر .

## « حكمة التشريع »

لقد نزل الاسلام بتشريعاته وتعاليمه ليحكم المجتمع البشرى فى كل ظروفه وأحواله ، فلهذا أعطى لكل أمر

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣

حكما وراعى المصالح فى أحكامه وتشريعاته ، كما راعى اختلاف أطباع الأنسانية فعندما جاز الشارع ضرب المرء زوجه إنما أجازه أولا وقبل كل شيء فى حدود . وألا يكون الضرب مبرحا ولا يتعدى حدود التأديب والتهذيب ومع ذلك فقد اعتبر ضرب الأزواج غير ممدوح فاعله ، وتبدو حكمة الترخيص بالقرب جلية فى نساء مخصوصات تعودن عليه ، ونشأن فى ظلاله فلم يعد من الممكن تأديبهن إلا بهذه الطريق فأجازها الشارع لذلك .

يقول شهيد الاسلام سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن » مانصه : وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة ومشهورة وهى تضرب مثلا للابتلاء والصبر ولكنها مشوبة باسرائيليات تطغى عليها ، والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب ــ عليه السلام ــ كان كما جاء فى القرآن عبدا صالحا أوابا ، وقد ابتلاه الله فصبر صبر جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له ، وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفس أشد ما يؤذيه الضر والبلاء .

فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددا عينه ، قيل مائة ، وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ومداخله إلى نفوس خلصائه ووقع هذا الايذاء فى نفسه ﴿ **أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ونفوره من محاولات الشيطان وتأذيه بها أدركه برحمته وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته ، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ .

ويقول القرآن الكريم ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

وتقول بعض الروايات : أن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد أسترد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

والمهم فى معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه فرحمة من الله وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلا نهاية . أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد التى حدده فيضربها به ضربة واحدة تجزىء عن يمينه فلا يحنث فيها ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ هذا التيسر وذلك الانعام كان جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ .

## « نور الوعد »

قال تعالى :

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)

## « تفسير المفردات »

﴿ **الأيدى** ﴾ : أى القوى فى طاعة الله ، ﴿ **والأبصار** ﴾ : واحدها بصرها ويراد به هنا البصيرة والفقه فى الدين ومعرفة أسراره ، ﴿ **أخلصناهم** ﴾ : أى جعلناهم خالصين لنا ، ﴿ **بخالصة** ﴾ : أى بخلصة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكرة الدار الآخرة والعمل لها ، ﴿ **المصطفين** ﴾ : أى المختارين من أبناء جنسهم ، ﴿ **والأخيار** ﴾ : واحدهم خير هو المطبوع على فعل الخير ، ﴿ **هذا ذكر** ﴾ : أى هذا المذكور من الآيات فضل من الذكر وهو القرآن . الطاغى : المتجاوز للجد فى ترك الأوامر الغل النواهى ، ﴿ **جنات عدن** ﴾ : أى جنات استقرار وثبات من قولهم ، عدن بالمكان أي أقام به ، ﴿ **متكئين فيها** ﴾ : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء فى الآية الأخرى ، ﴿ **أتراب** ﴾ : أى لذات متساوون فى السن حتى لا تحصل الغيرة بينهن ، ﴿ **نفاذ** ﴾ : أى انقطاع .

## « المعنى الجملى »

لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى — ﷺ — فوصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ـ أمره بالصبر على أذاهم لوجهين :

١ — إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .

٢ — ما ذكره فى هذه الآيات والتى بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقيه من المكاره .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسماعيل ، واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر** ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين . ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾ يعنى بذلك الغمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة . قال على بن طلحة عن ابن عباس – رضى الله عنهما – ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ يقول أولى القوة ( والأبصار ) يقول الفقه فى الدين . وقال مجاهد ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ يعنى القوة فى طاعة الله تعالى ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ قال مجاهد أى جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها . وهناك أقوال أخرى فى هذه الآية نذكرها فيما يلى : قال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الأخرة وذكرها .

وقال سعيد بن جبير يعنى بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها ، وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شىء فى الدار الأخرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ أى لمن المختارين المجتبين الأخيار منهم أخيار مختارون قال تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ أى وأذكر لقومك من هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا الشدائد فى دين الله وعبدوا ربهم حتى أتاهم اليقين . ﴿ **وكل من الأخيار** ﴾ أى وكل منهم ممن أختاره الله للنبوة ، واصطفاه من خلقه . ﴿ **هذا ذكر** ﴾ قال السدى يعنى القرآن العظيم ، فيه ذكر لمن يتذكر . وقال ابن كثير : أى هذا فضلُ فيه ذكر لمن يتذكر .

وقال المراغى : ( هذا ذكر ) أى هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا اسلوب يذكر للأنتقال من كلام إلى آخر ، وعلى هذا جاء قوله ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب** ﴾ كما سيأتى بعد .

## « اضواء كاشفة »

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « قصص الأنبياء » عن النبى ( اليسع ) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣ – ٣٤

(٢) سورة النمل آية ٥٩ .

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء وفى سورة الأنعام فى قوله :

**﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ .**

وقال تعالى فى سورة ص ، **﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .**

قال ابن اسحق بسنده عن الحسن ، قال كان بعد الياس ـ عليهما السلام ـ فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك طاغ ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إذ هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن اسحق هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى حرف الياء من تاريخه :

اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوقلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبى ـ عليهما السلام ـ ويقال كان مستخف معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليهما فلما رفع الياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده .

## « أضواء كاشفة : على النبى ذى الكفل »

قال ابن كثير :

قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء : **﴿ واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ .**

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة ( ص ) **﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .**

فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى ، ـ عليه من ربه الصلاة والسلام ـ وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيا ، وإنما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير فالله أعلم .

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صالحا .

وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل .

قوله تعالى : **﴿ هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم**

**الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .**

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم فى الدار الأخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب كما قال تعالى ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾[١] وقال تعالى ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين ، والصادقين والقانتين والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار** ﴾[٢] .

ثم بين سبحانه ــ هنا ــ المآب الحسن بقوله ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ماتوعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** ﴾ أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فتحت إكراما لهم ، وفى هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقرة العيون فيها ، ومشاهدة أحوالها التى تسر الناظرين ففيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾[٣] .

وقال الامام ابن القيم فى هذه الآية :

تأمل قوله ، كيف تجد تحته معنى بديعا ؟ وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم ، بل تبقى مفتحة كما هى . وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليها أبوابها . كما قال تعالى : ﴿ **إنها عليهم مؤصدة** ﴾[٤] أى مطبقة مغلقة ومنه سمى الباب وصيدا .

وهى مؤصدة فى عمد ممددة قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذى يجعل خلف الباب .

قال مقاتل : يعنى أبوابها عليهم مطبقة . فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم . ولا يدخل فيها روح

(١) سورة الرعد آية ٢٩

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٤ – ١٥ – ١٦ – ١٧

(٣) سورة الزمر الآيات ٧١ – ٧٥

(٤) سورة الهمزة آية ٨

آخر الأبد .

وأيضا فإن تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم فى الجنة حيث شاءوا ، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ، ودخول ما يسترهم عليهم كل وقت .

وأيضا فيه إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك فى الدنيا .

وقد اختلف أهل العربية فى الضمير العائد من الصفة على الموصوف فى هذه الجملة . فقال الكوفيون : التقدير مفتحة لهم أبوابها .

والعرب تعاقب بين الألف واللام والاضافة فيقولون : مررت برجل حسن العين ، أى عينه . ومنه قوله تعالى ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ أى مأواه . وقال بعض البصريين : التقدير مفتحة لهم الأبواب منها .

مختلف الضمير وما اتصل به . قال : وهذا التقدير فى العربية أجود من أن أجعل الألف واللام بدلا من الهاء والألف لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف فى شىء لأن الهاء والألف اسم ؟ والألف واللام دخلتا للتعريف فلا يبدل حرف من اسم ، ولا ينوب عنه .

قالوا : وأيضا لو كانت الألف واللام بدلا من الضمير لوجب أن يكون فى « مفتحة » ضمير الجنات ، ويكون المعنى : مفتحة هى ، ثم أبدل منها الأبواب وكان كذلك لوجب نصب الأبواب ، لكون « مفتحة » قد ضمير الفاعل فلا يجوز أن يرفع به اسم آخر ، لا متناع ارتفاع فاعلين بفعل واحد . فلما ارتفع « الأبواب » دل على أن « مفتحة » حال من ضمير و « الأبواب » مرتفعة به .

وإذا كان فى الصفة ضمير تعين نصب الثانى ، كما تقول مررت برجل حسن الوجه . ولو رفعت الوجه ونونت « حسنا » لم يجز فالألف واللام إذا : للتعريف ليس إلا ، فلابد من ضمير يعود على الموصوف الذى هو « جنات عدن » ولا ضمير فى اللفظ ، فهو محذوف ، تقديره : الأبواب منها .

وعندى أن هذا غير مبطل لقول الكوفيين ، فإنهم لم يريدوا بالبدل إلا أن الألف واللام خلف وعوض عن الضمير تغنى عنه . وإجماع العرب على قولهم : حسن الوجه ، وحسن وجهه : شاهد بذلك . وقد قالوا : إن التنوين بدل من الألف واللام بمعنى أنهما لا يجتمعان ، وكذلك المضاف إليه يكون بدلا من التنوين والتنوين بدلا من الاضافة بمعنى الثعامت والتوارد ولا يريدون بقولهم : هذا بدل عن هذا : أن معنى البدل معنى المبدل منه : بل قد يكون فى كل منهما معنى لا يكون فى الأخر .

فالكوفيون أرادوا أن الألف واللام فى « الأبواب » أغنت عن الضمير لو قيل : أبوابها ، وهذا صحيح . فإن المقصود الربط بين الصفة والموصوف بأمر يجعلها له ، لا مستقلة . فلما كان الضمير عائدا على الموصوف ففى توهم الاستقلال . وكذلك لام التعريف فإن كلا من الضمير واللام يعين صاحبه ، هذا يعين مفسره وهذا يعين ما دخل عليه ، وقد قالوا فى زيد نعم الرجل : أن الألف واللام أغنت عن الضمير . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب** ﴾ أى يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك . وإنما خص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها ، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والاشربه ، فالنفس اليها أشوق ، وفى ذكرها أرغب وهذا كقوله تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الأخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(١) .

وهذا سبحانه بعد أن وصف المسكن والمشرب وصف الأزواج فقال : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف أتراب** ﴾ أى من غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ **أتراب** ﴾ أى متساويات فى السن والعمر .

وهنا كقوله تعالى ﴿ **فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون ليوم الحساب** ﴾ أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدها لعباده المتقين التى يصيرون اليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك اسمه عن الجنة لأنه لافراغ لها ولا زوال ولا انقضاء .

ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ **إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ أى إن هذا النعيم وتلك الكرامة لعطاء دائم غير محذوذ ولا منقطع كما قال تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾(٣)

أى غير مقطوع وكقوله تعالى ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا** ﴾(٤) والآيات فى هذا النص كثيرا جدا .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٥)

(١) سورة الواقعة الآيات ١٠ — ٢٤

(٢) سورة الرحمن الآيات ٥٦ — ٦١

(٣) سورة هود آية ١٠٨

(٤) سورة ق الآيات ٣١ — ٣٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٣ كتاب بدء الخلق باصفة الحبشة .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ٢ / ٢٨٢٤ .

متفق عليه وعنه أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : ( لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب ) متفق عليه(١) .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : ( إذا دخل أهل الجنة ينادى مناد أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وان لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا )(٢). رواه مسلم .

## « نار الوعيد »

قال تعالى :

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب صفة الجنة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب دوام تعليم أهل الجنة رقم ٢٢ / ٢٨٢٧

## « تفسير المفردات »

﴿ **الطاغين** ﴾ : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ﴿ **يصلونها** ﴾ أى يدخلونها ويقاسون حرها ﴿ **المهاد** ﴾ كالفراش لفظا ومعنى ، ﴿ **الحميم** ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ **الغساق** ﴾ شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين : أى سأل دمعها ﴿ **من شكله** ﴾ أى من مثل المذوق فى شدة والفضاعة ، ﴿ **أزواج** ﴾ أى أجناس ، ﴿ **فوج** ﴾ أى جمع الكثير من أتباعكم فى الضلال ، ﴿ **والاقتحام** ﴾ ركوب الشدة والدخول فيها . ﴿ **لا مرحبا بهم** ﴾ قال ابو عبيدة : العرب تقول لا مرحبا بك : أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت ، ﴿ **من الأشرار** ﴾ **أى الأرازل الذى لا خير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين** ﴿ **زاغت عنهم** ﴾ أى مالت عنهم ، ﴿ **التخاصم** ﴾ مخاصمة بعضهم بعضا ومدافعة كل منهم الأخر .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين ـ أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون ذلك متمما له ، فيأتى الوعيد عقب الوعد والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين رجاء فى الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد فى الطاعة وينأى عن المعصية ، وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التى ترقى بها النفوس إلى سبيل الكمال فى دنياها وأخرتها . ثم تحدث سبحانه عن المطالب التى ذكرها أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **هذا ، وأن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج** ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم عن دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل ﴿ **هذا وإن للطاغين** ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسل الله ـ ﷺ .

﴿ **لشر مآب** ﴾ أى لسوء منقلب ومرجع ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿ **جهنم يصلونها** ﴾ أى يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ **فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق** ﴾ أما الحميم فهو الحار الذى قد أنتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وأخر من شكله أزواج** ﴾ أى وأشياء من هذا القبيل : الشى وضده يعاقبون فيها .

وعن ابن سعود ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجدونها )[1] . أخرجه مسلم .

وعن مجاهد عن ابن عباس قال : ( أتدرى مايعة جهنم ؟ قلت لا ، قال أجل والله ما تدرى ، إن بين شحمة أذنى أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا تجرى فيها أودية القبح والدم . قلت لها : أنهار ؟ قال : لا بل أودية ، ثم قال : أتدرى ما سعة جهنم ؟ قلت : لا أدرى ، قال : أجل والله ما تدرى ، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله — ﷺ — عن قوله ( الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ) قالت : قلت : فأين الناس يومئذ ؟ قال على جسر جهنم )[2] أخرجه بن المبارك والترمذى وصححه . ورواه أحمد ورجال رجال الصحيح .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : ( نار ابن آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم فقالوا : يا رسول الله وإن كانت لكافية قال فإنها فضلت بتسعة وستين جزءا )[3] أخرجه مالك ومسلم .

وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال :

قال رسول الله — ﷺ — ( يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت مافى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون :

( أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى! قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ) قال : فيقولون : ادعوا مالكا ، فيقولون : ( يا مالك ليقض علينا ربك ؟ ) قال فيجيبهم ( إنكم ماكثون ) قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون : ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ قال فيجيبهم ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل )[4] أخرجه الترمذى .

قوله تعالى : ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم**

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٣ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة النار رقم ٢٦٩٨ وقال الترمذى : قال عبد الله بن عبد الرحمن والثورى لا يرفعه .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٥١ أبواب التفسير — تفسير سورة الزمر — رقم ٣٢٩٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى شدة حر جهنم . رقم ٣٠ / ٢٨٤٣ أنظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١١٠ رقم ٢٧١٥ . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٨ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار رقم ٢٧١٢ .

**أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ، وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ .**

هذا إخبار حق من المولى سبحانه وتعالى عن تخاصم أهل النار يوم القيامة ، فبعد أن وصف سبحانه مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقوله بعضهم لبعض .

﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم** ﴾ أى هم يتلاعنون ويتكاذبون فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى حين تقبل التى بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثيف داخل معكم ، فلا مرحبا بهم .

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع تقول الخزنة للقادة : هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم . ﴿ **إنهم صالوا النار** ﴾ أى إنهم ذائقو حر النار مثلكم . وهذا كلام من المبتوعين والرؤساء الذين أغووهم وأدخلوهم فى الكفر ، وحينئذ يرد عليهم الداخلون من الأتباع ويقولون لهم . ﴿ **بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار** ﴾ أى قال الأتباع وهم الفوج المقتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أنتم أحق منا بما قلتم ( لا مرحبا بكم ) فإنكم أغويتمونا ودعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفى ، لأنه مشترك بينهم ، يذكر سبحانه مقالة أخرى للأتباع ذما لهم أيضا فقال : ﴿ **ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار** ﴾ .

أى قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال . ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب عذابا مضاعفا فى النار ، عذابا للضلال وعذابا للاضلال .

ونحو هذا الآيات قوله تعالى ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيه جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول**

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ - ٣٩

(٢) سورة غافر الآيات ٤٧ - ٥٠

**يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداوأسرواالندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾**[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ .

ثم قال المشركون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم فى النار : مابالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم فى الدنيا أشرار لا خير فيهم ؟

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد ــ ﷺ ــ يقول أبو جهل : أين بلال ؟ وأين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك فى الفردوس ، واعجبا لأبى جهل : مسكين أسلم ابنه عكرمة وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه وكفر هو .

ثم سألوا عن السبب فى عدم رؤيتهم فقالوا : ﴿ **أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار** ﴾ أى ألاجل أنا قد اتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟ .

وفى هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسخارهم منهم فى الدنيا .

والخلاصة ــ أن الكفار حين دخلوا ونظروا فى جوانبها ولم يروا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لا نرى الذين كنا نتخذهم فى الدنيا سخريا ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم الأبصار ؟ .

ثم بين أن هذا التناجى يوم القيامة حق لا مرية فيه فقال سبحانه : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ أى أن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا حق لا مرية فيه .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ــ ﷺ ــ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ **إنما أنا منذر** ﴾ لست كما تزعمون بأنى ساحر أو شاعر ! إنما أنا نذير مرسل من ربى لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يحل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود .

---

(١) سورة سبأ الآيات ٣١ – ٣٣

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال :

﴿ **وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهو الذى قهر كل شيء وغلبه بعزته وجبروته ، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يغلب ولا يغلب ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب ، جلت أو حقرت ثم تودهم على مخالفته وترك العمل به وأمر رسوله أن يجلى لهم حقيقة وظيفته ليرعووا عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

﴿ **قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون** ﴾ أى قل لهم : إن ما أنبأتكم به من كونى رسولا منذر ، ومن أن الله واحد لا شريك له ـ خبر عظيم الفائدة لكم فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال ، لكنكم معرضون عنه ، لا تفكرون فيه لتماديكم فى الغفلة ، وفى هذا تنبيه إلى ماهم فيه من الخطأ ، علهم يرجعون عن غيهم .

قال مجاهد وشريح القاضى والسدى فى قوله عز وجل ﴿ **قل هو نبأ عظيم** ﴾ يعنى القرآن وقوله تعالى ﴿ **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ .

أى لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعنى فى شأن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه وهو ما ذكره بعد .

ثم أكد نبوته بقوله تعالى :

**إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾ أى ما يوحى إلى إلا للأنذار لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا .

## « قصص آدم عليه السلام »

قال تعالى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ

فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **فقعوا له** ﴾ أى سجدوا له ، ﴿ **مامنعك** ﴾ أى ما صرفك وصدك ، ﴿ **من العالين** ﴾ أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالين عن ذلك ﴿ **رجيم** ﴾ أى مرجوم ومطرود من كل خير ﴿ **لعنتى** ﴾ أى طردى ، ﴿ **أنظرنى** ﴾ أى أمهلنى ، ﴿ **من المنظرين** ﴾ أى الممهلين ، ﴿ **لأغوينهم** ﴾ أى لأضلنهم ، ﴿ **المخلصين** ﴾ أى الذين أخلصتهم للعبادة ﴿ **من المتكلفين** ﴾ أى المدعين معرفة ماليس عندهم ﴿ **نبأ** ﴾ أى ما أنبأ به من وعد ووعيد ، ﴿ **بعد حين** ﴾ أى بعد الموت .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، كما ذكرت هنا ، والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن ابليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زجرا لهم عنهما ، والمواعظ والنصائح من أبواب التكرير للمبالغة فى النصح والارشاد .

## « التفسير »

قال ابن كثير :

خلاصة هذه القصة : أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم ـ عليه السلام ـ بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر : حتى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامتثالا لأمر الله عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا ، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى

أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه وطرده من باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ فانظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ﴿ **قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾

فلما آمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ كما قال عز وجل .

﴿ **أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى فى قوله تعالى ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾ .

**وقوله تبارك وتعالى** ﴿ **قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ قال السدى هو قسم أقسم الله به .

وهذا كقوله تعالى ﴿ **قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾[1] وكقوله عز وجل ﴿ **ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[2] .

فائدة لابن القيم فى قول الله عز وجل ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ .

قال ما نصه : إن لفظ اليد جاء فى القرآن الكريم على ثلاثة أنواع :

مفردا ، ومثنى ، ومجموعا . كقوله ﴿ **بيده الملك** ﴾ والمثنى كقوله ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ والمجموع كقوله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ فحيث ذكر اليد مثناة . أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدل بالفعل بالياء إليهما . وقال ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ .

وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها ، ولم يعد الفعل بالباء فهذه ثلاثة فروق . فلا يحتمل ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ ما يفهمه من قوله عملنا ، وخلقنا ، كما يفهم من قوله ﴿ **بما كسبت أيديكم** ﴾ وأما قوله ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ فكيف إذا ثنيت ؟

وسر الفرق : أن الفعل قد يضاف إلى يد ذى اليد ، والمراد الإضافة إليه ، كقوله ﴿ **بما قدمت يداك** ﴾

---

(١) سورة الحجر الآيات ٤١ – ٤٤

(٢) سورة السجدة آية ١٣

﴿ وبما كسبت أيديكم ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل ، ثم عدى بالياء إلى اليد مفردة أو مثناه ، فهو مما باشرته يده، ولهذا قال عبد الله بن عمر وإن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثا: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده ، وكتب التوراة بيده ( فلو كانت اليد هى القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة . وقد أخبر النبى – ﷺ – أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده وكذلك قال آدم لموسى فى محاجته له ( اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك الألواح بيده )[1] .

وفى لفظ آخر ( كتب لك التوراة بيده ، وهو من أصح الأحاديث وكذلك الحديث المشهور ( أن الملائكة قالوا : يارب خلقت بنى آدم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الأخرى ، فقال الله تعالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ونفخت فيه من روحى ، كمن قلت له : كن فكان )[2] .

وهذا التخصيص إنما منهم من قوله ﴿ خلقت بيدى ﴾ فلو كان مثل قوله ﴿ ما عملت أيدينا ﴾ لكان هو والأنعام فى ذلك سواء . فلما فهم المسلمون أن قوله ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾ يوجب له تخصيصا وتفضيلا بكونه مخلوقا باليدين على من أمر أن يسجد له ، وفيهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه : كانت التسوية بينه وبين قوله ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ﴾ خطأ محصنا أ . هـ ( من كتاب الصواعق المرسلة ج ١١ ص ٣٨ ) .

قوله تعالى ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما اسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا كقوله عز وجل ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾[3] .

وقوله عز وجل ﴿ **وما أنا من المتكلفين** ﴾ أى وما أريد على ما أرسلنى الله تعالى به ولا أبتغى زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ، ولا أنقص منه ، وإنما ابتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

قال سفيان الثورى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال يأيها الناس من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لمالا يعلم الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنبيكم – ﷺ – ﴿ **قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ أخرجاه من حديث الأعمش به .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب جماع آدم وموسى رقم ١٥ / ٢٦٥٢

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ١٢ ص ١٩١ – ١٩٢ رقم ٣٤٦١٨ – ١٩

(٣) سورة سبأ آية ٤٧

وقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ يعنى القرآن الكريم ذكر لجميع لجميع . كقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾(١) .

وكقوله جل فى علاه : ﴿ **إن هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولتعملن نبأه بعد حين** ﴾ أى خبره وصدقه ﴿ **بعد حين** ﴾ أى عن قريب قال قتادة بعد الموت ، وقال عكرمة يعنى يوم القيامة ، منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة ، وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ **ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ قال الحسن ياابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

## أضواء كاشفة
## على قصة آدم

قال العلامة ابن كثير فى كتابه ( البداية والنهاية ) ( باب خلق آدم عليه السلام ) قال الله تعالى :

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾(٤) .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ١

(٢) سورة التكوير آية ٢٧ — ٢٨

(٣) سورة البقرة الآيات من ٣٠ — ٣٩

(٤) سورة آل عمران آية ٥٩

وقال تعالى :

يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[١] كما قال تعالى : ﴿ يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[٣] الآية .

وقال تعالى :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين ، قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . وياآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوأتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٤] كما قال فى الآية الأخرى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٥] .

وقال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من

(١) سورة النساء آية ١

(٢) سورة الحجرا آية ١٣

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩

(٤) سورة الأعراف الآيات ١١ — ٢٥

(٥) سورة طه آية ٥٥

روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾[١] .

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[٣] .

وقال تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى ، فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآيات من ٢٦ — ٤٤

(٢) سورة الاسراء الآيات ٦١ — ٦٥

(٣) سورة الكهف آية ٥٠

(٤) سورة طه الآيات ١١٥ — ١٢٦ .

وقال تعالى : ﴿ **قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾[(١)] .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن . وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير .

ولنذكر ههنا مضمون مادلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين .

﴿ **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن قال قتادة . وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه ، وعن الحسن ألهموا ذلك ، وقيل لأنهم علموا أن الأرض لايخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا .

﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ أى نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد .

فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر ليلا ولا نهارا ﴿ **قال إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾ أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء مالا تعلمون ، أى سيوجد فيهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ، ثم بين شرف آدم عليهم فى العلم فقال ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ، إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

(١) صورة ص الآيات : من ٦٧ ـــ ٨٨

وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء )[1] وذكر تمام الحديث . ﴿ **ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ قال الحسن البصرى ( لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ وقيل غير ذلك كما بسطناه فى التفسير ، ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ أى سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ ﴿ **قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله وأعلم ما تبدون ، ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله وما كنتم تكتمون : المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم ـ عليه السلام ـ قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿ **وما كنتم تكتمون** ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

## « امتناع ابليس عن السجود لآدم »

قوله ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر** ﴾ هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ **فهذه اربع تشريفات خلقه له بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه . وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء ، وقال فى الآية الأخرى** ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ قال الحسن البصرى قاس إبليس وهو أول من قاس ـ يريد أنه استخدم القياس الخاطيء ـ وقال محمد بن سيرين أول من قاس إبليس وماعبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والاحراق . ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ، ونفخه من روحه . ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال سبحانه ﴿ **إذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا**

---

[1] الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١٤٩ كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنعوت انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٠ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة رقم ٣٢٢ - ١٩٣ .

**إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به ، ترفعه عليه ، مخالفة الأمر الآلهى ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين ، وشرع فى الأعتذار بما لا يجدى عنه شيئا ـ وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾ .

وقال فى سورة الكهف ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق من أمر ربه** ﴾ .

أى خرج عن طاعة الله عمدا وعنادا واستكبار عن امتثال أمره ، وماذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال قدمنا . فى صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ( خلق الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم )[1] .

قال الحسن البصرى . لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود سجدوا وامتنع إبليس .

وقال فى سورة ( ص ) ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ .

وقال فى سورة الأعراف :

﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ – ٢٩٩٦

جهة منهم . فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه .

قال الأمام أحمد عن أبى الفاكه . قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول ( إن الشيطان يقعد لأبن آدم بأطرقه الحديث )[1] .

وقوله تعالى لإبليس ﴿ **اهبط منها** ﴾ ﴿ **واخرج منها** ﴾ دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذؤما مدحورا . وأمر الله آدم ـ عليه السلام ـ أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ وقال فى الأعراف ﴿ **قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق آدم كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿ **وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ وهذا قد صرح به اسحق ابن بشار وهو ظاهر هذه الآيات . ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يتمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة . خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت قالت امرأة ، قال ولما خلقت قالت لتسكن إلى فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ( ما أسمها ياآدم ) قال حواء . قالوا ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شىء حى .

وذكر محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم . ولأم مكانه لحما ومصداق هذا فى قوله تعالى :

﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهاوبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾ الآية . وفى قوله تعالى ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به** ﴾ الآية وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( استوصوا بالنساء خيرا ـ فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا )[2] لفظ البخارى .

---

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ٣ ص ٣٨٤ مسند سبرة بن أبى فاكهة .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦٠ – ١٤٦٨

وقد أختلف المفسرون فى قوله تعالى ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ .. وهذا الخلاف قريب . وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن .

وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن الجنة التى دخلها آدم هل فى السماء أو فى الأرض ؟! هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه ، والجمهور على أنها هى التى فى السماء وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى ، وإنما تعود على معهود ذهنى ، وهو المستقر شرعا من جنة المأوى . وكقول موسى ــ عليه السلام ــ لآدم ــ عليه السلام ــ ( علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ) الحديث كما سيأتى الكلام عليه . وروى مسلم عن رجفى عن حذيفة قالا . قال رسول الله ــ ﷺ ــ ( يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون فيقولون ياأبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم )[١] وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى وليس تخلو عن نظر .

وقال آخرون بل الجنة التى اسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافى أن تكون جنه المأوى . وهذا القول محكى عن أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينه ، ابن قتيبة فى المعارف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة . وحكاه عن أبى حنيفة الامام وأصحابه رحمهم الله .

ونقله القرطبى عن المعتزله والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل، وأبو محمد بن عطيه فى تفسيره . وأبو عيسى الرمان فى تفسيره . وحكى عن الجمهور الأول . وأبو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى تفسيره فقال واختلف فى الجنة التى أسكنها يعنى آدم وحواء على قولين . أحدهما أنها جنة الخلد ، والثانى جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين . أحدهما أنها فى السماء لأنه اهبطهما منها وهذا قول الحسن .

والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف فى مسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره فى هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى . ورابعها الوقف .

وقوله تعالى : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ أى عن الجنة ﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ أى من النعيم

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٢٩ – ١٩٥

والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما كما قال تعالى ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ يقول مانهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ، ﴿ **وقاسمهما** ﴾ أى حلف لهما على ذلك ﴿ **إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التى إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هى الشجرة الذى قال الامام أحمد عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ ( إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، شجرة الخلد (.تفرد به أحمد )[1]

وقوله ﴿ **فدلاهما بغرور فلماذا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ كما قال فى ( طه ) ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[2] وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهى التى حدته على أكلها والله أعلم .

﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[3] .

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خيره فى دنياه وأخراه ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[4] .

وهذا خطاب لآدم وحواء وابليس ، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين وقوله فى سورة طه .

﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو** ﴾[5] هو أمر لآدم وابليس واستتبع آدم وحواء وابليس ، وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾[6].

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة .
الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٤٣٨ مسند أبى هريرة .

(٢) سوره طه أية ١٢١

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٢٢ — ٢٣

(٤) سورة الأعراف أية ٢٤

(٥) سورة طه أية ١٢٣

(٦) سورة الانبياء آية ٧٨

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم الا بين اثنين مدع ، ومدعى عليه قال ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ وأمر تكريره الاهباط فى سورة البقرة ﴿ **وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[١] .

فقال بعض المفسرين المراد بالاهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالتالى من السماء الدنيا إلى الأرض ، وهذا ضعيف لقوله فى الأول ﴿ **وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ فدل على أنهم اهبطوا إلى الأرض بالأهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أن كرره لفظا وإن كان واحدا وناط مع كل مرة حكما فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثانى الأشتراط عليهم ان من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الكريم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الأكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو ، فقال الله فرارا منى جل حياء منك يا سيدى .

وقوله تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ قيل هى قوله ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[٢] روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وابى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالدين معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن الحسن بن أبى كعب قال . قال رسول الله — ﷺ — ( قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة قال نعم )[٣] فذلك قوله ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾ وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال الكلمات ( اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم ) .

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[٤] .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٦ – ٣٩

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣

(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨١ تفسير سورة البقرة ( فتلقى آدم من ربه كلمات ) وقال هذا حديث غريب وفيه انقطاع .

(٤) سورة طه آية ١٢١

## « احتجاج آدم وموسى عليهما السلام »

قال البخارى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى أو قدره على قبل أن يخلصنى ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ فحج آدم موسى )[١] .

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به .

وقال الأمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ ﷺ ( احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة فقالآدم وأنت موسى الذى اصطفاك لله برسلاته وبكلامه تلومنى على ما أمر قدر على من قبل أن أخلق قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( فحج آدم موسى فحج آدم موسى )[٢] مرتين . قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن ابى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ نحوه .

وقال أحمد عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ ( لقى آدم موسى فقال أنت آدم الذى خلقك الله بيده واسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت . قال آدم يا موسى أنت الذى كلمه الله وأنزل عليه التوراة . قال نعم : قال فهل تجده مكتوبا على قبل أن أخلق . قال نعم . قال ( فحج آدم موسى فحج آدم موسى )[٣] .

وقد اختلف مسالك الناس فى هذا الحديث فرده قوم من القدرية كما تضمن من إثبات القدر السابق . واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادىء الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا ، وقال آخرون إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين .. والتحقيق أن هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى وفيه نظر .. ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الاخراج على أكلى من الشجرة والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل ، فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلى أكثر ما أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الاخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلى فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه وله الحكمة فى ذلك فلهذا حج آدم موسى .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٢١ تفسير سورة طه .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٥ – ٢٦٥٢

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٢ – ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٣ – ٢٦٥٢ انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٦٤ مسند أبى هريرة .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٩٢ مسند أبى هريرة .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ وناهيك به عدالة وحفظا وإتقانا . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى أقوى مسلكا من الجبرية ، وفيما قالوه نظر من وجوه ( أحدها ) أن موسى ــ عليه السلام ــ لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله ( الثانى ) أنه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله من ذلك بقوله ﴿ **رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له** ﴾ **الآية**[1] ( الثالث ) أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لا حتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار وهذا يفضى إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء باب جواب آدم إنما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم .

## « الأحاديث الواردة فى خلق آدم »

قال الامام أحمد عن أبى موسى عن النبى ــ ﷺ ــ ( إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك )[2].

وقد ذكر السدى عن ابن عباس وعن مرة عن ابن سعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ قالوا : ( فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك ان تنقصى منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال رب أنها عاذت بك أعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازب ) .

واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة ﴿ **إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[3] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر ابليس عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوا وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول ﴿ **من صلصال كالفخار** ﴾ ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه

---

(١) سورة القصص آية ١٦ .

(٢) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .

(٣) سورة ص آية ٧١ – ٧٢

فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى ﴿ **خلق الانسان من عجل** ﴾ ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾[1] وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وأن كان كثير منه متلقى من الاسرائيليات . وقال ابن حيان فى صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال ( لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله )[2].

وقال الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه فقال أى رب من هذا قال هذا رجل من أخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقض عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود . قال فجحد ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته )[3] ثم قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ ورواه الحاكم فى متدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا . ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يحيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الأن )[4].

وقال الامام مالك بن أنس فى موطئه عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الآية** ﴾ فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يسأل عنها فقال ( إن الله خلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل قال رسول الله ـ ﷺ ـ اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى

---

(١) سورة ص آية ٧٣ - ٧٤

(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٨ ص ١٤ - ١٥ رقم ٦١٣٤

(٣) الحديث فى المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٥٨٦ كتاب التاريخ باب ذكر نبئ الله داود .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٥٩ كتاب بدء الخلق باب وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة .

يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار )[١] وهكذا رواه الأمام أحمد وابو داول والترمذى والنسائى وابن جرير وابن ابى حاتم وابو حاتم بن حبان فى صحيحه من طرق عن الامام مالك به . وقال الترمذى هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة . وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جثعم عن زيد ابن ابى أنيسه عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عن سلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث . قال الحافظ الدارقطنى وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوى عن زيد بن أبى أنيسه قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دلة على إستخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى ، هؤلاء للنار ولا أبالى . فأما الاشهاد عليهم واستنطاقهم بالأقرار بالوحدانية فلم يجىء فى الأحاديث التالية وتفسير الآية فى سورة الأعراف ، وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والأثار مستقصاه بأسانيدها وألفاظ متونها فمن أراد تحريره فليراجعه . ثم والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه أحمد عن ابن عباس عن النبى ــ ﷺ ــ قال : ( إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ــ عليه السلام ــ بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه . ثم كلمهم قبلا قال ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا** ﴾ إلى قوله ﴿ **المبطلون** ﴾[٢] فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم .

وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح ، واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية ، وهم الجمهور بما قال الأمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبى ــ ﷺ ــ قال : ( يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم ، فيقول قد أردت منك ما هو أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى )[٣] أخرجاه من حديث شعبه به .

ورواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من طريق أبى جعفر .

وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لأدم امتثلوا كلهم الأمر الألهى

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ مسند عمر بن الخطاب .
(٢) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٧٢ مسند ابن عباس .
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ مسند أنس .

وامتنع ابليس من السجود له حسدا وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الألهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريدا ملعونا شيطانا رجيما .

وقد قال الامام أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى . يقول : ياويله . أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار )[1] . ورواه مسلم .

ثم لما اسكن آدم الجنة التى اسكنها حواء ـ عليهما السلام ـ يأكلان منها رغدا حيث شاأ فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها . واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا مارواه مسلم عن ابى هريرة مرفوعا وخلق آدم فى آخر ساعة من سعات الجمعة وتقدم أيضا حديثه عنه وفيه يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها فإن كان اليوم الذى خلق فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه .

وفى هذا نظر وإن كان أخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف منه كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق فى أخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم .

## « الحكمة فى إهباط آدم من الجنة إلى الأرض »

( قال ابن القيم ) فإن الله سبحانه لما اهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له فى ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصبُ الدنيا وعمومها ولوصا بها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم اليها فى الدار الأخرة فإن الضند يظهر حسنه ولو تربوا فى دار النعيم لم يعرفوا قدرها . وإيضا فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختيارهم وليست الجنة دار تكليف فأهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذى لم يكن لينال بدون الأمر والنهى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٨٧ كتاب الأيمان باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة رقم ١٣٣ – ٨١ انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٤٣ مسند أبى هريرة .
انظر صحيح ابن حبان ج ٤ ص ١٨٧ باب سجود التلاوة رقم ٢٧٤٨ .

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم فى مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه مالم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوه والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذى قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها . وأيضا فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن اسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحى المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطى ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته . وأيضا : فإنه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك . وايضا : فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إلا إيمانها فى الدنيا .

فلو خلقوا فى دار النعيم لم ينالوا درجة الايمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم فى دار النعيم لذة وكرامة غير هذه . وأيضا فإن الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، والأرض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه أن فى ظهره من لا يصلح لمساكنته فى داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته فى داره وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء . قال الله تعالى : ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾[1] فلما علم سبحانه أن فى ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التى هم لها أهل ، حكمة بالغة ، ومشيئه نافذة ذلك تقدير العزيز العليم . وأيضا فإنه سبحانه لما قال للملائكة ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ أجابهم بقوله ﴿ **إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[2] ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وللملائكته بما جعله فى الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه فى محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا الى ويترك شهواته ابتغاء مرضاتى ويبذل دمه ونفسه فى محبتى واخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدى آناء الليل واطراف النهار ويعبدونى مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعد إذ تعبدونى أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتريكم ولا عدو اسلطه عليكم بل عبادتكم لى بمنزلة النفس لأحدهم . وتم أيده فيدا للملائكة من علمه مالم يكونوا يعلمون . وأيضا فإنه

(١) سورة الأنفال آية ٣٧

(٢) سورة البقرة آية ٣٠

سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التى ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[1] .

وإيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبتهم له هى غاية كمالهم ونهاية شرفهم ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك أرادات النفس وشهواتها التى يكرهها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وتمام رحمته وهو البر الرحيم .

وأيضا : فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق فى حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الأختيارية التى يأتون بها طوعا واختيارا لاكرها واضطرارا . وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبى — ﷺ — يخبره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته فى اشرف مقاماته فى مقام الاسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى فقال فى مقام الاسراء ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ وقال فى مقام الدعوة ﴿ **وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ وقال فى مقام التحدى ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم واحسانه إليهم .

وأيضا : فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التذاذا بما أعطاهم من النعيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الألام وأشهدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحتهم وتتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد فى ذلك من إنزلهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم .

رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذى هو أحب الأشياء إليه فى أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب فى أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورا وعظمت لذته وكملت نعمته قال تعالى :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2] ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٥ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦

فى دار النعيم والبقاء إنما يحصل فى دار المحنة والابتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لادار ابتلاء وامتحان وتكليف .

وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعبادة عزته فى حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه فى سلطانه وملكه فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه ما يجنى عواقب اجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذرا فيها ، وأشد هروبا وهذا كحال رجل سائر على طريق كمنت الأعداء فى جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد فى سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم إغارة عدوه عليه وتبييته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا اهبتهم .

فإن قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنيه وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذى هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقا آخر غير بنى آدم فإن بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة .

وايضا لما كانت محبة الله وحده هى غاية كمال العبد وسعادته التى لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما يتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق فى طاعته ومرضاته فبهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها فى القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التى بإيثار الحق عليها والاعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك بتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغى والضلال ومجاهدتها يقوى سلطان المحبة وتنبت شجرتها فى القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فإن المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هى المحبة الحقيقة النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبة فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع فإن المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه ، وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبده على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء .

وايضا فإن الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لا نهاية بعده وكان ظهور الأسباب التى يحمد عليها من مقتضى كونه محمودا وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان ، فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلابد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فكما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا فيه سبحانه على هذا كثيرا كما فى سورة الشعراء حيث يذكر فى أخر كل

قصة من قصص الرسل وأممهم ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولأتباعهم ، ونقمته واهلاكه لاعدائهم إلا فى محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة .

ومصير كل منهم إلى ديارهم التى لا يليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾[٢] .

وايضا : فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فادت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبى بالأنعام وخص دون غيره بالإكرام ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحدا إلا فى مثل حالة ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح وفى الأثر المشهور أن الله سبحانه لما رأى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إنى أحب أن أشكر فاقتضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد . وأيضا فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه ، ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التى تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب فى دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين وأيضافإنه سبحانه له الخلق ق والأمر ، والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجرى عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هى دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأسره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى فى غير موضع من كتابه فقال تعالى ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[٣] أى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وأن ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الانكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر فى الفطر والعقول وقبح تركه سدا معطلا أيضا مستقر فى الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما قبحه مستقر فى فطركم وعقولكم ، وقال

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٩٠ – ١٩١ .

(٢) سورة الزمر آية ٧٥

(٣) سورة القيامة آية ٣٦

تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[١] .

نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا فى القرآن كثيرة .

وأيضا فإنه سبحانه يحب من عبادة أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا فى دار الابتلاء والامتحان فإنه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمة والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية مهلكة اذا وجدها كما ثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : ( لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكه معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى ادركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فوجد راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته )[٢] .

والمقصود أن هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لا زمان لهذا الفرج ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله فى دار النعيم التى لا ذنب فيها ولا مختلفة ممتنع ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب ـ سبحانه ـ من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية اليه ليترتب عليها المسبب الذى هو محبوب له وأيضا فإن الله ـ سبحانه ـ جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له فى ذلك من الحكمة التى اقتضتها اسماؤه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما فى صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : ( إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض )[٣] وحكمة الرب ـ سبحانه ـ مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾[٥] قالوا : وأما نفى دخولها بالأعمال كما فى قوله ﷺ ( لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ — ١١٦

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٣ كتابة التوبة باب الحصن على التوبة والفرح بها ـ رقم ٣ — ٢٧٤٤

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب صفة الجن ـ باب ما جاء فى صفات الجن ٤ / ٦٧٥ رقم ٢٥٣٠ .

(٤) سورة الزخرف الآية : ٧٢ .

(٥) سورة النحل الآية : ٣٢ .

يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته )[1] فالمراد نفى أصل الدخول ، وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التى نفى معها الدخول فالمقتضية هى باء السببية الدالة على الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، والباء التى نفى بها الدخول هى باء المعارضة والمقابلة التى فى نحو قولهم : اشتريت هذا بهذا فأخبر النبى ـ ﷺ ـ ان دخول الجنة ليس فى مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله ـ سبحانه ـ لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تناهى موجبا بمجردة لدخول الجنة ولا عوضا له فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهى لا تقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ، ولا تعاداها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمة وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه هو غير ظالم له ، ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله . والمقصود أن حكمته ـ سبحانه ـ لقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإبراهيم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة .

وأيضا فإنه ـ سبحانه ـ خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه بقوله : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾[3] وقول : ﴿ **ويستخلفكم** ﴾[4] فأراد ـ سبحانه ـ أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى ثوريته جنة الخلد وعلم ـ سبحانه ـ بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس ، فإن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولا فعلم ـ سبحانه ـ ما فى طبيعته من الضعف والخور فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عيانا فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلبا فإن محبة الشيء وطلبه والشوهد إليه من لوازم تصوره فمن باشر طيبه ولذته وتذوق به لم يكد يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقه تواقه فإذا ذاقت تاقت . ولهذا ذاق العبد لهم حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئا أبدا .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ المرفوع ( إن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألنى عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رواها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا )[5]فاقتضت حكمته أن أراها أياهم وأسكنه إياهم ثم قص على نبيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع إليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم

---

(١) البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب القصد والمداومة على العمل ٨ / ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٢٩

(٥) مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل مجالس الذكر ٤ ـ ٢٠٦٩ رقم ٢٦٨٩

الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقـل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ومـا الحب الا للحبـيب الأول

كم منـزل فى الأرض يألفـه الفتـى ... وحنينـه ابـدا لأول منـزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحـى على جنـات عدن فإنها ... منـازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننـا سبـى العـدو فهـل ترى ... نعـود إلى أوطاننـا ونسلـم

فكان إسكان آدم وذريته هذه الدار ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام إنعامه عليهم وسرها .

وأيضا : فإنه ـ سبحانه ـ جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كما لهم فأنزل لهم دارا ، أخرج منهم الأنبياء وبعث فيهم الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلا ، وكلم موسى تكليما ، واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيدا وخاصة يحبهم ويحبونه ، وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الإنعام والإحسان ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة فى الأرض ورأى آثارها علم تمام حكمته فى إسكان آدم وذريته فى هذه الدار إلى أجل معلوم فالله ـ سبحانه ـ إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدما لهم ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم دارا يتزودون منها إلى الدار التى خلقت لهم وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى فى هذه الدار : ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم** ﴾[1] فهذا شأن الانتقال فى الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾[2] فباع المغبونون منازلهم منها بأنجس الحظ وانقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[3] . فهو ـ سبحانه ـ ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة كما قيل على لسان القدر : ياآدم لا تجزع من قولى لك إخرج منها فلك خلقتها فإنى أنا الغنى عنها وعن كل شىء وأنا الجواد الكريم وأنا لا اتمتع فيها فإنى أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن إنزل إلى دار البذر فإذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيدا فحينئذ فتعالى فاستوفه أحوج ما أنت إليه الحبة بعشر امثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإنى أعلم بمصلحتك منك وأنا العلى الحكيم ( فإن قيل : ماذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل إن الجنة التى أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التى أعدت للمتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر إهباطه وإخراجه منها ) ولكن قالت طائفة منهم أبو سلم . منذر بن سعيد البلوطى . وغيرهما إنها إما كانت

(١) سورة النمل الآية : ٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٩٧ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١١١ .

جنة في الأرض في موضع عال منها إنها جنة المأوى التي اعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة ، وذكر منذر بن سعيد هذا القول في تفسيره عن جماعة فقال : وأما قوله لآدم : ﴿ **أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[1] فقالت طائفة : أسكن الله تعالى آدم ﷺ جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، وقال آخرون : هي جنة غيرها جعلها له الله وأسكنه إياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر عليه الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من خير الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقت وصفها الله تعالى لنا في كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به . قالوا : وجدنا الله ـ تبارك وتعالى ـ وصف الجنة التي أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ، ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ، ووصفها دار جزاء ولم يقل إنها دار ابتلاء ، وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين إليهايقولون : ( الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ) وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم ، وقال فيمن يدخلها (وما هم منها بمخرجين) وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال : (لا يمسهم فيها نص) وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند إصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب يعينه الذى نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمعه فيها إبليس الكذب وغره وقاسمه عليهأيضا بعد أن أسمعهإياه وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه في كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يظهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى ـ مقعد صدق وقد كذب إبليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون ولم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة في أعلى عليين والله تعالى إنما قال : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[2] ولم يقل إني جاعل في جنة المأوى ، فقالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[3] والملائكة اتقى لله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون : ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾[4] وفي هذا دلالة على أن الله قد أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون في الأرض .

وإلا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[5] والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال تعالى ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[6] والله تعالى ـ أخبرنا أن إبليس قال لآدم : ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[7] فإن كان قد

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٥
(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٣) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٣٠
(٥) سورة الأنبياء الآية : ٢٧
(٦) سورة النحل الآية : ٥٠
(٧) سورة طه الآية : ١٢٠

أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول : وكيف تدلنى على شيء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبه لان إبليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له إنما كان يكون زاريا عليه لأنه إنما وعده على معصية ربه كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا المجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول إبليس ولا قبل نصيحته ولكنه لما كان فى غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا ، لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمر الله به وهو معتقد لله لتصديق بخبر ربه فهو عاص . وإنما سمى الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا : فإن كان آدم اسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فيكف توصل إليها إبليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة إنما هى دار المتقين ، وإبليس غير تقى فبعد أن قيل له : ﴿ **إهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾ له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والأبعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى ﴿ **فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[(١)] فإن كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبر ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول إن إبليس لم يصل إليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده وقول الله تعالى ـ حكم بيننا وبينه وقوله تعالى : ﴿ **وقاسمهما** ﴾ يرد ما قال لان المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهه ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا إحدهما ومما يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[(٢)] فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه إنما وسوس إليه مخاطبا لا أنه أوقع ذلك فى نفسه بلا مقاومة ، فمن أدعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة : وسوس يدعو مخلصا رب الفلق .

وقال الأعشى : تسمع للحلى وسواسا إذا أنصرفت .

كما استعان بريح عشرق زجل .

قالوا : وفى قول إبليس لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ، ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله : ﴿ **ألم انهكما عن تلكما الشجرة** ﴾[(٣)] ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال إبليس لأن آدم لم يكن حينئذ فى الجنة ولا مشاهدا للشجرة مع قوله عز وجل : ﴿ **إليه**

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣

(٢) سورة طه الآية : ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٢

**يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾**[(١)] فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه إنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا ذكره أنه لا يلج لمقدس المطهر إلّا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة إبليس مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هى شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة إبليس ولا ولجت القدس . قال تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾[(٢)] وقد روى عن النبى ﷺ أن آدم نام فى جنته وجنة الخلد لا نوم فيها بإجماع من المسلمين لان النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار والسلام مسلمة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كالميت قالوا : وقد روى عنه ــ ﷺ ــ أنه قال لأم حارثة لما قالت له : يارسول الله إن حارثة قتل معك فإن كان صار إلى الجنة صبرت واحتسبت وإن كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ (أو جنة واحدة إنما هى جنات كثيرة)[(٣)] فأخبر ﷺ ان لله جنات كثيرة فلعل آدم اسكنه الله جنة من جناته ليست هى جنة الخلد قالوا : وقد جاء فى بعض الأخبار إن جنة آدم كانت بأرض الهند وهذا

وإن كان لا يصممه رواة الأخبار ونقلة الآثار فالذى تقبله الألباب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ، ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فإذا قيل للجنة دار الخلد لم يجز أن ينقص مسمى هذا الأسم بمال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلم هذا فإسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم فى دار الابتلاء والأئتمان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التى ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة ( فالجواب ) أن يقال : هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولا قول من قال : إنها جنة الخلد التى وعدها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال : إنها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وإبطال الآخر إذ ليس عرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاخراج آدم من الجنة وإسكانه فى الأرض فى دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله ــ سبحانه ــ تأبى إدخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة فى ذلك والرد على من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التى لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق ــ كنى به عن اللسان ــ لا يحصل غرضا ولا يزيل مرضا فسلكنا هذا السبيل ليكون قولهم

(١) سورة فاطر الآية : ١٠

(٢) سورة المطففين الآية : ٧

(٣) البخارى ــ كتاب الرقاق ــ باب صفة الجنة ٨ / ١٤١

مردودا على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله فنقول : أما ما ذكرتموه من كون الجنة التى أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هى جنة غيرها فهذا مما قد أختلف فيه الناس والأشهر عند الخاصة والعامة لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وابو مالك عن ربعى بن خراش عن حذيفة قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( يجمع الله ـ عز وجل ـ الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم ـ عليه السلام ـ فيقولون يأبانا ستفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث )[١] قالوا : فهذا يدل على ان الجنة التى أخرج منها آدم هى بعينها التى يطلب منه أن يستفتحها لهم قالوا : ويدل عليه أن الله سبحانه ﴿ **قال ياآدم أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[٢] عقيب قوله : اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولا فى الأرض ، وأيضا فإنه سبحانه وصف الجنة التى أسكنها آدم بصفات لا تكون فى الجنة الدنيوية فقال تعالى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[٣] وهذا لا يكون فى الدنيا أصلا ولو كان الرجل فى أطيب منازلها فلابد أن يعرض له الجوع والظمأ والعر والضحى والشمس وأيضا : فإنها لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى ، وأيضا فإن قصة آدم فى سورة البقرة ظاهرة جدا فى أن الجنة التى أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا ياآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[٤] فهذا إهباط آدم وحواء ، وإبليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل : إنه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للحية فى شيء من قصة آدم وإبليس . وقيل : خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله : ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾[٥] قيل : لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول لأنها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن إبليس داخل فى هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة ثم قال : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٦]

وهذا الاهباط الثانى لابد أن يكون غير الأول وهو إهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التى

---

(١) مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١ / ١٨٧ رقم ٣٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة طه الآية : ١١٨

(٤) سورة البقرة الآيات : ٣٤ ـ ٣٧

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٧٨

(٦) سورة البقرة الآية : ٣٨

أهبطوا منها أولا فوق السماء وهى جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشرى إلى أن قوله : أهبطوا منها جميعا خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما . وقال : الدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى** ﴾[1] وقال : يدل على ذلك قوله ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ويعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية ، فإن العداوة التى ذكرها الله إنما هى بين آدم وإبليس وذرياتهما كما قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[2] وأما آدم وزوجه فإن الله ــ سبحانه ــ أخبر فى كتابه أنه خلقها منه ليسكن إليها وقال سبحانه ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[3] فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وإبليس وذرياتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير إليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجة وإبليس فى قولهم : فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ، فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وإبليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فإن قيل : فما تصنعون بقوله فى سورة طه : ﴿ **قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو** ﴾[4] وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد اخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل : إما أن يكون الضمير فى قوله : إهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وإبليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له ، وعلى الثانى فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وإبليس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على امرين . أحدهما مرة لآدم وزوجه بالهبوط . والثانى جعله العداوة بين آدم وزوجه وإبليس ولابد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى : ﴿ **إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾[5] وقال لذريته : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[6] وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية وإما ذكر الإهباط ، فتارة يأتى بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الأفراد لإبليس وحده كقوله تعالى : ﴿ **قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[7] فهذا الاهباط لإبليس وحده والضمير فى قوله منها قيل : إنه عائد إلى الجنة ، وقيل : عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغه الجمع كان لآدم وزوجه وإبليس إذ مدار القصة عليهم ، وحيث أتى بلفظ التثنية فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٣

(٢) سورة فاطر الآية : ٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٣

(٥) سورة طه الآية : ١١٧

(٦) سورة فاطر الآية : ٦

(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١٢ — ١٣

المعصية وإما أن يكون لآدم وإبليس إذهما أبو الثقلين فذكر حالهما وما آل إليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما . والقولان محكيان فى ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده . وأيضا فالذى يوضح أن الضمير فى قوله : اهبطا منها جميعا لآدم وإبليس أن الله ـ سبحانه ـ لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا** ﴾[1] وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا وهذا لأن المقصود إخبار الله ـ تعالى ـ لعبادة المكلفين من الجن والانس بما جرى على ابويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما فى ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ فى حصول هذا المعنى من ذكر ابوى الانس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكله فعلم أن هذا اقتضاء حكم الزوجية أنها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبى الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقوله : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾[2] ظاهر فى الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين فى قوله اهبطا .

قالوا : وأما قولكم إنه كيف وسوس له بعد إهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى : اهبط . فجوابه من وجوه : احدها : أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها دارا فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل الشرط دار من أمروا بابتلائه ومحنته وإن لم يكونوا إلا لسكنى تلك الدار . الثانى : أنه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما . الثالث : أنه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنة . الرابع : أنه قد روى أنه قد أراد الدخول عليهما فمنعته الخزنة فدخل فى فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا : ومما يدل على أنها جنة الخلد بعينها أنها جاءت معرفة بلام التعريف فى جميع المواضع كقوله : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[3] ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها .

إلا جنة الخلد التى وعد الرحمن عبادة بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة وإن كان فى أصل الوضع عبادة عن البستان ذى الثمار والفواكة وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرفا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة فى قلوب المؤمنين . وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة كقوله : ﴿ **جنتين من أعناب** ﴾[4] أو مقيدة بالاضافة كقوله : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك** ﴾[5] أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة فى الأرض كقوله : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذا أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[6] الآيات فهذه السياق والتقييد يدل على أنها بستان فى

---

(١) سورة طه الآيتان : ١٢١ – ١٢٢

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣٢

(٥) سورة الكهف الآية : ٣٩

(٦) سورة القلم الآية : ١٧

الأرض . قالوا : وأيضا فإنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الأحاديث عن النبى — ﷺ — بذلك كما فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى — ﷺ — أنه قال : ( إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعدة بالغداه والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة )[1] وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى — ﷺ — قال :﴿اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلنى إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار عذابى أعذب بك من أشاء ﴾[2] الحديث وفى السنن عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : ( لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال أذهب فانظر إليها وإلى ما أعدت لأهلها قال فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها ـ الحديث )[3] وفى حديث الاسراء ( ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا ورقها مثل أذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا اربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال : أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران فى الجنة ـ وفيه ايضا ( ثم أدخلت الجنة فإذا جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك )[4] وفى صحيح البخارى عن أنس عن النبى — ﷺ — قال : ( بينا أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال : فإذا طينه مسك أذخر )[5] وفى صحيح مسلم فى حديث الكسوف أن النبى — ﷺ — ( جعل يتقدم ويتأخر فى الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال إنه عرضت لى الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا )[6] وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[7] أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك أطلاعة فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث .... والآثار فى هذا الباب أكثر من أن تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزله ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون : إن الجنة التى اهبط منها آدم إنما

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه صفحة ٨٠٤ رقم ١٨٢٢ طبعة الكويت .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب النار يدخلها الجبارون يدخلها الضعفاء ص ٧٩٨ رقم ١٨٠٩ طبعة الكويت .

(٣) سنن ابى داود ـ كتاب السنة ـ باب خلق الجنة والنار ٥ / ١٠٨ رقم ٤٧٤

وسنن الترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب جفت الجنة بالمكارة ٤ / ٦٩٣ رقم ٢٥٦٠ وسنن النسائى ـ كتاب الايمان والنذور ـ باب الحلف بعزة الله ٧ / ٣

(٤) البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٤ / ١٣٣ ومسلم ـ كتاب الايمان ـ باب الأسراء بالرسول إلى السموات وفرض الصلوات ١ / ١٤٥ رقم ٢٥٩

(٥) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب فى الحوض ٨ / ١٤٩

(٦) مسلم ـ كتاب الكسوف ـ باب ما عرض على النبى — ﷺ — فى صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢ / ٦٢٢ رقم ٩٠٤

(٧) سورة آل عمران الآية : ١١٩

كانت جنة بشر فى الأرض وهذه الأحداث وأمثالها ترد قولهم . قالوا : وأما احتجاجكم سائر الوجوه ذكرتموها فى الجنة وأنها منتفية فى الجنة التى أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعرق وغير ذلك فهذا كله حق لا ننكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمن يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام ، وهذا لا ينهض أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله — عز وجل — من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله به — عز وجل — فلا تنافى بين الأمرين . قالوا : وأما قولكم إن الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله — سبحانه — آدم فيها بالنهى عن الشجرة فجوابه من وجهين احدهما : أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمن يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكليف ، وأما امتناع وقوع التكليف فيها فى دار الدنيا فلا دليل عليه . الثانى : ان التكليف فيها لم يكن بالأعمال التى يكلف بها الناس فى الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجرا عليه فى شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه فى جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فإن اردتم بأن الجنة ليست دار تكليف إمتناع وقوع مثل هذا فيها فى وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أغالب التكاليف التى تكون فى الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم قالوا : وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يعرج عليه ولا يلتفت إليه . قال الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل . أما المجمل فإنكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير اليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا التابعين لا سندا ولا مقطوعا ونحن نواجهكم بمن قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان ابن عيينة قال فى قوله عز وجل : ﴿ **إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾[1] .

قال : معين فى الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال فى معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ، إن الله سبحانه — اخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التى منها أخذ وهذا أبى قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون ياابن آدم قالوا : إن أبانا اشتهى قطفا من قطف الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا : هذه سنتكم فى موتاكم .

وهذا ابو صالح قد نقل عن ابن عباس فى قوله : اهبطوا منها قال : هو كما يقال : هبط فلان فى أرض كذا وكذا . وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق فى الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وأنه كان بعدن وأن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذى وسط الجنة وهو الذى كان يسقيها وهذا منذر بن سعيد البلطى اختاره فى تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه فى غير التفسير عن أبى حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله فى هذه المسئلة . وهذا أبو مسلم الأصبهانى صاحب التفسير وغيره احد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه فيما هو معروف فى كتابه ، وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطيه

(١) سورة طه الآية ١١٨

ذكر القولين فى تفسير قصة آدم فى البقرة ، وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين فى كتاب الملل والنحل له .. وممن ذكر الخلاف فى المسألة ابو عبد الله بن الخطيب الرازى فى تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثا وهو التوقف قال : لا مكان الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ، ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو انها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض ، وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان إبليس فيها ثم اخرج قال : ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . وممن ذكر القولين ايضا ابو الحسن الماوردى فقال فى تفسيره : واختلف فى الجنة التى أسكناها على قولين أحدهما : إنها جنة الخلد . الثانى أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين : أحدهما فى السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن ، والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب فى تفسيره : اختلفوا فى أن الجنة المذكورة فى هذه الآية هل كانت فى الأرض أو فى السماء وبتقدير أنها كانت فى السماء فهل هى الجنة التى هى دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال ابو القاسم البلخى ، وأبو مسلم الأصبهانى فى هذه الجنة فى الأرض وحملا الإهباط على الإنتقال من بقعة إلى بقعة كما فى قوله تعالى : ( اهبطوا مصرا ) ، القول الثانى وهو قول الجبائى أن تلك كانت فى السماء السابعة قال : والدليل عليه قوله : ﴿ **اهبطوا** ﴾ ثم إن الاهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، والاهباط الثانى كان من السماء إلى الأرض والقول الثالث وهو قول الجمهور أصحابنا ان هذه الجنة هى دار الثواب والدليل عليه هو أن الألف واللام فى لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلابد من صرفها إلى المعهود السابق والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هى دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال : والقول الرابع : أن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع . قالوا : ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نقلد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا : وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه الكفاية .

وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق :

أما استدلالكم بحديث أبى هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم . فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التى طلبوا منه أن يستفتحها لهم هى التى أخرج منها بعينها فإن الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب** ﴾[٢] .

---

(٢) سورة القلم الآية : ١٧

(٣) سورة الاسراء الآيتان : ٩٠ — ٩١

وقال تعالى : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة** ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾[(٢)].

فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التى أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته هذا الذى دل عليه الحديث . وأما كون الجنة التى أخرج منها هى بعينها التى طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ . **قالوا** : اما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفل .. فجوابه من وجهين : أحدهما أن الهبوط قد استعمل فى النقلة من أرض إلى أرض كما يقال : هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى : ﴿ **اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم** ﴾[(٣)] وهذا كثير فى نظم العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح .

الثانى أنا لا ننازعكم فى أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التى منها الهبوط فوق السموات فإذا كانت فى أعلى الأرض أما يصح أن يقال : هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه وأما قوله تعالى : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[(٤)] فهذا يدل على أن الأرض التى أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا فى جنة عالية أعلى من الأرض التى أهبطوا إليها تخالف الأرض فى صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله ـ سبحانه ـ فاوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت وهذا مشهور بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكون إلا فيها ثم اهبطوا منها إلى الأرض التى هى محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو جواب عن استدلالكم بقوله تعالى : ﴿ **إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾[(٥)] إلى آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فإنه ـ سبحانه ـ انما قال ذلك عقيب قوله : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ وقوله ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ وهو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها ، والمعنى ان اجتنبت الشجرة التى نهيتك عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد .

قال : وأما قولكم : إنه لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى قوله : ﴿ **هل أدلك على**

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٥

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٣٩

(٣) سورة البقرة الآية : ٦١

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٥) سورة طه الآية : ١١٨

**شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾**[1] إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله سبحانه وتعالى ــ كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك نقول إبليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فإن الخلد فى لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم : قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى لثمود : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾[2] ﴿ **وملك لا يبلى** ﴾ يراد به الملك الطويل الثابت : وأيضا فلا وجه للاعتذار عن قول إبليس مع تحقيق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد اخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بأن اطمعهما فى خلد الأبد والملك الذى لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التى سكنها آدم هى جنة الخلد التى وعدها المتقون غير بين ، ثم نقول : لو كانت الجنة هى جنة الخلد التى لا يزول ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلا يكن للشجرة اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من إبليس إذ قد علم أن الجنة دار الخلد فإن قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بان هذه الشجرة وحدها هى الشجرة الخلد . قلنا : فاقتنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير ما نقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق ، ( قالوا : وأما قولكم : إن قصة آدم فى البقرة ظاهرة جدا فى أن جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إيتانه ، قولكم : إنه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولابد أن يفيد الثانى غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثانى من السماء والهبوط الأول إلى الأرض وهو آخر الهبوطين فى الوقوع وإن كان أولهما فى الذكر وقالت طائفة أتى به على وجهه التغليظ والتأكيد كما تقول للرجل أخرج أخرج وهذه الأقوال ضعيفة فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه احدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ، ولا من خبر يجب المصير إليه وما كان من هذا لا يحمل القرآن عليه . الثانى : أن الله ــ سبحانه ــ قد اهبط إبليس لما امتنع من السجود لآدم إهباطا كونيا قدريا لا سبيل له إلى التخلف عنه فقال تعالى : ﴿ **اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾[3] .

وسواء كان الضمير فى قوله ( منها ) راجعا إلى السماء أو إلى الجنة فهذا صريح فى إهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد إليها بعد إهباط الله له . وأما الوجوه الأربعة التى ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهى مع أمر الله تعالى ــ بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذى يجب المصير إليه وما هى إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث : أن سياق إهباط الله تعالى ــ لابليس ظاهرة فى أنه إهباط إلى الأرض من وجوه .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٢٨

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

احدها : أنه سبحانه فيه على حكمة إهباطه بما قام به من التكبر المقتضى غاية طله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو إهباطه من فوق السموات إلى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثانى : أنه قال : ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم وأن عليك لعنتى إلى يوم الدين** ﴾[1] وكونه رحيما ملعونا ينفى أن يكون فى السماء بين المقربين المطهرين . وأما القول الثانى : فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر فى الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذى قبله .

وأما القول الثالث : وهو أنه للتأكيد فإن أريد التأكيد اللفظى المجرد فهذا لا يقع فى القرآن ، وإن أريد أنه استلزم للتغليظ والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال أعيد الإهباط مرة ثانية لأنه علق الأول عداوة بعضهم بعضا فقال : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾[2] وهذه جملة حالية وهى اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثانى حكمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعا والثانى قوله : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[3] فكأنه قيل : اهبطوا بهذا الشرط مأخوذا عليكم والعهد . ففى الاهباط الأول إيذان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة ، وفى الاهباط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاحباط الأول وجبر .

وجبر من اتبع هداه بالاهباط الثانى على عادته ـ سبحانه ـ ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالاخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداه ومن تدبر حكمته ـ سبحانه ـ ولطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويدله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعاقبة والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته .

قالوا : وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم .

قالوا : وأما قولكم : إن الجنة إنما جاءت معضرة بلالام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلا ريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى ـــ آدم اسكنها بقوله : ﴿ **أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[4] فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه ـ عنها معرفا لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا

---

(١) سورة ص الآيتان : ٧٧ – ٧٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٥

ما يدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلأنها الجنة التى أخبرت بها الرسل لأممهم ووعدها الرحمن عبادة بالغيب فحيث ذكرت الذهن إليها دون غيرها ، وقد جاءت الجنة فى القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان فى بقعة من الأرض كقوله : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[(١)] فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال .

قال : وأما قولكم إنه قد أتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم ينازع فى ذلك إلا أهل البدع والضلال واستدلالكم على وجود الجنة الآن فحق لاننازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أى تلازم يبين أن تكون هى جنة آدم بعينها فكأنكم تزعمون أن كل من قال إن جنة آدم هى جنة فى الأرض فلابد أن يقول : إن الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول : إن جنة آدم هى فى الأرض وكذلك بالعكس أن كل من قال : إن جنة آدم فى الأرض فيقول : إن الجنة لم تخلق فأما الأول فلا ريب فيه ، وأما الثانى .

فوهم لا تلازم بينهما لا فى المذهب ولا فى الدليل فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على إنكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح قالوا : وأما قولكم : إن جميع ما نفاه الله سبحانه ـ عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التى وجد بعضها من إبليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين احدهما : أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى : ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾[(٢)] ولقوله تعالى : ﴿ **لا تسمع فيها لاغية** ﴾[(٣)] فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه الا بمخصص بين ، والله سبحانه ـ قد حكم دار الخلد حكما مطلقا فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثانى : أن ما ذكرتم إنما يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض القادم انها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فأما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة مادلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم .

قالوا ومما يدل على أنها ليست جنة الخلد التى وعدها الله المتقون أن الله سبحانه ـ لما خلق آدم أعلمه أن لعمره اجلا ينتهى إليه وأنه لم يخلق للبقاء .. فإن قيل : فإذا آدم كان قد علم أن له عمرا ينتهى إليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب إبليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له : ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[(٤)] بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعا فى الخلد فالجواب ما تقدم من الوجهين أما أن يكون المراد بالخلد المكث الطويل لأبد أن يكون عدوه إبليس لما قسمه وزوجه وغرهما واطمعهما بدوامهما فى الجنة نسى ما قدر له من عمره قالوا والمعول عليه فى ذلك قوله تعالى للملائكة : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض**

---

(١) سورة القلم الآية : ١٧

(٢) سورة الطور الآية : ٢٣

(٣) سورة الفاشية الآية : ١١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٠

**خليفة** ﴾(١) وهذا الخليفة هو آدم بإتقان الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾(٢) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذى هو جاعله فى الأرض ليس حاله كما توهمتم من الفساد بل أعلمه من علمى مالا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم** ﴾(٣)وهذا يدل على أن الخليفة الذى سبق به اخبار الرب ـ تبارك وتعالى ـ فضله وشرفه وأعلمه بما لا تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول فى الأرض لا فوق السماء فإن قيل قوله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾(٤) إنما هو بمعنى سأجعله فى الأرض فهى مآله ومصيره وهذا لا ينافى أن يكون فى جنة الخلد فوق السماء أولا ثم يصير إلى الأرض للخلافة التى جعلها الله له ، واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال . ولهذا انتصب عنه المفعول ، فالجواب أن الله سبحانه ـ أعلم ملائكته بأن يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلد وخبره الصدق وقوله الحق ، وقد علمت الملائكة أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلد فوق السماء لم يظهر الملائكة وقوع المخبر ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قوله لهم ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾(٥) فإنهم إنما سألوا هذا السؤال فى حق الخليفة المجعول فى الأرض فأما من هو فى دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد فى الأرض ولا كان إظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم . بل الذى يحصل به جوابهم ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو هناك الا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله ، وأما اسم الفاعل هو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى ـ فى المستقبل من جعله الخليفة فى الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر فى أنه من أول الأمر جعله خليفة فى الأرض ، وأما جعله فى السماء أولا ثم جعله خليفة فى الأرض ثانيا وإن كان مما لا ينافى الإستخلاف المذكور مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله .

وأيضا من المعلوم الذى لا يخالف فيه مسلم أن الله سبحانه ـ خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب .. ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما اخبر عن إسجاد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه .. قالوا وقد قال تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٣) سورة البقرة الآية : ٣٢
(٤) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٥) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٦) سورة هود الآية : ١٠٨

فأخبر سبحانه أن هذا العطاء فى جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك الجنة جنة الخلد ...

قالوا : وأيضا فإنه ـــ سبحانه ـــ قد أخبر فى كتابه أنه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وانكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا جنة آدم هى جنة الخلد لكانوا قد خلقوا فى ذار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقول : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾[1] قال الشافعى وغيره : معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾[2] فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها .

قالوا : وأيضا فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ فلم يكن ليسكنها من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان وبالجملة فحكمته ـــ تعالى ـــ اقتضت أنها لا تنال إلا بعد الابتلاء والإمتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه ـــ سبحانه ـــ لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا : فإذا جمع ما أخبر الله ـــ عز وجل ـــ به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة فى الأرض وأن إبليس وسوس له فى مكانه الذى أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليس من السماء ، وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة ، وأن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، وأن من دخلها لا يخرج منها أبدا ، وأن من دخلها ينعم لا ييؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن ، فمحال أن يدخلها أصلا لا دول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعيم لاداء ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التى أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان .

قال الآخرون : بل الجنة التى اسكنها آدم عند حلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هى جنة الخلد ومن قال إنها كانت جنة فى الأرض بأرض الهند أو بأرض جده أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين والمنتزلة أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين فإن هذا يقوله من المتفلسفة والمنتزلة والكتاب يرد هذا القول وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضهم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[3] فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه أمرهم بالهبوط وأن بعضهم لبعض عدو ثم قال : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[4] وهذا بين أنهم لم يكونوا فى الأرض وإنما أهبطوا منها إلى الأرض فإنهم لو كانوا فى الأرض وانتقلوا منها إلى أرض أخرى كما

---

(١) سورة القيامة الآية : ٣٦

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١١٥

(٣) سورة البقرة الآيات : ٣٤ — ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦ .

انتقل قوم موسى من أرض كان مستقرهم إلى حين فى الأرض قبل الهبوط كما بعده وهذا باطل .

قالوا : وقد قال تعالى فى سورة الاعراف لما قال إبليس : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين** ﴾[١] بين اختصاص الجنة التى فى السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فإن إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير فى قوله : ( فيها ) عائد إلى معلوم وإن كان غير مذكور فى اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا هذا بخلاف قوله : ﴿ **إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم** ﴾[٢] فإنه ذكر مدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو إلى سفل وبنو إسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذى يهبطون إليه ومن هبط من جيل إلى واد قيل له اهبط . وقال تعالى عقب قوله : ﴿ **إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾[٣] فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك فى مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح فى أنهم إنما صاروا إليه بعد الإهباط . قالوا : ولو لم يكن فى هذه الا قصة آدم وموسى لكانت كافية فإن موسى — ﷺ — إنما لام آدم — عليه السلام — لما حصل له وذريته من الخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستانا فى الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان فى الأرض قالوا : وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب إليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فإن ظهور هذا فى كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتح وقد أخرج منها بخطيئتهم من أظهر الأدلة .

قال الأولون : أما قولكم أن من قال إنها جنة فى الأرض فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من إخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء ومشاركة أهل الباطل للمحق فى المسألة لا يدل على بطلانها ولا تكون إضافتها لهم موجبة لبطلانها مالم يختص بها فإن اردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك ، وإن أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يفدكم شيئا . قالوا : وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا : ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خير يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبى — ﷺ — قال : إن الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التى هى دار المتقين يوم المعاد قالوا : وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف انها ليست جنة الخلد قالوا : ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا : إن جنة آدم التى خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذلين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين فى تفسيره قال : سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة قال :

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٢ — ١٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٦١

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٤

السكوت عن هذا أفضل . قالوا : فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التى أسكنها آدم هى جنة الخلد لم يشك أنها مخلوقة ولم يتوقف فى ذلك وقال ابن قتيبة فى كتابه غريب القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها** ﴾(١) قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فى رواية أبى صالح : هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر فى كتابه غيره فأين إجماع سلف الأمة وأئمتها .

قالوا : وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾(٢) عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا فى جنة الخلد فإن أحد الأقوال فى المسألة أنها كانت جنة فى السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى فى تفسيره وقد تقدم .

وأما قوله تعالى لابليس : ﴿ **اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾(٣) وقولكم : إن هذا إنما هو الجنة التى فى السماء وإلا فجنة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا فى المسألة فإن جنة الخلد لا سبيل لابليس إلى دخولها والتكبّر فيها أصلا ....

قالوا : وأما قولكم أن بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التى يهبطوا وهم كأنوا يسيرون ويرحلون فلذلك قيل لهم : اهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فإن الهبوط يدل على أن تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التى إهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا : والفرق بين قوله : ﴿ **إهبطوا مصرا** ﴾ وقوله ﴿ **إهبطوا منها** ﴾ لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لابتداء الغاية ونهايتها فى تعيين محل الهبوط بأنه جنة الخلد . وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان فى الأرض تشنيع لا يفيد شيئا أفترى كان ذلك بستانا مثل آدم هذه البساتين المقطوعة التى هى عرضة للآفات والتعب والنصب والظمأ والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذى يلحق هذه البساتين ولا ريب أن موسى – عليه الصلاة والسلام – أعلم وأجل من أن يلوم آدم على خروجه وإخراج بنيه من بستان هذا شأنه ، ولكن من قال بهذا ، وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع سكانها ولا يظمأ للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشفاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب فى خروجه منها .

قالوا : وأما اعتذار آدم – عليه الصلاة والسلام – يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هى التى أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هى بعينها التى أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ فى الإعتذار فإنه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة . فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية أقدام

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

الطائفين فمن كان له فضل علم فى هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة إليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلول الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال فى حلبة هذا الميدان .

هذه معاقد حجج الطائفين مجتازة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها فى سوق وسعة وبذل جهده منه التصويت والمندرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين وأنجس الحظين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم إبراهيم فقد ذكرنا فى هذه المسألة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد فى شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله ــ سبحانه ــ الاستمداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره إليه وهو حسبنا ونعم الوكيل . هـ .

بهذه الكلمات ينتهى البحث الجليل الذى قدمه لنا العالم الجليل ابن القيم فى كتابه ( مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ) .

## تفسير سورة الزمر

## بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : ( السورة مكية إلا ثلاث آيات : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأنتم تشعرون** ﴾ عدد آياتها : خمس وسبعون فى عد الكوفى وثلاث فى عد الشامى ، والباقين .

**كلماتها** : ألف ومائة وسبعون .

**وحروفها** : أربعة آلاف وسبعمائة وثمان .

**وللسورة اسمان** : سورة الزمر ، لقوله تعالى : ﴿ **إلى الجنة زمرا** ﴾ وسورة الغرف ، لقوله : ﴿ **لهم غرف من فوقها غرف** ﴾ قال وهب : من أراد أن يعرف قضاء الله فى خلقه فليقرأ سورة الغرف .

**مقصود السورة :**

بيان تنزيل القرآن ، والاخلاص فى الدين ، والإيمان ، وباطل عذر الكفار فى عبادة الأوثان ، وتنزيه الحق تعالى عن الولد بكلمة ( سبحانه ) وعجائب صنع الله فى الكواكب والأفلاك بلا عمد وأركان ، والمنة على العباد بإنزال الإنعام من السماء فى كل آوان ، وحفظ الأولاد فى أرحام الأمهات بلا أنصار وأعوان ، وجزاء الخلق على الشكر والكفران ، وذكر شرف المتهجدين فى الدياجر بعبادة الرحمن ، وبيان أجر الصابرين وذل

أصحاب الخسران ، وبشارة المؤمنين فى استماع القرآن بإحسان ، وإضافة غرف الجنان لأهل الاخلاص والعرفان ، وشرح صدر المؤمنين بنور التوحيد والإيمان ، وبيان أحوال آيات الفرقان ، وعجائب القرآن ، وتمثيل أحوال أهل الكفر وأهل الإيمان ، والخطاب مع المصطفى بالموت والفناء ، وتحلل الأبدان ، وبشارة أهل الصدق بحسن الجزاء والغفران والوعد بالكفاية والكلاءة للعبدان ، وبيان العجز من العون والنصرة للأصنام والأوثان ، وعجائب الصنع فى الرؤيا ، والنوم وما له من غريب الشأن ، ونضرة الكفار من سماع ذكر الواحد الفرد الديان ، والبشارة بالرحمة لأهل الايمان ، وإظهار الحسرة والندامة يوم القيامة من أهل العصيان ، تأسفهم فى تقصيرهم فى طاعة زمان الإمكان ، وإضافة الملك إلى قبضة قدرة الرحمن ، ونفخ الصور على سبيل الهيبة ، والسياسة ، وإشراف بنور العدل ، وعظمة السلطان ، وسوق الكفار بالذل والخزى إلى دار العقوبة والهوان ، وتفريح المؤمنين بالسلام عليهم فى دار الكرامة ، وغرف الجنان ، وحكم الحق بين الخلق بالعدل وختمه بالفضل والإحسان فى قوله : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

**المتشابهات :**

قوله ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ وفى هذه السورة أيضا ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق** ﴾ الفرق بين ﴿ **أنزلنا إليك الكتاب** ﴾ و ﴿ **أنزلنا عليك** ﴾ قد سبق فى البقرة . ويزيده وضوحا أن كل موضع خاطب ( فيه ) النبى — ﷺ — بقوله : إنا أنزلنا إليك الكتاب ففيه تكليف ، وإذا خاطبه بقوله : إنا أنزلنا عليك ففيه تخفيف : اعتبر بما فى هذه السورة . فالذى فى أول السورة ( إليك ) فكلفه الاخلاص فى العبادة ، والذى فى آخرها ﴿ **عليك** ﴾ فختم الآية بقوله ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى لست بمسئول عنهم ، فخفف عنه ذلك .

قوله : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ زاد مع الثانى لاما ، لأن المفعول مع الثانى محذوف ، تقديره : وأمرت أن أعبد الله لأن أكون ، فاكتفى بالأول ﴿ **مخلصا له الدين** ﴾ لأن قوله : ﴿ **الله أعبد** ﴾ إخبار عن المتكلم ، فاقتضى الاضافة إلى المتكلم ، وقوله ﴿ **أمرت أن أعبد الله** ﴾ ليس بإخبار عن المتكلم ، وإنما الاخبار ﴿ **أمرت** ﴾ ، وما بعده فضلة ومفعول .

وقوله : ﴿ **ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ وفى سورة النحل ﴿ **وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

وكان حقه أن يذكر هناك . خصت هذه السورة بـ ( الذى ) ليوافق ما قبله . وهو ﴿ **أسوأ الذى** ﴾ ، وقبله ﴿ **والذى جاء بالصدق** ﴾ وخصت النحل بـ ( ما ) للموافقة أيضا وهو ﴿ **إنما عند الله هو خير لكم** ﴾ ﴿ **ما عندكم ينفذ وما عند الله باق** ﴾ فتلاءم اللفظان فى السورتين قوله : ﴿ **وبداهم سيئات ما كسبوا** ﴾ وفى سورة الجاثية ﴿ **وبداهم سيئات ما عملوا** ﴾ علته مثل علة الأولى ؟ لأن ﴿ **ما كسبوا** ﴾ فى هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب ، وهو قوله : ﴿ **ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ وفى الجاثية وقع بين ألفاظه العمل وهو : ﴿ **ما كنتم تعملون** ﴾ ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ وبعده ﴿ **سيئات ما عملوا** ﴾

فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه .

قوله : ﴿ **ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما** ﴾ وفى سورة الحديد ﴿ **ثم يكون حطاما** ﴾ ، لأن الفعل الواقع قبل قوله ﴿ **ثم يهيج** ﴾ فى هذه السورة مسند إلى الله تعالى ، وهو قوله : ﴿ **ثم يخرج به زرعا** ﴾ فكذلك الفعل بعده : ﴿ **ثم يجعله** ﴾ وأما الفعل قبله فى الحديد فمسند إلى الثبات وهو ﴿ **أعجب الكفار بناته** ﴾ فكذلك ما بعده وهو ﴿ **ثم يكون** ﴾ ليوافق فى السورتين ما قبل وما بعد .

قوله : ﴿ **فتحت أبوابها** ﴾ وبعده ﴿ **وفتحت** ﴾ بالواو للحال ، أى جاءوها وقد فتحت أبوابها . وقيل الواو فى ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ زيادة ، وهو الجواب . وقيل : الواو واو الثمانية . وقد سبق فى الكهف .

قوله : ﴿ **فمن اهتدى فلنفسه** ﴾ وفى غيرها : ﴿ **فإنما يهتدى لنفسه لأن هذه السورة متأخرة عن تلك السورة ، فاكتفى بذكره فيها** .

## فضل السورة

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل ـ سورة الاسراء ـ والزمر ، ( رواه والنسائى ) .

**وجه اتصالها بما قبلها :**

١ ـ إنه وصف القرآن فى آخر سورة ص بقوله : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ ووصفه هنا بقوله : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ .

**٢ ـ إنه ذكر فى ( ص ) أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله ـ إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ

هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

## « تفسير المفردات »

مخلصا له الدين : أى : فاعبد الله وحده لا شريك له .

زلفى : قربة ، سبحانه : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

## « التفسير »

قوله تعالى : **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده – تبارك وتعالى – فهو الحق الذى لا مريه فيه ولا شك كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **أ . ل . م تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قبلك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال جل وعلا** : ﴿ **حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ وقال تبارك اسمه ﴿ **تنزيل العزيز الحكيم** ﴾ وقال جل وعلا ههنا : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز** ﴾ أى المنيع الجناب ﴿ **الحكيم** ﴾ أى : أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وبعد أن بين سبحانه شأن المنزل وأنه من عند الله العزيز الحكيم – ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل والتوحيد الخالص .

فقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ أى : فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ قال قتادة فى قوله – تبارك وتعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله . أى : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد فإياى فارهبون ، وله مافى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون** ﴾[1] ومعنى له الدين واصبا كما قال مجاهد أى خالصا . أى له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض وكقوله ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾[2] وكقوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **قل إنى أمرت ان**

(١) سورة النحل الآية : ٥١

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨٣

**أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾[(١)] وكقوله تبارك اسمه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[(٢)] .

وقال سبحانه : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ قال الفضيل ابن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا ، ولم يكن صوابا . لم يقبل . وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا : لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا . ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾[(٤)] الآية فإسلام الوجه : إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان فيه : متابعة رسوله — ﷺ — وسنته . وقال — ﷺ — فى الحديث المتفق عليه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكا امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه )[(٥)] وسئل — ﷺ — عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية: أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله )[(٦)] ( متفق عليه ) واخبر — ﷺ — عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارىء القرآن والمجاهد والمتصدق بماله ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

وفى الحديث الصحيح الإلهى يقول الله تعالى ( **أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك به . وأنا منه برىء** )[(٧)] وفى أثر آخر : يقول له يوم القيامة : ﴿ **اذهب فخذ أجرك ممن عملت له . لا أجر لك عندنا** ﴾ .

ولقد ذكر ابن القيم أقوال العلماء فى تعريف الإخلاص فقال : قيل : الإخلاص : هى إفراد الحق — سبحانه — بالقصد فى الطاعة .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقيل : من شهد فى إخلاصه الإخلاص ، احتاج إخلاصه إلى إخلاص . فنقصان كل مخلص فى

---

(١) سورة الزمر الآيتان : ١١ — ١٢

(٢) سورة الانعام الآيتان : ١٦٢ — ١٦٣

(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠

(٤) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الامارة — باب إنما الأعمال بالنية ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٥ طبعة الكويت .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الامارة — باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٣ طبعة الكويت .

(٧) صحيح مسلم — كتاب بالزهد والرقاق — باب من أشرك فى عمله غير الله ٤ / ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥ وسنن ابن ماجة — كتاب الزهد — باب الرياء والسمعة ٢ / ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢ .

إخلاصه : بقدر رؤية إخلاصه ، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص ، صار مخلصا مخلصا .

وقيل : الاخلاص استواء أعمال العبد فى الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهرة خيرا من باطنه . والصدق فى الاخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهرة .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء . والعمل من أجل الناس : شرك . والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده . ولا هوى فيميله .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ، ولا مجازيا سواه . وبعد أن أبان سبحانه أو رأس العبادة الإخلاص لله – اعقب ذلك بذم طريق المشركين فقال تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ أى : والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبلونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة ويشفعوا لنا عنده فى حاجتنا ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز اليها ، وقالوا : إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهى تعبد الاله الأعظم .

قال قتادة والسدى ومالك : عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربوا إلى الله زلفى أن : ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون .

فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – أجمعين بردها والنهى عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ، ولارضى به ، بل أبغضه ونهى عنه قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[1] ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[2] وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقوله عز وجل : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فيما هم يختلفون** ﴾ أى سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا**

---

(١) سورة النحل الآية : ٣٦

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٥

يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا وتقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ﴾(٢)

وقوله عز وجل : ﴿ إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾ أى لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله ـ تعالى ـ وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾(٣)

ثم فصل سبحانه ما كذبوا فيه فقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى فقال تبارك وتعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال سبحانه : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾(٤) وقال سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾(٥)

قوله تعالى : ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ أى : تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه

---

(١) سورة سبأ الآيات : ٤٠ – ٤٢
(٢) سورة الفرقان الآيات : ١٧ – ١٩
(٣) سورة النحل الآيات : ١٠٤ – ١٠٥
(٤) سورة الزخرف الآيات : ٨١ – ٨٥
(٥) سورة مريم الآيات : ٨٨ – ٩٥

الواحد الأحد الفرد الصمد الذى كل شىء لديه فقير إليه . وهو الغنى عما سواه ، الذى قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . قال عز من قائل : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير** ﴾[١] . فسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[٢]

## « من الآيات الدالة على وحدانية الله »

قوله تعالى :

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

## « تفسير المفردات »

التكوير : فى الأصل اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكورها : والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة والظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، تصرفون : أى معدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

---

(١) سورة المائدة الآية : ١٧

(٢) سورة الأسراء الآية : ١١١

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان سبحانه أنه متنزه عن الولد بكونه إلها قادرا قهارا وأن كل المخلوقات فى قبضته وسلطانه — أردف ذلك ما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها فى الأكوان ، وفى خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهما ، وجعلهما يجريان فى ذلك الملكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجا من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وانثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل معدلا عن الاعتراف بربوبيته ، وعظيم قدرته .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى : خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شموس وأقمار ، تكون الليل والنهار العالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من حيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا لانتفاع الإنسان فى سبل معايشة إذا استعمل عقله ، واستخدم فكره فى استنباط مرافقة — خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ، والحكم والصالح . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[3] .

**وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾**[4] .

وبعد أن أبان سبحانه أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

﴿ **يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل** ﴾ أى : يغشى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعلها فى تتابعا أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار كروية الأرض أولا ، وإلى دوراتها حول نفسها ثانيا ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .. يقول صاحب الملك : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك**

---

(١) سورة الحجر الآيتان : ٨٥ — ٨٦ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٧

(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٦

(٤) سورة الأنعام الآية : ٧٣

من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ .

أى : وجعل الشمس والقمر وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له ــ وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما ــ يجريان لمنتهى دورتهما ، ومنقطع حركتهما ، وهو يوم القيامة ، ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ﴾[٦] ومن آياته التشجير قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ، إن الانسان لظلوم كفار ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٨] وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[٩] وقوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾[١٠] وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ – ٢٧

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٦

(٣) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٤) سورة النور الآية : ٤٤

(٥) سورة القصص الآيتان : ٧٢ – ٧٣

(٦) سورة الأنبياء الآية : ١٠٤

(٧) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ – ٣٤

(٨) سورة النحل الآية : ١٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٦١

(١٠) سورة فاطر الآية : ١٣

**تعلمون خبير** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾[2] .

ثم ذيل ـ سبحانه ـ الكلام بقوله تعالى : ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ ترغيبا فى طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له ، والتحذير من الكفر والمعاصى ، فقوله سبحانه : ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ أى : ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال ، وأنعم على خلقه بهذه النعم ـ هو القادر على الإنتقام ممن عاداه الغفار لذنوب عباده التائبين ، ولا يخفى مافى هذا من الدلالة على كمال قدرته ، وكمال رحمته ، فهو القهار ذو القوة المتين ، الغفار لذنوب التائبين ومثله قوله تعالى ـ فى قصة نوح ـ وهو يدعو قومه : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾[3] .

وبعد أن ذكر الدلائل التى بثها فى العالم العلوى ـ أردفها ذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى ، وبدأها بخلق الإنسان لأنه أعجب ما فيه ، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الالهية ولله در من قال :

دواؤك فيك ومـــــا تبصر ... وداؤك منك ومـــا تشعـــر

وأنت الكتــاب المبين الـــذى ... بأجرفـــه يظهـــر المضمـــر

وتزعـــــم أنك جرم صغير ... وفـيك انطـــوى العــالم الأكبر

قال تعالى : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها** ﴾ أى : خلقكم على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ من نفس واحدة وهى آدم ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة** ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من**

---

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة يس الآيات : ٣٧ – ٤٠

(٣) سورة نوح الآيات : ١٠ – ٢٠

(٤) سورة النساء الآية : ١

(٥) سورة الأعراف الآية : ١٨٩

(٦) سورة النحل الآية : ٧٢

**أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[١] .

وقوله تعالى : **﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾**[٢] .

وقوله تعالى : **﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾**[٣] .

ثم ثنى بخلق الحيوان فقال تعالى : **﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾** أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ .. أى : ذكر وأنثى لكل منهما .

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناس والأنعام فقال : **﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ أى يبتدىء خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فيكون أحدكم أولا نطفة ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ثم يكون لحما وعظما وعصبا وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾**[٤]وقال تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾**[٥] .

وقوله تعالى : **﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾** أى : فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل فى كتابه ( الاسلام والطب الحديث ) : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائفى وهى لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة أ هـ . قال الدكتور محمد على الباز فى كتابه ( خلق الانسان بين الطب والقرآن ) تحت عنوان وقفة مع الآية الكريمة .

---

(١) سورة الروم الآية : ٢١

(٢) سورة فاطر الآية : ١١

(٣) سورة النجم الآية : ٤٥ – ٤٦

(٤) سورة الحج الآيات : ٥ – ٧

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ – ١٤

## « الظلمات الثلاث »

قوله تعالى : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ صدق الله العظيم .

قال بعض المفسرين رحمهم الله :

أن الظلمات الثلاث هى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . فلجدار البطن ظلمة ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم . ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، وإذا دققنا النظر فى الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة .

١ – غشاء السلى أو الأمنيون ويحيط بالجنين نفسه .
٢ – غشاء الكوريون ( الغشاء المشيمى ) .
٣ – الغشاء الساقط .

ولنتحدث عن كل واحد من هذه الأغشية بشىء من التفصيل :

غشاء السلى أو الأمنيون :

ويدعى أيضا الرهل كما يعرف بالغشاء الباطن لأنه يحيط بالجنين من كل جانب . وهو عبارة عن كيس غشائى رقيق . ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين حتى يبلغ أوجه فى الشهر السابع حيث يبلغ حجمه لترا ونصف لتر ووزنه كذلك كيلو جرام ونصف ولكنه يقل بعد ذلك تدريجيا حتى يبلغ حجمه لترا واحدا فقط قبل الولادة إلا فى بعض الحالات الخاصة التى يزداد فيها السائل الأمنيونى زيادة مفرطة كالتوائم والبول السكرى وغيره من الحالات المرضية وللسائل الأمنيونى فوائد جمه لا يمكن الاستفادة عنها فى تكوين الجنين ونموه فى الرحم ونجملها فيما يلى :

١ – تغذية الجنين : يحتوى السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية يمتصها الجنين مما يساعد على تغذيته ونموه .

٢ – حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات العنيفة والسقطات التى تتعرض لها الأم .

٣ – يسمح للجنين بالحركة الكاملة داخل الرحم .

٤ – يحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريبا فهو مكيف جيدا بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا فى حدود ضئيلة جدا .

٥ – يمنع السائل الأمنيونى غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة فى حدوث التشوهات الخلقية . فوجود السائل عامل مهم فى تجنب هذه التشوهات الخلقية .

وهذه وظائفه أثناء الحمل أما وظائفه أثناء الولادة فلا تقل أهمية عن ذلك . إذ أن السائل الأمنيونى يكون

جيب المياه الذى يوسع عنق الرحم الذى لا يتسع حتى للخنصر ، فإذا به يتسع للوليد بكامله . ( أكثر من خمسة أصابع ) وفى نفس الوقت يقى الجنين من أن ينحشر وينضغط بين جدران عنق الرحم أثناء الولادة وما يكون فيها من ضغط عالى جدا .

ولولا لطف الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم جيب المياه هذا لتهشم رأس الجنين أثناء الولادة . ولا يكتفى السائل الأمنيونى بكل هذا ولكنه يكون بتمهيد وتعقيم الطريق للجنين عندما ينفجر جيب المياه فيقتل الميكروبات الموجودة فى المهبل قبيل الولادة مباشرة حتى يضمن للجنين طريقا ممهدا ومعقما فى نفس الوقت .

٢ - الغشاء المشيمى ( غشاء الكربون ) :

وهو الثانى من الأغشية التى تحيط بالجنين ويتوسط بين غشاء الساقط من الخارج والغشاء الأمنيونى من الداخل .

ويتركب هذا الغشاء من ورقتين هما :

١ - خارجيه : وبها زغابات وخملات كثيرة تنتقل بواسطتها الأغذية والاكسجين من الأم إلى الجنين كما ينتقل غاز ثانى أكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم .

٢ - داخليه : تغطى كيس المح أو السفار وتشمل فيما تشمل مبدأ ظهور الأوعية الجنينية الخارجية .

وغشاء الكوريون يتكون بادىء ذى بدء عند تكون النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو ثمرة القوت وتسمى التوته ، وتتكون هذه الكرة من طبقات من الخلايا ، فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فتتميز إلى مجموعة من الخلايا الآكلة التى تنشب وتعلق بجدار الرحم . هذه الطبقة الخارجية التى تعلق وتنغرز فى الرحم هى التى تتحول إلى غشاء الكوريون الذى نتحدث عنه .

وتكون هذه العلقة العالقة بجدار الرحم محاطة بالدم الغليظ وتتفرع من الطبقة الخارجية خملات وزغابات عديدة وخلاياها تقضم فى جدار الرحم حتى تتمكن البويضة الملقحة من الانغراز فى جدار الرحم . وتقوم بتغذية اللوح الجنينى الذى يخلق الله سبحانه وتعالى منه الجنين بما تمتصه مباشرة من البرك الدموية المحيطة بها .

وهذه الطبقة من البويضة الملحقة أو القوته هى الجزء الغير مخلق من الجنين أما الجزء الداخلى فمنه يخلق الجنين . وهو الذى تتحدث عنه الآية الكريمة فى سورة الحج حيث يقول تعالى : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء** ﴾[1] كما أن الجنين قد يدخل فى دور التخليق أو تقذفه الأرحام دما وهو

(١) سورة الحج الآية : ٥

السقط أو الإجهاض وخاصة فى المراحل الأولى لتكون الجنين .

وينمو غشاء الكوريون والخملات مع نمو الجنين ولا يكتفى بامتصاص الغذاء من البرك الدموية المحيطة به وإنما تبدأ دورة دموية فى غشاء الرحم وتقابلها دورة دموية فى غشاء الجنين المشيمى . وعن طريق الخملات التى يمرق جدارها يوما بعد يوم مع تقدم الحمل ينتقل الغذاء والهواء ( الأكسجين وثانى أوكسيد الكربون ) كما تنتقل المضادات للأجسام الغريبة من الأم إلى الجنين لتكون للجنين جهاز مناعته وفى نفس الوقت تمنع عنه أنتقال السموم والميكروبات .

ومع ذلك تقبل الأم ما يخرجه الجنين من إفرازات وسموم ناتجة عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وثانى أكسيد الكربون فتتقبلها وتأخذها فى دورتها الدموية الرحمية أولا ثم إلى دورتها الدموية حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول . وهكذا ترى أن ثخانة الخملات تختلف من يوم إلى آخر وتتغير بحسب نمو الجنين ومتطلباته .

وكلما كبر الجنين رقد الجدار الفاصل بين دورة الدم الرحمية ودورة الدم فى الجنين حتى يسهل عبور المواد الهامة النافعة من الأم إلى الجنين ويتم أخراج المواد الضارة من الجنين إلى الأم ( البولينا وثانى أوكسيد الكربون ) .

٣ — الغشاء الساقط : وهو ثالث الأغشية التى تحيط بالجنين من جميع جوانبه . وهو مكون من الغشاء المخاطى المبطن للرحم ؟ وهو رقيق ، وينمو نموا هائلا بتأثير هرمون الحمل ( البروجستون ) فتزيد ثخانته من نصف مليمتر عند بدء الطهر من الحيض إلى ثمانية ملليمترات آخر الدورة الشهرية وقبيل المحيض . فإذا ما تم الحمل زادت ثخانته أضعافا مضاعفة وتزداد فيه الغدد والأوعية الدموية زيادة عظيمة ويتغير تركيبه حتى يصبح اسفنجى القوام . وقد سمى بالغشاء الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم الحيض أو مع دم النفاس إذا كان هناك حمل .

**المشيمه :**

يساهم فى تكوين المشيمة كل من الجنين والأم . والمشيمة تتكون من قرصين متلاصقين ، فأما الجزء الرحمى ( الأم ) فهو الغشاء الساقط القاعدى ، وأما الجزء الجنينى فهو ( الكوريون ) الجنينى الذى سبق أن وصفناه .

وتتخذ المشيمة شكل قرصى يتفاوت قطره ما بين ١٦ ، إلى ٢٠ سنتيمتى وثخانته بسنتيمترات تقريبا ووزنه خمسمائة جرام ( نصف كيلو جرام ) وسطح المشيمة المتصل بأغشية الجنين فى وسطها فى العادة وقد يتصل بأحد جوانبها . ويغطى هذا السطح الغشاء الأمنيوسى ( الغشاء السلّى أو الرهلى ) .

أما الجزء الرحمى فخشن ومكون من خمسة عشر إلى عشرين فصا ويتوسط بين جزئى المشيمة الجنينى والرحمى غشام هام يسمى الغشاء المشيمى ويفصل هذا الغشاء بين الدورة الدموية الرحمية والدورة الدموية

الجنينية . وقد وهب الله لهذا الغشاء القدرة على تنظيم تغذية الجنين ووقايته من كل ما قد يضره ، ولا يوصل إليه من الغذاء إلا ما ينفعه . ويسميه البعض « الغشاء الحيوى المشيمى » .

**الدورة الدموية فى المشيمة :**

فى المشيمة دورتان دمويتان يفصل بينهما الغشاء المشيمى الحيوى ، ورغم قربهما قربا شديدا من بعضهما حتى أنه لا يفصل بينهما الا جدار رقيق من خلايا الخملات ، إلا أنهما لا يتصلان بحيث يندفع الدم من واحدة إلى أخرى . ومع ذلك فاتصالهما وثيق : ينتقل الغذاء المنتقى والمختار بعناية فائقة من دماء الأم فى الرحم إلى أوعية الجنين الدموية . وينتقل معه الأوكسجين ومواد المناعة للأمراض والأوبئة . وينتقل من الجنين إلى الأم كل المواد السامة التى نتجت عن عمليات البناء والهدم المستمرة فى خلايا الجنين مثل ثانى أكسيد الكربون والبولينا وتنتقل إلى الأم لتحملها راضية إلى أجهزة إفرازها كما يمنع الغشاء الحيوى المشيمى أنتقال ما قد يكون ضارا بالجنين من مواد موجودة فى دم الأم ، كما يمنع عن الجنين الميكروبات والأمراض الا فيما ندر .

إن المقدرة الهائله التى وهبها الله — عز وجل — لهذا الغشاء معجزة كامله ، غشاء رقيق يفصل بين دماء الأم ودماء الجنين ومع هذا فهو يختار للجنين ما يصلحه ويبقيه وينميه ، ويدفع عنه كل ما يؤذيه ، ويسمح لهذه المادة أن تمر ، ويقف حجر عثرة لتلك المادة المشابهة ويقول لها : قفى هنا لا حاجة بنا إليك ، ويختار المواد النافعة من دماء الأم فيقول لها : أدخلى بسلام ويمنع المواد الضارة ويختار المواد الضارة الموجودة فى الجنين ويقول لها : اخرجى من هنا إلى دماء الأم .

بواب عجيب حكيم ، يقف وقفة صارمة حازمة طوال الليل والنهار لا يكل ولا ينى ، يختار للجنين ما يصلحه ويطرد عنه ما يضره وهو بعد ذلك غشاء مكون من مجموعة من الخلايا البسيطة التركيب فسبحان من أودع فيه هذه القدرة الهائلة على التميز وجعله فى صف الجنين دائما وابدا .

**وتقوم المشيمة بوظائف عدة أجهزة فى الجسم هى :**

١ – الجهاز التنفسى : إذ تقوم بإعطاء الجنين الأكسجين وتأخذ عنه ثانى أكسيد الكربون .

٢ – الجهاز الهضمى : تعطى الجنين الغذاء المهضوم بالقدر المعلوم وتنوع غذائه حسب حاجاته يوما بعد يوم فيختلف غذاء الجنين فى شهرة الأول أو الثانى عن غذائه فى الشهر الثامن أو التاسع يختلف نوعا وكما .

٣ – الجهاز البولى : تقوم المشيمة بإخراج المواد الضارة بالجنين والتى تخلفت عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وتدفعها إلى دماء الأم ، ولا تكتفى المشيمة بهذه العجائب كلها ، ولكنها ترسل هرمونات يثبت الجنين فى الرحم وينمى الثديين استعدادا لافراز اللبن منهما عندما يخرج الجنين إلى الدنيا ليجد غذاءه جاهزا ، ومن المقرر علميا وطبيا أن سلامة الحمل متوقفة على سلامة المشيمة ، وإن أكثر حالات الاجهاض إنما ترجع إلى خلل فى المشيمة .

فسبحان من خلق فسوى ، وسبحان من قدر فهدى خلق الجنين وسواه ، وقدر ظهور أعضائه ، وهداه إلى وظائفهما وخلق المشيمة وسواها وقدر محتوياتها وتركيبها وأوجد غشاءها العجيب وهداه إلى وظائفة العديدة المعجزة . أ هـ .

## « وعيد وتهديد »

قال تعالى :

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) * وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

## « تفسير المفردات »

﴿ منيبا ﴾ أى : راجعا إليه مطيعا ، ( خوله ) : ملكه .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام لا دليل لهم على عبادتها — أعقب ذلك ببيان أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات . فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ، ولا دفع مضرة ، ولكنه لا يرضى الكفر لعباده ، بل يرضى الشكر ، وأن كل نفس مطالبة بما عملت وبعدئذ ترد إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون فإذا أصابهم الضر رجعوا فى طلب دفعه إلى الله ، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا أنه لا يدفع الضر سواه . أن يعبده فى جميع الحالات ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهكما موبخا : تمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ يقول تبارك وتعالى مخبرا عن ذاته المقدسة ـ تبارك وتعالى : أنه الغنىّ عما سواه من المخلوقات كما أخبر سبحانه فى كتابه : ﴿ **ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز** ﴾(١) وكما قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله : ﴿ **إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾(٢) فإنه ـ سبحانه ـ لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ، ولكنه ـ سبحانه ـ خلقنا بمحض جوده وكرمه ، بمحض فضله ومنته قال تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه الحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ والذى فيه « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ياعبادى لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا »(٣) فسبحان من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . فالطاعة تنفعنا نحن والمعصية تضرنا نحن قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ أى : لا يحبه ولا يأمر به ، ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ أى : يحبه لكم ويزدكم من فضله ، كما قال تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما** ﴾(٥) وكقوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم ، لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾(٦) .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ، ولا يضيره عمل سواه فقال تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى : ولا تحمل أى نفس أوزار نفس أخرى بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كان أو شرا . .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة وفق ما عمل فى الدنيا فقال تعالى : ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أى : ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم ، العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم باحسانه

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٥ – ١٧

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٨

(٣) ملسم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧

(٤) سورة فصلت الآية : ٤٦

(٥) سورة النساء الآية : ١٤٧

(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧

والمسيء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا مالا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه ـ سبحانه ـ فقال : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى : إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم مما لا تدركه اعينكم فيكف بما رأته العيون وادركته الأبصار ؟ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى** ﴾[1] .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

﴿ **وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله** ﴾ أى : وإذا أصاب الكافر بلاء فى جسده أو شدة فى معيشته ، أو خوف على حياته ـ استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه فى كشف ما نزل به ، تائبا إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الألهة والأوثان فى عبادته ، ثم إذا منحه منه فأزال ما به من ضر ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء ـ ترك دعاءه الذى كان يدعوه من قبل أن يكشف ما كان به من ضر ، فجعل لله شركاء ما ضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول فى الاسلام له . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾[3] .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال تعالى : ﴿ **قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار** ﴾ أى قل يأيها الرسول لمن فعل ذلك . تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها ، منصرفا عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمنا قليلا إلى أن تستوفى أجلك وتأتيك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار وبئس القرار : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾[1] .

---

(١) سورة النجم الآيات : ٣٦ — ٤٢

(٢) سورة الاسراء الآية : ٦٧

(٣) سورة يونس الآية : ١٢

(٤) سورة غافر الآيات : ٧١ — ٧٦

## « الوعد الحق »

قال تعالى :

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **قانت** ﴾ القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ﴿ **أناء الليل** ﴾ : ساعاته واحدها آن ﴿ **يحذر الآخرة** ﴾ أى : يخشى عذابها . ﴿ **بغير حساب** ﴾ بلا نهاية لما يعطى أو بتوسعه ، ﴿ **ظلل من**

**النار** ﴾ أطباق منها ، كثيرة متراكمة ﴿ **اجتنبوا الطاغوت** ﴾ الأوثان والمعبودات الباطلة : ﴿ **أنابوا إلى الله** ﴾ **رجعوا إلى عبادته وحده** ، ﴿ **لهم غرف** ﴾ منازل رفيعة عالية فى الجنة .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان ــ سبحانه ــ صفات المشركين الضالين ، وذكر تقلقهم واضطرابهم فى العبادة إذ يرجعون إليه فى وقت الشدة ويعودون إلى الأوثان حين الرخاء ــ ردفة ذكر صفات المؤمنين القانتين الأتقياء الذى لا يعتمدون إلا على ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه . وبعد ذلك أمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح .

١ - تقوى الله وطاعته .

٢ - عبادة الله وحده مخلصا له الدين .

٣ - إنه امره أن يقول : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصى .

٤ - إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .

٥ - وصف النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده وهذا وعيده لعبده الأصنام ثم ذكر وعد من اجتنبوا عبادتها وبعدوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال الترهيب والترغيب .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يقول الله عز وجل : أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند الله كما قال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾(١) وقال تبارك وتعالى، ههنا : ﴿ **أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما** ﴾ أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة وقال ابن مسعود ( القانت المطيع لله ــ عز وجل ــ ولرسوله ــ ﷺ ــ وقال ابن عباس ــ رضى الله عنهما : ﴿ **آناء الليل** ﴾ جوف الليل

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٣

وقال الحسن وقتادة : ﴿ **آناء الليل** ﴾ أوله وأوسطه وآخره . وقوله تعالى : ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ أى : فى حال عبادته خائف راج ولابد فى العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى : ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . ومثل ذلك قوله تعالى وهو يصف حال الأنبياء : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٢) .

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن معاذ بن جبل والذى فيه يقول ـــ ﷺ ـــ ( ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ حتى بلغ ﴿ **يعلمون** ﴾(٣) الحديث . يعنى أن النبى ـــ ﷺ ـــ تلا هاتين الآيتين من سورة السجدة عند ذكره فضل صلاة الليل ليبين بذلك فضل صلاة الليل . وأخرج الترمذى من حديث عمرو بن عنبة قال : سمعت النبى ـــ ﷺ ـــ يقول : ( أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر . فإن استطعت أن تكون مما يذكر الله تلك الساعة فكن )(٤) .

وقال الامام أحمد عن تميم الدارى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ( من قرأ بمائة آية فى ليلة كتب له قنوت ليلة )(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ أى هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل والله أعلم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، أن الله يسمع من يشاء وماأنت**

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٩٠

(٢) سورة السجدة الآيتان : ١٦ — ١٧

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب الايان ـ باب ما جاء فى حرمة الصلاة ٤ / ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ وابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب كف اللسان فى الفتنة ٢ / ٢٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٤) سنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب دعاء الضيف ٥ / ٥٧٠ رقم ٣٥٧٩

(٥) مسند أحمد ٤ / ١٠٣

**بسمع من فى القبور** ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون** ﴾[٢] وكقوله : ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾[٣] .

## « فضل قيام الليل »

قال الأمام العالم العلامة الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلى رحمه الله فى كتابه ( لطائف المعارف ) فى فضل قيام الليل ما نصه : وقد دل حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه أفضل الصلاة بعد المكتوبة وقال ابن مسعود : فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية . وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ فى الإسرار وأقرب إلى الإخلاص كان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم قال الحسن : كان الرجل يكون عنده زواره فيقوم من الليل يصلى لا يعلم به زواره ، وكانوا يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت . وكان الرجل ينام مع أمرأته على وسادة فيبكى طول ليلته وهى لا تشعر ولأن صلاة الليل أشق على النفوس ، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار ، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة . قال بعضهم : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ، ولأن القراءة فى صلاة الليل أقرب إلى التدبر فإنه تنقطع الشواغل بالليل ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم . كما قال تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾[٤] ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن فى قيام الليل ترتيلا ، ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو وقت فتح أبواب السماء واستجابه الدعاء وأستعراض حوائج السائلين وقد مدح الله المستيقظين بالليل لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته فقال الله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[٥] قال الحسن : أخفوا العمل فأخفى الله لهم الجزاء . وقال تعالى : ﴿ **والمستغفرين بالاسحار** ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[٧] وقال الله تعالى : ﴿ **أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما**

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٨ — ٢٢

(٢) سورة هود الآية : ٢٤

(٣) سورة السجدة الآيات : ١٨ — ٢٠

(٤) سورة المزمل الآية : ٦

(٥) سورة السجدة الآيتان : ١٥ — ١٦

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٧

(٧) سورة الذاريات الآيتان : ١٧ — ١٨

**يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾[١] وقال لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا** ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو أنقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا** ﴾[٤] .

قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لرجل لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو قالت كسل صلى قاعدا ، وفى رواية أخرى عنها قالت : بلغنى عن قوم يقولون إن أدينا الفرائض لم ينال أن لا تزداد ولعمرى لا يسألهم الله إلا عما اقترض عليهم ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار ، وما أنتم إلا من نبيكم ، وما نبيكم إلا منكم والله ما ترك رسول الله ـ ﷺ ـ قيام الليل . فأشارت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى أن قيام الليل فيه ( فائدتان عظيمتان ) الاقتداء بسنة رسول الله ـ ﷺ ـ والتأسى به وقد قال الله عز وجل : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[٥] وتكفير الذنوب والخطايا ، فإن بنى آدم يخطئون بالليل والنهار فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفرات الخطايا وقيام الليل من أعظم مكفرات الذنوب كما قال النبى ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل ( قيام العبد فى جوف الليل يكفر الخطيئة ثم تلا ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع )[٦] أخرجه الأمام أحمد .

وقد روى أن المتهجدين يدخلون الجنة بغير حساب وروى عن شهر بن جوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبى ـ ﷺ ـ قال : ( إذا جمع الأولين والأخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمعه الخلائق سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الناس )[٧] .

قال بعض السلف : قيام الليل يهون طول القيامة يوم القيامة وفى حديث أبى أمامه وبلال المرفوع ( عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى وتكفير للميئات ومنهاة عن الاثم ومطردة للداء عن الجسد )[٨] أخرجه الترمذى . ففى هذا الحديث : أن قيام الليل يوجب صحة الجسد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٣
(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩
(٣) سورة الانسان الآية : ٢٦
(٤) سورة المزمل الآيات : ١ ـ ٤
(٥) سورة الأحزاب الآية : ٢١
(٦) مسند أحمد ٥ / ٢٣٧
(٧) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ، والبيهقى فى شعب الايمان ٥ / ٢٥
(٨) سنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب دعاء النبى ﷺ ٥ / ٥٥٢ رقم ٣٥٤٩

ويطرد عنه الداء .. وكما أن قيام الليل يكفر السيئات فهو يرفع الدرجات وقد ذكرنا أن أهله من السابقين إلى الجنة بغير حساب وفى حديث المنام المشهور الذى أخرجه الامام أحمد والترمذى ( أن الملأ الأعلى يختصمون فى الدرجات والكفارات وفيه أن الدرجات أطعام الطعام ، وإفشاء السلام . والصلاة بالليل والناس نيام )(١).

وفى المسند والترمذى من وجوه عن النبى — ﷺ — أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، وأنها لأهل هذه الخصال الثلاثة ( أطعام ) الطعام وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام )(٢).

ومن فضائل التهجد أن الله تعالى — يحب أهله ويباهى بهم الملائكة ويستجيب دعاءهم .

وفى المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبى — ﷺ — قال : ( رجلان من أمتى يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه أنحلت عقدة وإذا وضأ وجهه أنحلت عقدة وإذا مسح رأسه أنحلت عقدة وإذا وضأ رجلين أنحلت عقدة فيقول الرب — عز وجل للذين وراء الحجاب أنظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه ما سألنى عبدى هذا فهو له )(٣).

وفى الصحيحين أن النبى — ﷺ — قال : ( نعم الرجل عبد الله — يعنى ابن عمر — لو كان يصلى من الليل فكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا )(٤).

كان أبو ذر — رضى الله عنه — يقول للناس : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه قالوا : بلى قال : فسفر طريق القيامة أبعد فخذوا له ما يصلحكم ، حجوا حجة لعظائم الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور ، صلوا ركعتين فى ظلمة الليل ، لظلمة القبور ، تصدقوا بصدقة بشر يوم عسير ، أين رجال الليل أين الحسن وسفيان وفضيل .

يارجال جدوا رب داع لا يرد
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد

أخرج النسائى عن أبى ذر قال : سألت رسول الله — ﷺ — أى الليل خير قال : ( جوفه )(٥) وفى رواية لأحمد قال — ﷺ — جوف الليل الغابر أو نصف الليل وقليل فاعله )(٦) كان أبو سليمان يقول : أهل الليل فى ليلهم الذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أجببت البقاء فى الدنيا وسط الليل للمحبين للخلوة بمناجاة حبيبهم ، والسحر للمذنبين للاستغفار من ذنوبهم فوسط الليل خاص لخلوة الخواص ،

(١) سنن الترمذى — كتاب تفسير القرآن — باب سورة ص ٥ / ٣٣٦ ومسند أحمد ٥ / ٢٤٣

(٢) سنن الترمذى — كتاب صفة الجنة — باب صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧ رقم ٢٥٢٧ ومسند أحمد ١ / ١٥٥

(٣) مسند أحمد ٤ / ٢٠١ وابن حبان — كتاب الصلاة — باب قيام الليل ٤ / ١١٣ رقم ٢٥٤٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب فضائل الصحابة — باب فضائل عبد الله بن عمر ص ٦٧٠ رقم ١٦١١ طبعة الكويت .

(٥) سنن النسائى — كتاب المواقيت — باب إباحة الصلاة إلى أن يصلى الصبح ١ / ٢٨٣ وابن ماجه — كتاب الفتن — باب كف اللسان فى الفتنة ٢ / ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٦) مسند أحمد ٥ / ١٧٩

والسحر عام لرفع قصص الجميع وبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج فمن عجز عن مسابقة المحبين فى ميدان مضمارهم فلا يعجز عن مشاركة المذنبين فى استغفارهم وأعتذارهم ، صحائف التائبين خدودهم ومدادهم دموعهم . لا تزال القصص تستعرض ويوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر ؟ ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : ( **هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من داع فأجيب دعوته إلى أن ينفجر الفجر** )[١] فلذلك كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله .

كان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته ياأيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ، ألا تقومون فترحلون فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فراشهم فيسمع من هنا باك ومن هنا داع ، ومن هنا تال ، ومن هنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى .

يانفس قومى فقد نام الورى ... أن تصنعى الخير فذو العرش يرى
وأنت ياعين دعى عنك الكرى ... عند الصباح يحمد القوم السرى

ياقوم الليل اشفعوا فى النوم ، ياأحياء القلوب ترحموا على الأموات قيل لابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ ما نستطيع قيام الليل قال أقعدتكم ذنوبكم ، وقيل للحسن : قد أعجز قيام الليل قال قيدكم خطاياكم وقال الفضى بن عياش : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محررم كبلتك خطيئتك . قال الحسن : إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، قال بعض السلف : أذنبت ذنبا فحرمت به قيام الليل ستة أشهر . ما يؤهل الملوك للخلوة بهم إلا من أخلص فى ودهم ومعاملتهم فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه .

ياحسنهم والليل قد جنهم ... ونورهم يفوق نور الأنجم
ترنموا بالذكر فى ليلهم ... فعيشهم قد طاب فى الترنم
قلوبهم للذكر قد تفرغت ... دموعهم كاللؤلؤ منظم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... وخلع الغفران خير القسم

قيل للنبى ــ ﷺ ــ إن فلانا نام حتى أصبح فقال : ( بال الشيطان فى أذنه )[٢] كان سرى يقول : رأيت الفوائد ترد فى ظلمه الليل ، ماذا فات من فاته خير الليل حصل أهل الغفلة والنوم على الحرمان والويل ، كان بعض السلف يقوم الليل فقام ليله فأتاه آت فى منامه فقال له : قم فصل ثم قال له أما علمت أن مفاتح الجنة مع أصحاب الليل هم خزانها ، هم خزانها .

كان النبى ــ ﷺ ــ يطرق باب فاطمة وعلى ويقول : ( ألا تصلون )[٣] وفى الحديث : ( إذا استيقظ

(١) صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ــ باب الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل ١ / ٥٢١ رقم ٧٥٨
(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٦٠
(٣) مسند أحمد ١ / ٧٧

الرجل وايقظ أهله فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات )[١] كانت أمرأة صهيب توقظه بالليل وتقول ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا .

| | |
|---|---|
| ياراقـــد الليـــل كم ترقـــد | قم ياحبيبـــى قد دنـــا الموعـــد |
| وخـــذ من الليـــل وأوقاتـــه | وردا إذا ما هج الرقـــــــــد |
| من نام حتـــى ينـــقضى ليلـــه | لم يبلـــغ المنـــزل أو يجهـــد |
| قل لأولى الألبـــاب أهـــل التقـــى | قنطـــرة العـــرض لكـــم موعـــد |

قوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون من المسلمين** ﴾ يقول تعالى : آمرا عبادة المؤمنين بالاستمرار على طاعة الله وتقواه وهذه وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾[٢] وأمرنا ــ سبحانه ــ بالاستمرار على طاعته وتقواه حتى الموت فقال سبحانه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٣] ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾[٥] كقوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ الآية[٨] ولقد أحسن أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ فأحسن الله إليهم فى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاه وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾[٩] وقال سبحانه : ﴿ **والسابقون**

---

(١) ابو داود ــ كتاب الصلاة ــ باب الحث على قيام الليل ٢ / ١٤٧ رقم ١٤٥١ وابن ماجه كتاب الصلاة ــ باب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٥

(٢) سورة النساء الآية : ١٣١

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢

(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٢

(٥) سورة النحل الآية : ٣٠

(٦) سورة الرحمن الآية : ٦٠

(٧) سورة النحل الآية : ٩٧

(٨) سورة النور الآية : ٥٥

(٩) سورة الحج الآية : ٤١

**الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا ، ذلك الفوز العظيم ﴾**[1].

وقوله تعالى : **﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء فى قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾** وقال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ : **﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ﴾** .

**وقال الشيخ المراغى فى قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾** أى : إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة فى البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين . فلقد هاجر النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه وفارقوا الأهل والأوطان كل هذا فى سبيل الله فكانت العاقبة لهم ، والعاقبة للمتقين .

ثم ذكر سبحانه ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال : **﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾** أى : ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره وهذا كقوله تعالى : **﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾**[2] قال ابن القيم : الصبر . حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونحوه . فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام بالعبد كما ينبغى أنقلبت المحنة فى حقه منحة ، واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوبا فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته . فإن لله تعالى ـ على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون . والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى . قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له )[3] رواه مسلم .

وقال ـ ﷺ ـ ( إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ـ الحديث )[4] وخطب عمر بن عبد العزيز فى الناس قائلا : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه الله أفضل مما

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٠

(٢) سورة يوسف الآية : ٩٠

(٣) مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب المؤمن أمره كله خير ٤ / ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩

(٤) الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب فى الصبر على البلاء ٤ / ٢٧ رقم ٢٥٠٧ وشرح السنة الأمام البغوى كتاب الجنائز ـ باب شدة المرض ٥ / ٢٤٥ رقم ١٤٣٥

أنتزع منه ثم قرأ ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ أى قل أيها الرسول لمشركى قومك : إن الله أمرنى أن أعبده مفردا له الطاعة دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد . ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ أى وأمرت أن أكون أول المسلمين ومسابقهم فى إخلاص التوحيد لله ، وأخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

﴿ **قل إنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى : قل لهم : أنى أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو أفراده بالربوبية عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفى هذا من التعريض بهم مالا يخفى .

ثم كرر الأمر مرة أخرى بالاخلاص فى الطاعة للتهديد والوعيد فقال : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾ أى قل لهم : الله أعبد لا غيره لا استقلالا ولا أشتراكا ، مخلصا له عبادتى مبتعدا من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم .

ثم أمر رسوله أن يذكر للمشركين حالهم يوم القيامة فقال ــ جل فى علاه ــ ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخسران الذى لا خسران بعده ــ هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلوهم وأوقعوهم فى العذاب الأبدى يوم القيامة إذا أوقعوهم فى هلكه ما بعدها هلكة . ﴿ **ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ أى : هذا هو الخسران المبين الظاهر لكمال هوله وفظاعة شأنه ثم فصل ــ سبحانه ــ ذلك الخسران وبين بعد إبهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال ــ عز وجل : ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل** ﴾ أى : لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾[١] وقوله : ﴿ **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك يخوف الله به عباده ، ياعبادفاتقون** ﴾ أى : إنما نقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . ﴿ **ياعبادفاتقون** ﴾ أى : أخشو بأسى وسطوتى وعذابى ونقمتى وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله**

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ٤١

(٣) سورة الهمزة الآيات : ٦ — ٩

**يأولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ، رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا ﴾**[١] .

قوله تعالى : ﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت** ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارس ـ رضى الله تعالى عنهم ـ والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء همْ الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم قال ـ عز وجل ـ ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ حين آتاه التوراة ﴿ **فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هداهم الله** ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات ، عبادة الله وحدة لا شريك له والبراءة مما يخالف دين الاسلام ، والانابة والاخبات والخضوع له سبحانه ، والسمع والطاعة أولئك الذين هداهم الله ﴿ **وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ أى : ذرو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

وقوله تعالى : ﴿ **أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد** ﴾ .

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقى أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن عباده السعداء أن لهم غرفا فى الجنة وهى القصور أى : الشاهقة ( من فوقها غرف ) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات ( مبنية تجرى من تحتها الأنهار ) .

قال الأمام أحمد : عن النعمان بن سعد عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( إن فى الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها فقال أعرابى : لمن هى يارسول الله ؟ قال ـ ﷺ ـ ( لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام )[٢] رواه الترمذى وقال حسن غريب .

وقال الأمام أحمد : عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ( إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى أفق السماء )[٣]. أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية له

---

(١) سورة الطلاق الآيات : ٨ – ١١

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء فى صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧٣ رقم ٣٢٥٢٧ ومسند أحمد ٥ / ٣٤٣

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب ترائى أهل الجنة الغرف ص ٧٩٦ رقم ١٨٠٤ طبعة الكويت .

عن ابى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع فى تفاضل أهل الدرجات فقالوا : يارسول الله أولئك النبيون ؟ فقال – ﷺ – ( بلى والذى نفسى بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل )[1] رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الأمام أحمد بسنده : عن أبى هريرة – رضى الله عنه – يقول : قلنا يارسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال – ﷺ – ( لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة ولو لم تذنبوا لجاء الله – عز وجل – بقوم يذنبون كى يغفر لهم – قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ، ما انباؤها ؟ قال – ﷺ – لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأزفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفتى شبابه الحديث ..)[2] وقوله تعالى : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ **وعد الله** ﴾ أى هذا الذى ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ .

**من دلائل التوحيد :**

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ

(١) سنن الترمذى – كتاب صفة الجنة – ما جاء فى خلود أهل الجنة وأهل النار ٤ / ٦٩٠ رقم ٢٥٥٦ وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) مسند أحمد ٢ / ٣٠٤

لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **فسلكه** ﴾ أى : فأدخله ، ﴿ **ينابيع** ﴾ أى : عيونا ومجارى ، ﴿ **ألوانه** ﴾ أى : أنواعه وأصنافه ، ﴿ **يهيج** ﴾ أى : يجف ﴿ **حطاما** ﴾ أى : فتاتا منكسرا ﴿ **شرح الله صدره للاسلام** ﴾ شرح الصدر للاسلام الفرح به والطمئنينة إليه ﴿ **النور** ﴾ البصيرة والهدى ، ﴿ **القسوة** ﴾ جمود وصلابة فى القلب ، يقال قلب قاس : أى : لا يرق ولا يلين ﴿ **أحسن الحديث** ﴾ هو القرآن ﴿ **متشابها** ﴾ أى : يشبه بعضه بعضا فى الحسن والأحكام ﴿ **مثانى** ﴾ واحدها مثنى من التثنية أى : التكرير ، ﴿ **تقشعر** ﴾ أى : تضطرب وتتحرك ﴿ **تلين** ﴾ تسكن وتطمئن ﴿ **الخزى** ﴾ الذل والهوان .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أو وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها ـ أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضيها وشيكا ، تحذيرا من الاغترار بزهرتها والركون إلى لذتها ، فمثل حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا منكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه ! ثم أردف ذلك بيان أنه لا ينتفع بمواعظة إلا من شرح الله صدره ونور قلبه وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن من يتقى بيديه المخاوف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لا يفكر فى مآل أمره وعاقبة عمله ، وبعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم ، فأتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والقتل والخسف ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ يخبر سبحانه أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال سبحانه : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض** ﴾[1] وهنا

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٨

يقول جلت قدرته : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءفسلكه ينابيع فى الأرض** ﴾ أى : يصرفه سبحانه فى أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيونا ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها . وقوله تعالى : ﴿ **ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه** ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا مختلفا ألوانه أى : أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ **ثم يهيج** ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرا قد خالطه اليبس ﴿ **ثم يجعله حطاما** ﴾ أى : ثم يعود يابسا يتحطم ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزا شوهاء . والشاب يعود شيخا هرما كبيرا ضعيفا وبعد ذلك كله الموت .

| | |
|---|---|
| الموت فى كل جبـــن ينشر الكفنـــا | ونحن فى غفلـــة عمـــا يداوينـــا |
| لا تطمئـــــن إلى الدنيــــا وبهجتها | وإن توشحت من أثـــوابها الحسنـــا |
| أيـــن الأحبــــة والجيران ما فعلـــوا | اين الذيـن هموا كانـوا لنـــا سكنـــا |
| سقاهـــم الموت كأسا غير صافيـــة | فصيرهـــم لأطبـــاق الثرى رهنـــا |
| فإن كانت الدنيــــــا تحب فإنها | سحابـــة صيـــف عن قريب تقشع |
| إذا أبـــقت الدنيـــا على المرء دينـــه | فمـــا فاتـــه منها فلـــيس بضائـــر |
| فلـن تعـدل الدنيا جنـــاح بعـــوضة | ولا وزن زف من جنـــاح لطائـــــر |

فالسعيد من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وآثر ما يبقى على ما يفنى ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد عن الحق كقوله عز وجل : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[1] ولهذا قال تعالى : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة لا خير فيها .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ( لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى )[2] وقوله : ﴿ **أولئك فى ضلال مبين** ﴾ أى : أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

---

(١) سورة الأنعام الاية : ١٢٢

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى حفظ اللسان ٤ / ٦٠٧ رقم ٢٤١١ وقال : حديث حسن غريب .

قال الأمام ابن القيم فى كتابه ( زاد المعاد ) :

( فصل فى أسباب شرح الصدر وحصولها على الكمال له ـ ﷺ ـ ) فأعظم أسباب شرح الصدر التوحيد على حسب كماله وقوته وزيادته يكون بإنشراح صدر صاحبه قال الله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾[1] فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وأنحرافه .

ومنها النور الذى يقذفه الله فى قلب العبد ، وهو نور الإيمان فإه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب ، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج وصار فى أضيق سجن وأصعبه .

وقد روى الحاكم فى المستدرك عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : ( إذا دخل النور القلب انفسح ، قالوا وما علامة ذلك يارسول الله قال الانابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله )[2] فنصيب العبد من أنشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور الحسى ، والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر ، وهذه تضيقه .

ومنها العلم فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد أنشرح صدره واتسع وليس هذا لكل علم بل العلم المورث عن الرسول ـ ﷺ ـ وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا ، وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا ، ومنها الانابة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومحبته بكل القلب ، والتنعم بعبادته فلا شىء أشرح لصدر العبد من ذلك حتى أنه ليقول أحيانا : إنى إذا كنت فى الجنة فى مثل هذه الحالة فإنى إذا فى عيش طيب ، وللمحبة تأثير عجيب فى إنشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب لا يعرفه إلا من أحس به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن فرؤيتهم قذى عينة ومخالطتهم حمى روحه . ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى وتعلق القلب بغيره والغفلة عن ذكره ومحبة سواه ، فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ، وسجن قلبه فى محبة ذلك الغير فما فى الأرض أشقى منه ، ولا أكثف بالا ، ولا أنكد عيشا ولا أتعب قلبا ، فهما محبتان ، محبة هى جنة الدنيا وسرور النفس ولذه القلب ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها بل حياتها وقرة عينها وهى محبة الله وحده بكل القلب وانجذاب قوى الميل والارادة والمحبة كلها إليه ، ومحبة هى عذاب الروح رغم النفس وسجن القلب ، وضيق الصدر وهى سبب الألم والنكد والعناء وهى محبة ما سواه سبحانه .

ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفى كل موطن فللذكر تأثير عجيب فى انشراح .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٢) الحاكم فى المستدرك ـ كتاب الرقاق ٤ / ٣١١

الصدر ونعيم القلب وللغفلة تأثير عجيب فى ضيقه وحبسه وعذابه .

ومنها الاحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الاحسان ، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا وأطيبهم نفسا وأنعمهم قلبا ، والبخيل الذى ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرا ، وأنكدهم عيشا وأعظمهم هما وغما وقد ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ مثلا للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد كلماهم المتصدق بصدقه اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفى أثره ، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه ، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه .

ومنها الشجاعة فإن الشجاع منشرح الصدر ، واسع البطان متسع القلب ، والجبان أضيق الناس صدرا وأحصرهم قلبا لا فرحه له ولا سرور ولا لذه له ولا نعيم الا من جنس ما للحيوان البهيمى ، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرم على كلِ جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل معرض عن الله ـ سبحانه ـ غافل عن ذكره جاهل به وبأسمائه ـ تعالى ـ وصفاته ودينه متعلق القلب بغيره وأن هذا النعيم والسرور يصير فى القبر رياضا وجنة وذلك الضيق والحصر ينقلب فى القبر عذابا وسجنا فحال العبد فى القبر كحال القلب فى الصدر نعيما وعذابا وسجنا وإطلاقا ولا عبرة بانشراح صدر هذا العارض ولا يضيق صدر هذا العارض فإن العوارض تزول بزوال أسبابها وإنما المعول على الصفة التى قامت بالقلب توجب أنشراحه وحبسه فهى الميزان والله المستعان .

ومنها بل من أعظمها إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التى توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البر فإن الانسان إذا أتى الأسباب التى تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من أنشراح صدره بطائل ، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه وهو للمادة الغالبة عليه منها ، ومنها ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما وهموما فى القلب تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب فى كل آفة من هذه الآفات بسهم ، وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب فى كل خصله من تلك الخصال المحمودة بسهم وكانت همته دائرة عليها حائمة حولها فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم** ﴾[1] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[2] وبينهما مراتب متفاوته لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى . والمقصود أن رسول الله ـ ﷺ ـ أكمل الخلق فى كل صفة يحصل بها أنشراح الصدر واتساع القلب وقرة العين وحياة الروح فهو أكمل الخلق فى هذا الشرح والحياة وقرة العين مع ما خص به من الشرح الحسى وأكمل الخلق متابعة له أكملهم أنشراحا

---

(١) سورة الأنفطار الآية : ١٣

(٢) سورة الانفطار الآية : ١٤

ولذة وقرة عين على حسب متابعته ينال العبد من أنشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال . فهو فى ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من أتباعه والله المستعان وهكذا فمستقل ومستكثر فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . أ هـ .

قوله تعالى : **﴿ الله الذى نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾** .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

هذا مدح من الله ــ عز وجل ــ لكتابه القرآن الكريم العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ﴾** قال قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف ، وقال الضحاك : مثانى ترديد القول ليفهموا عن ربهم ــ تبارك وتعالى ــ وقال عكرمة والحسن : ثنى الله فيه القضاء . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما **﴿ مثانى ﴾** قال القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه على بعض .

وقال بعض العلماء : ويروى عن سفيان بن عينيه : معنى قوله تعالى : **﴿ متشابها مثانى ﴾** أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد فهذان من المتشابة ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا من المثانى كقوله تعالى : **﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾**[1] وكقوله تعالى ــ عز وجل ــ **﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾** إلى أن قال : **﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾**[2] وكقوله **﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾** إلى أن قال : **﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾** ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثانى أى : فى معنيين أثنين ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا فهو المتشابه ، وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله تعالى : **﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ﴾**[3] ذاك معنى آخر .

وقوله تعالى : **﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾** أى : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز ، الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف ، والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف **﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾** لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه **﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾**[4] فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه ( أحدها ) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ – ١٤

(٢) سورة المطففين الآيات : ٧ – ١٨

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧

(٤) سورة الرعد الآية : ٢٨

القينات ( الثانى ) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾[٢] أى : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم . ( الثالث ) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ـ ﷺ ـ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى فى الدنيا والآخرة .

قال عبد الرازق : حدثنا معمر قال تلا قتادة ـ رحمه الله ـ ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله : عز وجل ـ بأن تقشعر جلودهم وتبكى وأعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدى : ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ أى : إلى وعد الله ، وقوله : ﴿ **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده** ﴾ أى : هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله لذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ .

**قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون ﴾ .**

يقول تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أى : فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد ، وخبره محذوف كمن هو آمن من العذاب ؟ كما قال عز وجل : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾[٣] وقال ـ جلا وعلا ـ ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** ﴾[٤] قال المفسرون : الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان فى شىء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه ، وأيدى الكفار مغلولة يوم القيامة فإذا ألقوا فى النار لم يجدوا شيئا يتقونها به إلا وجوههم .

---

(١) سورة الأنفال الآيات : ٢ ـ ٤

(٢) سورة الفرقان الآية : ٧٣

(٣) سورة فصلت الآية : ٤٠

(٤) سورة القمر الآية : ٤٨

وقوله جلت عظمته : ﴿ **وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ أى : وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى ـ ذوقوا وبال ما كسبتم فى الدنيا ، ودستم به أنفسكم حتى أوقعتموها فى الهاوية النار الحامية .

ثم ذكر سبحانه ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأخروى فقال تعالى : ﴿ **كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون** ﴾ أى : إن بعض الأمم الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فلحقها الذل والصغار فى الحياة الدنيا ، وأن عذاب الآخرة لأنكى عاقبة وأشد أثرا لو علموا ذلك واعتبروا به . كقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى** ﴾[1] .

## « الأمثال فى القرآن »

قال تعالى :

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ **يتذكرون** ﴾ أى : يتعظون ، ﴿ **غير ذى عوج** ﴾ أى : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ﴿ **ضرب المثل** ﴾ تشبيه حال عجيبه بأخرى وجعلها مثلا لها ، ﴿ **متشاكسون** ﴾ أى : مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة اخلاقهم ، ﴿ **سلما لرجل** ﴾ أى : خالصا لسيد واحد ، ﴿ **تختصمون** ﴾ تحتكمون للقضاء .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم فأتاهم العذاب

(١) سورة طه الآية : ١٢٧

من حيث لا يشعرون فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والخسف والغرق ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ذكر سبحانه أن القرآن الكريم قد ضرب الامثال للناس بلسان عربى مبين لعلهم يرعوون ويزدجرون تيسيرا منه سبحانه ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[١] وضرب الأمثال للناس للعظة والذكرى ثم أردف ذلك ذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم وهناك يستبين المحق ، والضال والمهتدى فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم .

## « التفسير »

يقول تعالى : ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم** ﴾[٢] أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال عز وجل : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[٣] وقال عز وجل : ﴿ **يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له** ﴾[٤] وقوله جل وعلا : ﴿ **قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون** ﴾ .

أى : هو قرآن بلسان عربى مبين لا أعوجاج فيه ولا أنحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان كقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم أجرا حسنا** ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ كقوله جل فى علاه : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾[٦] أى : لعلهم يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد .

قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا** ﴾ أى : ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم : ماذا تقولون فى عبد مملوك قد أمتلكه شركاء ، بينهم أختلاف وتنازع ، فهم يتجاذبونه فى حاجاتهم وهو حائر فى أمره إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين ، وإذا احتاج فى مهم رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته ، ويقضى له سائر حاجاته ، فأى العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا ؟ ــ الجواب لا يحتاج إلى بيان ــ هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالا حائرا لا يدرى أى تلك الألهة يعبد ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفده ؟ أما من لم يثبت إلا إلها واحدا

---

(١) سورة القمر الآية : ١٧

(٢) سورة الروم الآية : ٢٨

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٣

(٤) سورة الحج الآية : ٧٣

(٥) سورة الكهف الآيتان : ١ – ٢

(٦) سورة طه الآية : ١١٣

# محتويات المجلد الخامس

## الجزء الحادى والعشرون
## سورة العنكبوت ( ٥٠ ـ ٦٩ ) ، سورة الروم ( ١ ـ ٦٠ )
## سورة لقمان ( ١ ـ ٣٤ ) ، سورة السجدة ( ١ ـ ٣٠ )
## وسورة الأحزاب ( ١ ـ ٣٠ )

### * سورة العنكبوت



### * سورة الروم



### * سورة لقمان



### * سورة السجدة

الصفحة

## * سورة الأحزاب



## الجزء الثانى والعشرون

### سورة الأحزاب ( ٣١ ـ ٧٣ ) ، سورة سبأ ( ١ ـ ٥٤ ) ، سورة فاطر ( ١ ـ ٤٥ ) ، وسورة يس ( ١ ـ ٨٣ )



## * سورة سبأ

## * سورة فاطر



## * سورة يس



# الجزء الثالث والعشرون

## سورة يس ( ٢٨ ـ ٨٣ ) ، سورة الصافات ( ١ ـ ١٨٢ ) ، سورة ص ( ١ ـ ٨٨ ) ، سورة الزمر ( ١ ـ ٣١ )



## * سورة الصافات

## * سـورة ص



## * سـورة الزمر



انتهى المجلد الخامس ويليه المجلد السادس
بإذن الله تعالى